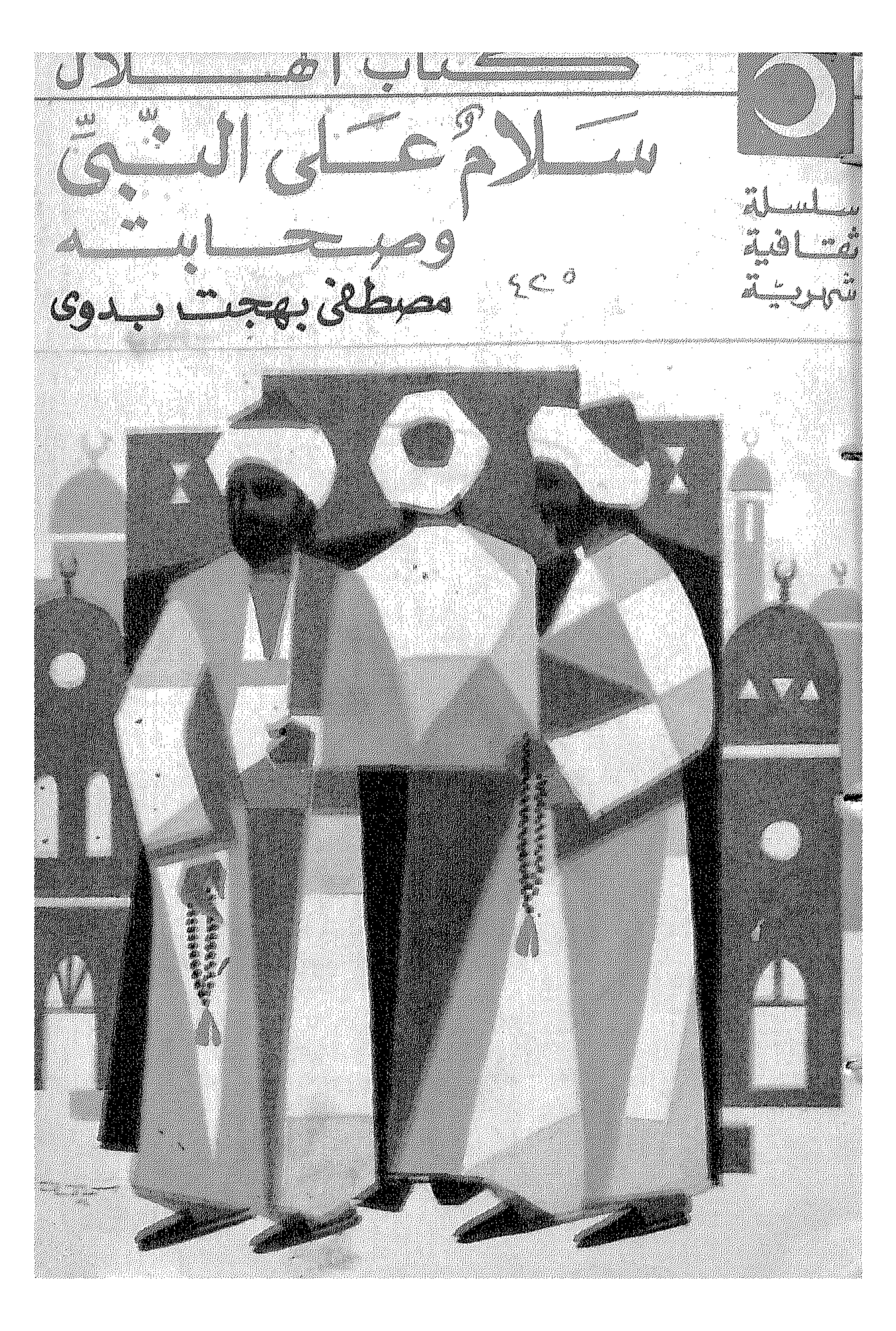


كتاب الهلال
سلام على النبي
وصحابته
٤٢٥
مصطفى بهجت بدوي
سلسلة
ثقافية
شهرية

كتاب الهلال

سلسلة شهرية تصدر عن ((دار الهلال))

رئيس مجلس الإدارة : مكرم محمد أحمد

رئيس التحرير : مصطفى نبيل

سكرتير التحرير: عايد عياد

مركز الادارة
دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

تليفون ٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط .

KITAB ALHILAL

العدد ٤٢٥ - شعبان ١٤٠٦ - مايو ١٩٨٦

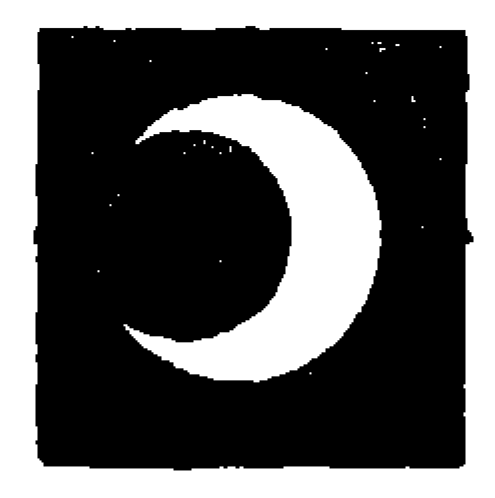
No. 425 May 1986

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) فى جمهورية مصر العربية تسعة جنيهات بالبريد العادى وفى بلاد اتحادى البريد العربى والافريقى والباكستان ثلاثة عشر دولارا او ما يعادلها بالبريد الجوى وفى سائر انحاء العالم عشرون دولارا بالبريد الجوى

والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج م ع نقدا او بحوالة بريدية غير حكومية وفى الخارج بشيك مصرفى لأمر موسسة دار الهلال وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة اعلاه عند الطلب

كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغلاف بريشة الفنانة
سميحة حسنين

سلام على النبي وصحابته

بقلم

مصطفى بهجت بدوي

●

دار الهلال

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

من البداية أود أن أكون واضحا مصارحا ، فلعل الوضوح والصراحة والبوح الخالص ايسر واقصر السبل لابتغاء واقامة وبسط تلك العلاقة السليمة والصداقة الحميمة بين الكاتب وقارئه ..

ليس هذا كتابا اكاديميا يتناول حياة نبينا الكريم محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم منذ مولده أو منذ بعثته حتى أن لحق بالرفيق الاعلى ، ولا هو يؤرخ ويحلل ويصنف شخصيات صحابته تفصيلا . كتب السيرة النبوية قديمها وحديثها انتهجت هذا النهج بأمانة عظيمة مستحبة . ولا اقول انها قطعت السبيل على أية اجتهادات أو اضافات أخرى في هذا المضمار . فهي ــ على تعددها ورحابتها ودقتها وشمولها ــ لتتسع لمزيد ، ولن تبرح الى أبد الدهر موحية بعديد من التناول والتدارس والعرض والتحليل ، باختلاف طرائق التفكير ومزاجات الشعور وأساليب التعبير . النبع والمادة والسيرة الفنية واحدة ، ولكنها تطوع تشكيلها بشتى الصور القلمية التي تستلهمها ، فيقبل عليها المريدون والقراء ، ويستزيدون ولا يسأمون .

ليس هذا اذن كتابا من كتب السيرة وان يكن تفيء بظلالها ، ولا هو على نسقها وان بدا أنه تفياه . هذا كتاب مختلف .

انه « بديل » عن ملحمة شعرية طويلة .. أذا صح التعبير ، أو بالاحرى اذا كان الاعتذار عنها على هذا الوجه مقبولا !

كيف ولماذا ؟

اقول .. فما فى قلبى على لسانى وقلمى !

ان القصائد والملاحم التى دبجت فى مدح النبى صلى الله عليه وسلم ، وفى التغنى بالسيرة النبوية الشريفة تفوق نجوم السماء عددا . ولعلها تستقل بذاتها كواحدة من اهم وانبل اغراض وأبواب الشعر العربى .

واذا كان من الشعراء من نعموا بحياة وجوار الرسول ولمعوا مثل حسان بن ثابت وكعب بن زهير والخنساء وكعب بن مالك ، فعلى الدرب تسابق من بعدهم مشهورون ومغمورون فى مختلف العصور تيموا به عليه السلام وبآل البيت حبا وشعرا !

مثلا .. ماذا بقى من البوصيرى ألا بردته وهمزيته حتى ان « شوقى » لم يستطع مقاومة اغراء معارضتهما ، ففعل وأبدع وتميز بقصيدتيه الطويلتين الرائعتين نهج ألبردة « ريم على القاع » والهمزية « ولد الهدى » وتشفع بهما .

ولكم عاش المنشدون على « ملحمة السيرة » التى نظمها عبد ألله عفيفى فى أواخر ألثلاثينيات فلم يعرف بغيرها !

واعترف امام اكداس هذا التراث العظيم انني شردت عن الموكب ، وان نفسى اللوامة ظلت تلتف فى حناياى حتى شكلت لى مايشبه « عقدة الذنب » !

والحكاية انني وقد تجاوزت اربعين سنة مع الشعر

ووحيه وسبعة دواوين أصدرتها .. لم أكتب ـ وياللعجب ـ سوى قصيدة واحدة قصيرة مشبوبة في أحب خلق الله الى الله والينا ـ عليه الصلاة والسلام ـ وضمها ديواني الاول ! « ارتجلتها » في الطريق الرملي « البدائي » آنذاك بين مكة والمدينة بعد أداء فريضة الحج سنة ١٩٤٥ ، وكأنما استحييت أن أزور مسجد الرسول قبل ان أكون عبرت فعلا بدمعي وشعرى عن جياش المحبة ! ورغم النزعة الدينية في الروح وفي عدد كبير من قصائدى فلم اتبعها بمدحة تالية !

ولطالما مناني شعري ومنيته أن أفتح فتحا جديدا في عالم المدائح النبوية ، لا بغية ذيوع الصيت ، بل ترجمة عن عميق انتمائي وولائي وامتناني لرسول الانسانية ! ولكن كلما شرعت .. تهيبت واستعصت الابيات على بناني وان تناثرت في وجداني .

اذن فشيء بالغ الاهمية لا يزال ينقص شعرى ودواويني !

ولم اتمن ـ فحسب ـ هذا الحلم الشعرى الذائب في حب النبي ، ولكني امسكت بالحلم نفسه لينتظم نبضات وكلمات وابياتا . صحيح أنني ترددت طويلا بين الشكل والنهج ، ولكني توهمت أنني توصلت اليه . واخذت أكتب واعدل ، ثم أعود فأكتب من جديد وأعدل ثم توقفت . ان الشاعرية ـ فيما اتصور وارجو ـ لم تضمر ولم تنضب ، ولكن آه من التهيب ! تخايلني ـ وتتحداني ـ رسالتي المنظومة الى المسيح عليه السلام « رسالة الى المسيح » التى أصدرتها سنة ١٩٧٥ في ديوان عزيز لدى ، وجياش المحبة والبوح . ورغم أننا

« لا نفرق بين أحد من رسله » ورغم أنها كانت بطبيعة الحال رسالة موحدة من نبت ثقافة الاسلام والعقيدة المحمدية ، الا ان توجهها آخر الامر هو الى المسيح عيسى بن مريم حتى ولو كان هدفها « مناشدته » أن ينزل الى الارض ليحل عليها السلام ، وليحكم بشريعة محمد سيد الانبياء والمرسلين . فيتوجب على اذن حين اهمس او اهزج بشعرى الى محمد عليه الصلاة والسلام ان تحاول ابياتى الرقى الى سماء لا تطاولها سماء . وهذا هو المركب الصعب المحير الذى جعلنى فى نهاية او بداية المطاف ـ اجنح الى « تأجيل المشروع » . وخطر لى ـ على البديهة والسجية ـ هذا البديل .. هذا الكتاب .

على اننى شعرت ـ وأنا ماض فيما أخط من صفحات هذا الكتاب ـ أن امتع وابدع واروع مافى الكتابة عن رسول الله عليه الصلاة والسلام ليس فى مجرد التعبير بكلمات مفعمة بالحب والتقدير نثرا أو شعرا فحسب ، ولكن فى هذا « الاسراء » الروحى والقلبى والفكرى اليه من خلالها ، وتصور صحبته وملازمته !

بحسب عاشق متدله مدنف فى حب رسول الله عليه السلام ان يطل على ملامح لاكرم واوعظ أيام التاريخ .. اعنى سيرته ، وأن يستضىء بأعظم واقوم ما بشرت وخوطبت به الانسانية .. اعنى دعوته ، وأن يستروح ازكى واندى مايضوع فى دنيانا من عبير وشذى ... اعنى بسجاياه ! بحسبه حلاوة هذا « التزامن الخيالى » الذى تسرح به الخواطر ويعرج وجدانها ! بحسبه انه يحلق بجناحين من الشوق والمحبة فيتمثل مايتمثل بل

يكاد يراه راى العين ! بحسبه انه يحلم بأن يغدو أهلا للحديث الشريف « المرء مع من أحب » .

نعم ! ما أكرم صحبة رسول الله رحمته وحلمه وعفوه وكل صفاته الكريمة .

من منا لاتعي ذاكرته ولو بعض عبارات من هذا الدعاء الضارع الخاشع المتدفق شجنا وبلاغة وايمانا والذى توجه به النبى صلى الله عليه وسلم الى ربه .

« اللهم أشكو اليك ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس . يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربى . الى من تكلنى ؟ الى بعيد يتجهمنى أم الى عدو ملكته أمرى ؟ ان لم يكن بك غضب على فلا أبالى ! ولكن عافيتك هى أوسع لى . أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن تنزل بى غضبك أو تحل على سخطك . لك العتبى حتى ترضى . ولا حول ولا قوة الا بك » .

وسبحان الله ! من العذاب تفجرت هـــذه العذوبة العذبة !

انه دعاء « الطائف » . .

ولقد زرت مدينة الطائف سنة ١٩٧٩ م فبدا لى لحظة دخولها أن هذا الدعاء الخالد يتردد صداه فى أرضها وسمائها فيهز أوتار القلب ! ولما تفرست فى وجـوه أهل الطائف رعايشتهم ألفيتهم فى مثـل لطف جـــو الطائف الذى يهرع اليه سكان السعودية يصطافون . وكان منوطا بابنى المهندس أن يشارك فى بناء ســـور مصلى العيد وتعبيد أرضها مع أن ثمة مصلى متسعا آخر لصلاة العيد فى عراء غير بعيد ، فضلا عن عشرات

المساجد ! وقلت : صدق رسول الله ! فدعاؤه الذى ما فتىء يشجينا انما رفع به الاكف بعد أن أساء أهل الطائف استقباله فى بدايات البعثة المحمدية ، وآذوه واعتدى عليه سفهاؤهم ورموه بالحجارة فلم تلن له قناة ، وظل ثابتا على دعوته وعلى قدميه اللتين سالت منهما الدماء الزكية الشريفة ! لم يغضب ، كان فقط يخشى غضب الله ولا أحد سواه . تفوق فى امتحان الصبر عليه السلام ! ثم أعقبه امتحان العفو والرحمة ! وتقول روايات السيرة أن الله عز وجل بعث لمحمد عليه السلام ــ بعد هذه المحنة ــ بملك الجبال يسأله ما اذا كان يرغب فى أن يطبق عليهم جبلى مكة «الخشبين» عقابا لهم على ايذائه وعلى كفرانهم ؟! ولكنه أبى أن يهلك قومه .. هم رموه بالحجارة وبما هو أقسى منها . رموه بالجحود رميا نفسيا ، فى حين أن هدفه ومرامه أن يهدى الله قومه فانهم لا يعلمون ! وأجاب نبى الرحمة ملك الجبال قائلا : « أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله لا يشرك به شيئا » .. نبوءة تحققت وشيكا ! واحرز الدرجة النهائية الرفيعة فى الامتحان الثانى مثل الاول . فطوبى للصابر الرءوف الرحيم والصادق الامين صلى الله عليه وسلم .

فليكن كتابى سوانح عن النبى وصحابته . عن محمد رسول الله والذين معه . فيض الخاطر وبجهد المقل . عن مواقف ووصف وصفات وقراءات وحكايات لاحت لى فى السيرة وبغير ترتيب زمنى . واذا كانت مجرد قطرات مطهرة فى بحر طاهر زاخر ، أو كانت لمحات عرضت لى وعرضت لها بين نور باهر غامر ، فانها فى

زماننا العربى الحالى الردىء الحافل بالاحباط هى منتجع الحسن والعزاء والامل .
واننى لادعو الله جل وعلا ان يكون ـ وان يشيع ـ كتابى هذا ايمانا لا يفتر ، ومحبة لاتنفد .
وسلام على النبى وصحابته ..

"وانك لعلى خلق عظيم"

حب النبى عليه الصلاة والسلام ليس الهدف منه بطبيعة الحال هو مجرد التعبير بالقول والمديح . حسبه أن الله جل جلاله أثنى عليه ثناء جميلا شاملا في قرآنه فقال « وانك لعلى خلق عظيم » ٤ القلم ، ، ونعته بكونه « سراجا منيرا » . كما أنه ـ سبحانه ـ شرفه بقوله « ان الله وملائكته يصلون على النبى يأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما » ٥٦ الاحزاب . عليه افضل الصلاة والسلام . انما الحب هنا فى حقيقته وخصوصيته مرده الى الايمان بمحمد نبيا ورسولا ، واتباعه ، والاقتداء به ، وايثاره . ذلك انها قضية دين أبلغه للناس كافة ، وقد بنى هذا الدين الاسلامى الحنيف أول واحسم وأخلد مابنى على شهادة الا اله الا الله وأن محمداً رسول الله .

نعم ! حب هو الايمان والاتباع والاستجابة والطاعة والايثار . فلنقرأ فى القرآن المجيد :

« فآمنوا بالله ورسوله والنور الذى انزلنا » ٨ التغابن « قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله » ٣١ آل عمران . « استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم » ٢٤ الانفال . « من يطع الرسول فقد اطاع الله » ٨٠ النساء . « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » ٧ الحشر . « ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا » ٣٦ الاحزاب . « لقد كان

لكم في رسول الله اسوة حسنة » ٢١ الاحـــزاب .
« النبي أولي بالمؤمنين من انفسهم » ٦ الاحزاب .
فاية منزلة عالية واية درجة رفيعة حقت لمحمد !
يقول عليه الصلاة والسلام « انا سيد ولد آدم ولا فخر » .
ويقول « مثلى ومثل الانبياء من قبلي كمثل رجل بنى بنيانا فأحسنه وجمله الا موضع لبنة من زاوية مـــن زواياه . فجعل الناس يطوفون به ويقولون : « هـــلا وضعت هذه اللبنة ؟ فانا اللبنة وانا خاتم النبيين » !
ولكنه يحذرنا فيقول : « لا تطرونى كما اطرت النصارى ابن مريم » .. مخافة الانسياق الى الشرك بالله ! وكانما ينبهنا الى الآية « قل انما انا بشر مثلكم يوحي الى انما الهكم اله واحد » ٦ فصلت ! وكانما يذكرنا بقوله تعالى « ليس لك من الامر شيء ، او يتوب عليهم او يعذبهم » ١٢٨ آل عمران .
فهنا مسالة دقيقة تعارف العلماء على تســـميتها « الشرك الخفى » .
فمن مقتضى الدين ان نحب سيدنا محمداً الحب كله ونؤمن به نبيا ورسولا ونتبعه ونطيعه . أما هؤلاء الذين يغالون فيدعونه كانما يسألونه الاجابة « يارسول الله اغثنا . ادركنا . اعطنا الخ » او يتوسلون به الى الله فى دعواتهم .. فليس من الدين فى شيء بل هـــو من المحظورات التى تعد شركا خفيا ! و « الوسيلة » فى الآية « يأيها الذين آمنوا أتقوا الله وابتغوا اليه الوسيلة » ٣٥ المائدة ليست توسلا الى الله بالنبى والاوليـــاء الصالحين ، وانما هى ــ لغويا واسلاميا ــ العمل الصالح فحسب !

والدعاء عبادة . وقد بينه الله على وجهه الأوحد فى الآية التى توسطت آيات الصيام ورمضان « واذا سألك عبادى عنى فانى قريب اجيب دعوة الداعى اذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون » ١٨٦ البقرة . حتى القسم والحلف بالنبى عليه السلام منهى عنه فيقول نبى الهدى « من كـــان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت » . ذلك هو الدين القيم !

وقد تعارف الدعاة على كونه « رحمة مهداة » ، والحق انه لكذلك ! انها رحمة مهداة من الرحمن الرحيم الى عبده ورسوله ليصبح رحمة مهداة الى خلق الله ! وكما وهبها عز وجل للنبى عامرة غامرة وثبتها فى فؤاده ، فانه اثبتها له فى قرآنه الكريم « وما أرسلناك الا رحمة للعالمين » ١٠٧ الانبياء . « لقد جاءكم رسول من انفسكم عزيز عليه ماعنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم » ١٢٨ التوبة . « فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ، فاعف عنهـــم واستغفر لهم وشاورهم فى الامر ، فاذا عزمت فتوكل على الله ، ان الله يحب المتوكلين » ١٥٩ آل عمران .

ذلكم هو النبى الذى ماخير بين أمرين الا واخذ أيسرهما « مالم يكن اثما » تخفيفا على أمته ورحمة بها . سيرته العطرة ألتى تفيأ بها أصحابه ومن جاء بعدهم وبعــدهم حتى تقوم الساعة هى كتاب رحمة وسراج منير .

وفى بعض الاحيان تنبىء شفافية واقعة صغيرة عـن معان كبيرة .

وعلى وفرة ما قرات وأقرأ فى الاحاديث والروايات التى يضوع فيها شذا سجاياه ــ عليه الســـلام ــ

فنستعيدها ونستزيدها وندلف الى رياضها بين حين وآخر ، وكأننا لا نبرحها ثم نشغل عنها لكنها لاتفارقنا ، فان هذه الواقعة الصغيرة المؤثرة قد علقت بذاكرتى مذ طالعتها .

اصطف الرجل فى صلاة الجماعة سعيدا ليس فقط لان ثوابها هو نحو نيف وعشرين ضعف صلاته منفردا ، ولكن لان الذى يؤم الصلاة هو رسول الله شخصيا ! وفجأة اثناء الصلاة عطس جار هذا الرجل ، فما كان منه الا أن « جامله » فشمتة .. اى قال له : يرحمكم الله ! وما ان انقضت الصلاة بالتسليمتين حتى هب فى وجهه من سمعوه وأوشكوا أن يفتكوا به فتكا بقوارص الكلام لولا ان حال بينه وبينهم رسول الله عليه السلام .

اسمع الرجل يحكى « فوالله مارايت معلما خيرا منه قط . والله مازجرنى ومانهرنى . وانما قال لى ان الصلاة عمل من اعمال الآخرة لا يصلح فيها عمل من اعمال الدنيا » !

لقد كان شافيا وبعيدا وقع هذه التربية المحمدية الشفوقة الرحيمة على الرجل وعلى من زجروه ... وعلى !

حفل ــ عليه الصلاة والسلام ــ بالفرد كما حفل بالجماعة وبالامة رحمة ورعاية وشجاعة .

ذات ليلة هجست خيالات فى اذهان اهل المدينة انهم سمعوا صوتا ينبعث من مشارف يثرب . ولان قريشا كانت بعد فى عنفوانها ، الامر الذى يجعل احتمالات الغارات على المدينة قائمة ، فقد القى فى روعهم ان الاعداء على الابواب ، وخشوا ان يؤخذوا على غرة ، مما

حدا ببضعة نفر أن ينطلقوا فى اتجاه الصوت .. لكنهم لم يكملوا المشوار ! فقد كان النبى صلى الله عليه وسلم قد سبقهم الى مصدر الصوت واقفل راجعا ممتطيـــا صهوة فرس « أبى طلحة » حاملا سيفه وهو يطمأنهــم ويطمئن الجميع أنه لاعدوان ولا عدو ولا يحزنون ! طيب خاطرهم قائلا : لم تراعوا .. لم تراعوا !

ما أحوجنـــا الى أن نتعلم من رحمته .. ومـــن شجاعته !

ولله ما أطيب تواضعك يارسول الله !

حين اكرمه الله بالنصر الذى جاهد من أجله ، والفتح الذى سعى وأصحابه اليه ،خفض رأسه تواضعا لله تبارك وتعالى حتى أن ذقنه لتمس ظهر راحلته ! اغرورقت عيناه بدموع الشكر والامل وهو يتلو قوله تعالى « انا فتحنا لك فتحا مبينا . ليغفر الله لك ماتقدم من ذنبك وما تأخر ، ويتم نعمته عليك ، ويهديك صراطا مستقيما، وينصرك الله نصرا عزيزا » ١ ـ ٣ الفتح .

اخ كريم وابن اخ كريم !

اى والله .. واذهبوا فانتم الطلقاء !

هكذا كان أعظم الناس .. وابسط الناس واخلصهم تواضعا !

كان يكره أن يقوم له أحد ، بل نهى عن ذلك وقال « لا تقوموا لى كما يقوم الاعاجم ، يعظم بعضهم بعضا » . فكان اذا اقبل عليهم ظلوا فى مكانهم لم يبرحوه !

من يصدق انه ـ عليه الصلاة والسلام ـ كـان اذا انتهى الى قوم جلس حيث ينتهى المجلس ـ فتـــلك

تعليماته وتعاليمه ـ حتى أن الغريب اذا حضر لزيارته لم يعرفه بين أصحابه فيتساءل : أيكم محمد ؟
وذات يوم دلف رجل فى حاجة ، فلما وقف بين يدى الرسول تهيب واجفل واخذته رعدة ! ففاجاه النبى الكريم و « فوقه » بقوله : هون عليك ! فلست بملك ولا جبار ! انما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد بمكة » !

فذهب الروع عن الرجل ونطق بحاجته .

ثم والحديد خام قال معلم الانسانية ـ عليه السلام ـ كلمته :

« يأيهـــا الناس انما أوحى الى أن تواضعوا . الا فتواضعوا حتى لا يبغى إحد على أحد ، ولا يفخر أحد على أحد . وكونوا عباد الله اخوانا » . فما أرقاه وما أصفاه دينا ورسولا !

أين نحن من مكانة رسول الله ؟ ثم أين نحن من تواضع رسول الله ؟ !

ولقد خيره الله بين أن يكون نبيا عبدا كما يعيش عباد الله البسطاء يكدحون فى سبيل الفكر والرزق ويرضون بما قسمه الله لهم رضاء المؤمنين السمحاء ، وبين أن يجمع الى سمو رنبالة النبوة والرسالة أبهـــة الملك والسلطان . فلم يتردد فى الاختيار : أن يغدو نبيا عبدا . آثر ان يمشى فى الاسواق ويتاجر التجارة الحلال عن أن يجرى الله معه الجبال ذهبا وفضة ويأتيه رزقه بغير جهد ولا حساب !
وفى المدينة المنورة حيث اقام النبى عليه الصـــلاة

والسلام بعد الهجرة فى مرحلة جديدة ايجابية وفعالة وحاسمة كان اول مافعل أن بنى مسجده ، وآخى بين المهاجرين والانصار ، وانهى عصبيات الاوس والخزرج المضللة المشتعلة ، وطمأن اليهود الخائفين على مصالحهم وأسرارهم الى أن يقضى الله امرا كان مفعولا . ثم اخذ يؤسس دعائم المجتمع الذى سوف يشع نوره على العالمين .

وذات يوم تبلبل زيد بن سعفة ـ وكان من كبار احبار يهود المدينة ـ وراح يحدث نفسه . أهو النبى المنتظر حقيقة ؟ لم يبق من علامات النبوة شىء الا وقد عرفته فى وجه محمد حين نظرت اليه الا اثنتين لم اكتشفهما بعد : يسبق حلمه غضبه . ولا تزيده شدة الجهل عليه والاجتراء الا حلما !

واراد زيد هذا أن يتبين هاتين العلامتين ليقطع الشك باليقين ! فمضى يتحايل ويتلطف للتواصل مع محمد بصورة مايكون من شأنها أن يسبر غور النبى عليه السلام .. حتى ولو كانت صورة فجة ! وهكذا قصد الى النبى يبتاع منه « تمرا » . وعجل له زيد بالثمن على ان يتسلم منه ثمره بعد أجل متفق عليه . اسلوب بيع وشراء جرى عليه العرف من قديم الازل ولن تمحى مثل هذه المعاملات ابدا .

وحتى ينفذ خطته المرسومة حضر « الخبيث » زيد الى النبى قبل موعد الاجل بثلاثة ايام فأخذ بمجامع قميص النبى وردائه وسأله فى استفزاز وغلظة وهو يقول :

الا تقضينى حقى يا محمد ؟ فوالله انكم يابنى عبد المطلب « مماطلون » !

واحتقن راس عمر بن الخطاب بالدماء واستشاط غضبا وقال له : ياعدو الله ! اتقول لرسول الله ما اسمع ؟

فوالله لولا ما احاذره لضربت بسيفي راسك !

ولم يناقش النبي زيدا في شان « اجل » خطأ حرف فيه ، ولا الفاظ وقحة خطاءة اقترفها ، وانما ابتسم النبي عليه السلام ناظرا الى عمر في هدوء قائلا :

« انا وهو كنا احوج الى غير هذا منك ! ان تأمرني بحسن الاداء ، وتأمره بحسن التقاضي ! اذهب ياعمر فاقضه حقه وزده عشرين صاعا مكان ما رعته ! »

وامتثل عمر لامر رسول يعرف كيف يجذب الناس بدعوته ، كما يكسبهم بحلمه وصبره .

واختلى زيد بن سعفة بعمر وطيب خاطره قائلا :

ياعمر لقد عثرت على ضالتي المنشودتين بهذا الذي اغضبك في حين ان حلم محمد سبق غضبه ولم تزده شدة جهلي عليه الا حلما . هكذا كملت لمحمد علامات النبوة . اشهدك اني قد رضيت بالله ربا وبالاسلام دينا وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيا ! وحسن اسلام زيد .

واكرم به حلما وكياسة ومخاطبة للناس على قدر عقولهم .

ومن العجب أن الصورة « الزيدية » في ظاهرها واولها اجتراء ودهاء ، وفي نتائجها وآخرها يقين وبر امان !

ارهاصات ما قبل البعثة المحمدية

مابين بعثة موسى وبعثة عيسى عليهما السلام قرون ، وما بين ميلاد ابن مريم والبعثة المحمدية ستة قرون وعشر سنين » ٦١٠ » . وكان بنو اسرائيل تسوسهم الانبياء كلما هلك نبى خلفه نبى كما حدث بذلك رسول الله عليه السلام . وكان المسيح بن مريم هو آخر الرسل الى بنى اسرائيل ، ثم انقطعت رسالة السماء حتى نزل الوحى على محمد الذى لانبى بعده والذى تفرد ايضا بكونه لم يبعث لقومه فحسب بل لجميع الناس الاولين الذين عاصروه والآخرين الذين بلغوا به « قل يأيها الناس انى رسول الله اليكم جميعا الذى له ملك السماوات والارض لا اله الا هو يحيي ويميت ، فآمنوا بالله ورسوله النبى الامى الذى يؤمن بالله وكلماته ، واتبعوه لعلكم تهتدون » ١٥٨ الاعراف . وليس فى التبيان والاعلان والاذهان ما هو اصرح ولا اوضح ، ولا ماهو احسم ولا احكم !

وقبيل البعثة المحمدية كان اليهود يعلمون حق العلم أن نبيا عربيا على وشك أن تتنزل عليه الرسالة السماوية فيكون خاتم النبيين « الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل ، يامرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ، ويضع عنهم اصرهم والاغلال التى كانت عليهم » ١٥٧ الاعراف . كما كان عدد من النصارى يترقبون مبعثه فقد بشر به ابن

مريم « ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد » .
٦ الصف . ولكن لعنة الله على الكافرين منهم جميعا الذين يكتمون الحق ويحرفون الكلم عن مواضعه ، وقاتل الله الحسد والكبر والعناد !

انقسم الناس فى الجزيرة العربية قبل البعثة المحمدية الى طوائف شتى ، فالاغلبية مشركون يعبدون أوثانا وأصناما تخيروها سواء منها ما كان بالكعبة أو حولها أو لدى القبائل والمنازل فى كل بقعة بين بلاد العرب . يتخذونها زلفى يتشفعون بها الى الله ، ثم فى غمار هذا يركزون عليها ويرتكزون فاذا هم قد نسوا الله وعبدوها من دونه . والاقلية بين يهود ونصارى . ولكن هل عدمت الجزيرة العربية من انفوا وخرجوا على هؤلاء وهؤلاء ، واقاموا او حاموا حول دين ابراهيم يعبدون الله وحده لا شريك له بلا حفلات وثنية ولا التواءات يهودية ولا طقوس نصرانية ؟ كلا . ما عدمت الجزيرة العربية أولئك على ندرتهم ، وكانهم باتوا ارهاصات ماقبل البعثة المحمدية .. من روادهم وفى طليعتهم رجل ضمت أسرته — فيما بعد — اثنين من العشرة المبشرين بالجنة ، واثنين من امراء المؤمنين ، وشهيدا من أشجع وأكرم شهداء صدر الاسلام والعشرات من التابعين الصالحين . ان هذا الرجل « النموذجى » هو زيد بن عمرو بن نفيل الذى مات قبل البعثة المحمدية بنحو خمس سنوات ، وهو ابو الصحابى الجليل سعيد بن زيد المبشر بالجنة . وعم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب المبشر بالجنة ، واخيه زيد بن الخطاب « البدرى » الذى حمل راية المهاجرين فى حروب الردة باليمامة وابلى بلاء عظيما ثم استشهد فيها فبكاه عمر

وهو يقول : سبقنى الى الحسنيين .. أسلم قبلى ، واستشهد قبلى . وهو « جد » أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز « خامس الخلفاء الراشدين » .

ولست اضن على زيد بن عمرو بن نفيل - رضى الله عنه - بافراد سطور مضيئة عنه وبثناء مستطاب ، وهو الذي ترحم عليه النبى عليه الصلاة والسلام وقال انه يبعث يوم القيامة امة وحده ويدخل الجنـــة . روي البخارى أن زيد بن عمرو بن نفيل خرج الى الشام يسال عن الدين ويتتبعه ، فلقى عالما من اليهود فسأله عـن دينهم لعله أن يدين به ، فقال له اليهودى انك لن تكون على ديننا حتى تأخذ نصيبك من غضب الله . قال زيد وما افر الا من غضب الله ! ثم انطلق حتى لقى عـالما من النصارى فسأله فقال له لن تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من الضلالة ! فقال زيد : من الضـلالة افر ، فهل تدلنى الى غيره ؟ قال النصرانى : ما أعلمه الا ان تغدو حنيفا . قال زيد : وما الحنيف ؟ قيل له : دين ابراهيم لا يعبد الا الله . فرفع زيد يديه وقال : اللهم انى اشهدك انى على دين ابراهيم . وكان زيد لاياكل ما يذبح على الانصاب ، ويقول ان الشاة خلقها الله ، فكيف تذبحونها على غير أسم الله ؟ واعتاد أن يقـــول للرجل اذا أراد أن يقتل ابنته : لا تقتلها .. انى اكفبك مؤنتها ! وروى عنه قوله : انا انتظر نبيا من ولد اسماعيل ثم من بنى عبد المطلب ، وما ارانى أدركه ، ولكنى اؤمن به واصدقه !

ومنهم قس بن ساعدة الايادى الذى عاش فى الجاهلية ردحا من الزمان ثم مات قبيل البعثة المحمدية باعوام .

وكان نوارة سوق عكاظ وخطيبها ، بليغ النثر والشعر حتى ذهب مثلا ، فكان العرب كلما أعجبهم قول أحد تمتموا : أبلغ من قس ! وهو القائل : أقسم قس بالله قسما لا ريب فيه . أن لله دينا هو أرضى من دينكم هذا . ثم أخذ ينشد أبياتا مازالت ترن في أذني من محفوظات مرحلة الدراسة الثانوية .

في الذاهبين الاولين من القرون لنا بصائر
لما رأيت موارداً للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومي نحوها يمضي الاصاغر والاكابر
أيقنت أني لا محالة حيث صار القوم صائر
لا يرجع الماضي الي ولا من الباقين غابر

ومنهم زهير بن أبي سلمى أحد شعراء و « حكماء » المعلقات السبع ، وهو القائل

ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله
على قومه يستغن عنه ويذمم
فلا تكتمن الله مافي صدوركم
ليخفى .. ومهما يكتم الله يعلم
يؤخر فيوضع في كتاب فيدخر
ليوم الحساب ، أو يعجل فينقم

وقد أسلم ابنه الشاعر « كعب بن زهير » متأخرا بعد فتح مكة وأنشد بين يدى الرسول قصيدته الذائعة الصيت التي يقول فيها .

أن الرسول لنور يستضاء به
مهند من سيوف الله مسلول

ثم .. أمية بن أبي الصلت . وكان شاعراً رصينا يمتلىء شعره بهواتف ايمانية ظاهرة قبيل البعثة

المحمدية . فلما أوحى الى رسول الله كاد أمية أن يسلم ، ولكن غلبت عليه شقوته وأخذته حمية الجاهلية . ولم آسف على عدم اسلام شاعر قدر ما أسفت عليه . فلكم تمنيت لو آمن وامتد به الاجل ، ولكن ليس كل مايتمنى المرء يدركه . كان جديرا أن يحتل مكانة حسان ابن ثابت بين شعراء الاسلام ، فهو أعلى كعبا وأمكن لناصية النظم الجميل والسبك الشعرى المحكم والديباجة المشرقة لولا الغيرة والحسد ، فقد كان يطمع أن يغدو هو الرسول المنتظر .. والله أعلم حيث جعل رسالته . فمثل امية بشعره البليغ الظاهر الايمان ثم موقفه الحاقد الزائغ المارق كمثل من قال فيه علام الغيوب جل وعلا « واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فاتبعه الشيطان فكان من الغاوين » ١٧٥ الاعراف .

عفوك يارب . كيف آسى هذا الاسى على أن ضاق صدر أمية بن أبي الصلت بالاسلام ، وهناك من كان أقرب الناس الى رسول الله عليه السلام .. كفله وحماه وذاد عنه ، ولكنه رغم ذلك كله لم يسلم ؟ أعنى أبا طالب عم النبي الذى ود النبي لو جعله ينطق بشهادة الا اله الا الله حين حضرته الوفاة فلم يفتح الله عليه بها . ونزل فيه قوله تعالى « انك لا تهدي من أحببت ، ولكن الله يهدي من يشاء » ٥٦ القصص . ومن « المقابلة » فان النبي عليه السلام حين كسرت رباعيته في غزوة أحد وشج في وجهه جعل يمسح الدم ويقول : كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم وهو يدعوهم الى الله ؟ نزل قوله تعالى « ليس لك من الامر شيء ، أو يتوب عليهم أو يعذبهم فانهم ظالمون » ١٢٨ آل عمران .

واذا كان « حسن العمل » امرا بالغ الاهميـــة فان « حسن الختام » هو الامر الاكثر اهمية . لا يغيب عن خاطرى ابدا حديث نبوى يعلق الاعمال على خواتيمها فى سياق يحسب له الف حساب . حديث اشفق منه اشفاقا ، وابتهل ابتهالا الى الله فى غير قنوط ، فان رحمته قريب من المحسنين .. يقول عليه الصلاة والسلام « ان احدكم ليعمل بعمل اهل الجنة حتى اذا كان بينه وبينها مسيرة ذراع سبق عليه القول فعمل بعمل اهـــل النار فدخل النار . وان احدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى اذا كان بينه وبينها مسيرة ذراع سبق عليه القول فعمل بعمل أهل الجنة فدخل الجنة » .

وانني لأوقن أن « القول » المنصوص عنه فى هـــذا الحديث الشريف هـــو « العلم .. علم الله » وليس « الجبر » . ففى كل انسان نوازع شر كامنة ونوازع خير كامنة . والا اذا رانت على القلب ، فقد تطفو الاولى « نوازع الشر » على السطح دهرا ثم فى فورة هـــدى طارئة موقوتة بزمن معين يصادف آخر العمر يســـبق ويبرز الخير ، فى حين يتخلف وينطوى الشر فاذا هو من الخيرين المقبولين . والعكس بالعكس . ومن الطبيعى ومن المؤكد أن هناك من عاشوا بالضلال وانتهوا به ، وهناك من هدوا الى الصراط المستقيم ومضوا عليه حتى الختام .

ليس لرسول الله من الامر شيء ــ فى معنى الآية السابقة ــ اللهم الا الشفاعة فى الاخرة لمن ارتضى الله الذى لا يشفع أحد عنده الا باذنه ، وقد وعد الله نبيه بهذا المقام المحمود يوم الحساب فهو الشفيع المشفع .

غير ان الله عز وجل قد يطلع رسوله على مصائر عدد أو آخر من عباد الله الذين صاحبوا النبى أو عاصروه مثلما أنبأ عن « العشرة الكبار » المبشرين بالجنة « ابوبكر وعمر وعثمان وعلى وابو عبيدة وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبى وقاص وسعيد بن زيد .. رضوان الله عليهم » . ومثلما قال قولته المبشرة فى شأن من شهدوا وشاركوا بالقتال فى غزوة بدر من المسلمين « لعل الله اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد وجبت لكم الجنة » .. ومثل حالات فـردية أخـرى متناثرة ومتواترة .

ولعلى أضرب مثلين لبيان الوجهين المتقابلين للختـام « المفاجىء » .. اعلم الله بهما نبيه ، وكلاهما فى غزوة « أحد » .

يروى ابن اسحق عن ابن قتادة قال : كان فينا رجل اتى « دخيل » لا ندرى من هو ، يقال له قزمان . فكان رسول الله يقول اذا ذكر قزمان « انه لمن أهل النار » . فلما كان يوم أحد قاتل قزمان قتالا شديدا حتى لقد قتل هو وحده ثمانية من المشركين . وكان ذا بأس فاثبتته الجراحة فاحتمل الى دار بنى ظفر . فأخذ رجال من المسلمين يقولون له : والله لقد أبليت اليوم يا قـزمان فأبشر ! قال : ما قاتلت الا عن أحساب قومى ، ولولا ذلك ماقاتلت . فلما اشتدت عليه جراحه اخذ سهما فقتل به نفسه ! وكان النبى عليه الصلاة والسلام يقول « ان الله لا يدخل الجنة الا نفسا مسلمة ، وان الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر » .

كما روى ابن اسحق ـ من جانب آخر ـ ان أبا هريرة

كان يسال الناس وكانه يطرح امامهم احدى « الفوازير »!
حدثوني عن رجل دخل الجنة ولم يصل قط صلاة واحدة
فلما عجز الناس سالوه من هو ؟ قال : أصـيرم بني
عبد الاشهل عمرو بن ثابت .. كان يابى الاسلام على
قومه ، فلما كان يوم أحد بدا له فاسلم ثم أخذ سيفه فغدا
حتى دخل في عرض الناس فقاتل مع المسلمين حتى
اثبتته الجراحة . فبينما رجال من بني عبد الاشـهل
يلتمسون قتلاهم في المعركة اذا هم به فعجبوا وهو الذي
أبى الاسلام وانكره فسالوه : ماجاء بك ياعمرو ؟ أحدب
على قومك أم رغبة في الاسلام ؟ قال : بل رغبـة في
الاسلام . آمنت بالله ورسوله واسلمت ، ثم أخذت
سيفي وغدوت مع رسول الله فقاتلت حتى اصـابني
ما أصابني . فلم يلبث أن مات في أيديهم . فذكـروه
لرسول الله عليه الصلاة والسلام فقال : انه من أهل
الجنة .

فاللهم اختم بالباقيات الصالحات أعمالنا ، واجعل خير
أعمالنا خواتيمها وخير أيامنـا يوم لقائك يا أكـرم
الاكرمين .

التدرج حتى تمام الرسالة

انزل الله القرآن بلسان عربى مبين « وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم » ٤ ابراهيم . « وكذلك انزلناه قرآنا عربيا ، وصرفنا فيه من الوعيـــد لعلهم يتقون او يحدث لهم ذكرا » ١١٣ طه . نعم قرآن عربى ولكنه للعالمين ، وليكون للذين آمنوا من شتى الامصـــار والاجناس والالسنة فى الحال والاستقبال ذكرا وهدى ونورا « ان هــو الا ذكر للعــالمين » ٢٧ التكوير . « ولو جعلناه قرآنا اعجميا لقــالوا لولا فصلت آياته أأعجمى وعربى ، قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء ، والذين لا يؤمنون فى اذانهم وقر وهو عليهم عمى » ٤٤ فصلت .

نزل القرآن اذن بلغة العرب . بحروفها . حتى لقد ذهب جمهور المفسرين لفواتح بعض السور « الم . كهيعص طسم . حم . عسق . ألر . ص . ق » . الى آخر ماجاء فى أول سور من القرآن المجيد . ذهبوا الى ان هــذه الحروف العربية حجة عليهم ، أى انه كتاب انزله الله باللغة ذاتها التى ينطق بها العرب ولكنهم لن يستطيعوا أن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا لانه من لدن الله الحكيم العليم . تحداهم ان يجيئوا بصورة من مثله ثم جزم بأن ذلك مستحيل عليهم ليس فى مكنتهم أو قدرتهم « وان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين . فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس

والحجارة أعدت للكافرين » ٢٣-٢٤ البقرة . فمعجزة النبي الرسول محمد الخالدة الابدية هي القرآن الكريم . في بلاغته ونسقه ، في أدائه ومعناه ، في احكامه « بكسر الهمزة » وأحكامه « بفتح الهمزة » ، في أنباء الغيب وفي أسرار الخلق ، في الاجمال وفي الدقائق ، في قصار السور وفي طوالها ، في المكية منها وفي المدنية ، في وعده وفي وعيده ، في هديه وفي نوره ، في شفائه وفي رحمته ، في اشاراته البديعة لخفايا العلوم الكونية وفي تشريعاته المحكمة للقيم الروحية .. في .. في كل شيء ..

ان العرب قبل الاسلام كانوا قريبي عهد بجاهلية موغلين فيها . ومن هنا فقد قضت ارادة الله وعلمه وحكمته ان تمتد الرسالة المحمدية ثلاث وعشرين سنة حتى تستقر . تتدرج حتى تتوطد . تناضل حتى تنتصر . ان محو المفاهيم الخاطئة ، ونقل الناس من الظلمات الى النور ، وارساء التشريعات الكاملة ، واتمام نعمة الدين الاسلامي في تلك المرحلة البازغة أمور تتطلب تدرجا وكفاحا ومكابدة ووقتا « وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا » ١٠٦ الاسراء « هذا ذكر من معي وذكر من قبلي » ٢٤ الانبياء . «وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة ، كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا . ولا يأتونك بمثل الا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا » ٣٢-٣٣ الفرقان .

« التدرج » والتوالي والاضطراد من السمات الملحوظة والقسمات المقدرة للاسلام منذ ان نزل الوحي على النبي الرسول محمد في غار حراء باول الآيات « اقرأ باسم ربك

الذي خلق . خلق الانسان من علق . اقرأ وربك الاكرم . الذي علم بالقلم . علم الانسان ما لم يعلم » ١ ـ ٥ العلق، حتى آخر ما انزل من آيات الكتاب الكريم والذكر الحكيم « اليوم اكملت لكم دينكم ، واتممت عليكم نعمتي ، ورضيت لكم الاسلام دينا » ٣ المائدة .

لقد القى الله على نبيه قولا ثقيلا . ثقيلا في دعوته ومسيرته فليس كل الناس سواء في التقبل أول الامر ، ثقيلا في تبعاته ومسئولياته ، ثقيلا فيما سوف يجيء به مما اذا عملت به الناس ثقلت معه موازينهم وعاشوا عيشة راضية في الدنيا والآخرة .

ولا يتأتى الا أن يبدأ دين التوحيد بما هو خليق ومؤكد أن يبدأ به : بدعوة التوحيد .. الا اله الا الله وحده لا شريك له ، ثم بأن محمدا عبد الله ورسوله . ولكن من التدرج ان ينذر النبي بذلك أهل قرباه ومن حوله « وانذر عشيرتك الاقربين . واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين . فان عصوك فقل اني بريء مما تعملون . وتوكل على العزيز الرحيم » ٢١٤ـ٢١٧ الشعراء . آمن بالاسلام أول من آمن خديجة زوج النبي وربيبه زيد بن حارثة وابن عمه علي بن أبي طالب وصديقه أبو بكر . ثم في «السر» وبما يشبه « الهمس » اخذ كل من اسلم يبلغ صاحبه الذي هو موضع ثقته والذي يتوسم فيه قابلية الانبعاث الى الهدى ، فاذا شرح الله صدره للاسلام وجهه الى النبي عليه السلام ليشهده ويسمع منه وليشهد أمامه ويتعهد . وصعد الصادق الامين فوق « الصفا » ، وطفق ينادي على أهل مكة حتى اذا احتشد من احتشد هتف فيهم : «أرأيتم لو اخبرتكم أن خيلا بسفح الجبل أكنتم تصدقون ؟

قالوا : نعم ، انت عندنا غير متهم ، ولا جربنا عليك كذبا قط . قال : فاني نذير بين يدى عذاب شديد . يامعشر قريش ! ان الله امرنى أن أنذر عشيرتى الاقربين وانى لا أملك لكم من الدنيا منفعة ولا من الآخرة معينا الا أن تقولوا لا اله الا الله » . ووقع هذا القول على «الجماهير» وقع الصاعقة ــ وهو « قارعة » بكل المعايير ــ حتى أن أبا لهب ــ عم النبى ــ قال له : تبا لك ، ألهذا جمعتنا ؟ . . فتبت يدا أبى لهب وتب !هكذا كان يبلغهم النبى وينذرهم ويحذرهم . كقوله تارة أخرى « انما مثلى ومثلكم كمثل رجل أتى قومه فقال لهم انى رأيت العدو بعينى هاتين فالنجاة النجاة ! فصدقه فريق منهم فادلجوا بليـــل فنجوا . وكذبه فريق آخر فصبحهم العدو فأهلكهم » .

الاضطهاد والسخرية والمقاطعة والايذاء تبدأ فيـــه قريش وتزيد . والمسلمون قليل ! ويرخص النبى لجماعات منهم بالهجرة الى الحبشة فرارا من أذى قريش . حتى الهجرة جرى عليها نهج التدرج و « قانون التطور » . الحبشة بادىء ذى بدء لمحض النجاة و « الفـــرار » المرحلى . ثم المدينة المنورة ثانيا للنجاة والفر فالكر حيث تتعزز قوى المهاجرين بالانصار .

ثم درجة حادة أو منفرجة . خطوة متقدمة ومحتمة فى المسيرة وتصريح ربانى للمسلمين الذين بغى عليهم المشركون واعنتوا ، أو ظلموا وقاتلوا ، أن يردوا فيقاتلوهم « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وأن الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق الا أن يقولوا ربنـــا الله ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ،

ولينصرن الله من ينصره ، ان ألله لقوى عزيز » ٣٩-٤٠ الحج . وبشارة بنصر بدر « سيهزم الجمع ويولون الدبر » ٤٥ القمر ، فتذكير للمسلمين بما من الله عليهم به ومع التذكير تحذير « ولقد نصركم الله ببدر وانتم اذلة ، فاتقوا الله لعلكم تشكرون » ١٢٣ آل عمران . وما بين نصر بدر فهزيمة احد فانحسار الاحزاب فصلح الحديبية لتدرج المراحل وتشتد شوكة المسلمين حتى فتح مكة .

ولا جرم ان الفتح كان ذا اهمية قصوى ، بيد انه لبس خاتمة المطاف ، فالليالى لن تبرح حبالى يغشيها ماغشى ، والامتحانات قائمة « ويوم حنين اذ اعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا ، وضاقت عليكم الارض بما رحبت ثم وليتم مدبرين . ثم انزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وانزل جنودا لم تروها ، وعذب الذين كفروا ، وذلك جزاء الكافرين . ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء ، والله غفور رحيم » ٢٥-٢٧ التوبة .. حتى خطبة الوداع وتمام الرسالة ووفاة النبى .

هكذا اتتبع - ببعض النماذج فى سطور وباختصار ومن خلال كتاب الله وسنة رسوله وسيرته - الدعوة الاسلامية وما واكبها من تدرج ومعارك ، من سر فجهر ، من استهزاء واحتمال ، وهجرة فمنعة ، من تصاعد فاكتمال .

ولنمسك بجانب آخر . الصلاة - مثلا - بركوعها وسجودها كانت اقرب الى « التطوعية » فى بدايتها ركعتين ركعتين الى ان كتب الله على المسلمين الصلوات الخمس المفروضة عندما اسرى بالنبى عليه الصلاة والسلام من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى وعرج به السماء فى

تلك الليلة المشهودة التاريخية المعجزة بلا مراء .. ليلة الاسراء والمعراج : ليلة مباركة من شهور رجب قبل نحو سنة « ١٦ شهرا » من الهجرة النبوية . ليلة اكرم الله فيها النبي وأعز أمة الاسلام وأعلى قدر الصلاة حيث فرضها « مباشرة » من فوق سبع سماواته . ثم أوضح جبريل للنبي كيفية الصلاة تماما وأوقاتها وركعاتها على وجه التحديد والتفصيل . هكذا غدت الصلاة على المؤمنين كتابا موقوتا وفرضا وعمادا للدين .

ومن التدرج والتطور والتحول .. قبلة المسلمين . كان النبي والمؤمنون يستقبلون فى صلاتهم المسجد الاقصى ، وبالنبي حنين كامن جارف الى مكة والكعبة « موطن النبي واول بيت وضع للناس » حتى جاءت السنة الثانية الهجرية بالمدينة فنزل قوله تعالى « قد نرى تقلب وجهك في السماء ، فلنولينك قبلة ترضاها ، فول وجهك شطر المسجد الحرام ، وحيث ماكنتم فولوا وجوهكم شطره » ١٤٤ البقرة . ومن ثم تحولت القبلة من المسجد الاقصى الى المسجد الحرام ، ولله المشرق والمغرب وما كان الله ليضيع على المؤمنين ماصلوه من قبل « وما كان الله ليضيع ايمانكم » ١٤٣ البقرة .

حتى الآذان .. استقر عليه الشرع على مكث . كان المسلمون يجتمعون الى الصلاة حين مواقيتها بغير دعوة . وفى السنة الاولى للهجرة كاد النبي أن يتخذ بوقا كبوق اليهود للدعوة الى الصلاة ، ولكنه كره ذلك وانصرف عنه ولم يعمل به . ثم اتجه الى أن ينبه الناس ويدعو للصلاة على دقات ورنين الناقوس ، ولكنه ايضا عدل عن التشبه بالنصارى . فأوحى الله له أن يرتفع صوت المؤذن بالنداء

الخاشع الجامع ، المعبر المؤثر للدعوة الى الصلاة . وهو الآذان المعروف للآن وللأبد والذى تخير له النبى عليه السلام بلال بن رباح ليرفعه بصوته الندى .

والصيام هو الآخر تدرج من التطوع بصيام أيام متفرقات فى كل شهر واستحباب صوم يوم عاشوراء .. الى ان حانت السنة الثانية الهجرية ففرض الله صيام شهر رمضان « يأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون . اياما معدودات » ١٨٢ ـ ١٨٣ البقرة « شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ، فمن شهد منكم الشهر فليصمه ، ومن كان مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر ، يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ، ولتكملوا العدة ، ولتكبروا الله على ماهداكم ، ولعلكم تشكرون » ١٨٥ البقرة .

وفى السور المكية آيات عديدة تدعو لانفاق الاموال والتصدق والتزكية بها على الفقراء والمساكين والمحتاجين « ورحمتى وسعت كل شىء ، فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا مؤمنون » ١٥٦ الاعراف . « والذين هم للزكاة فاعلون » ٤ المؤمنون . « وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون » ٣٩ الروم . « والذين فى أموالهم حق معلوم . للسائل والمحروم » ٢٤ـ٢٥ المعارج . ثم فرضت الزكاة فرضا وتحدد نصابها وأشراطها وأنواعها وأوجهها تماما مع السنة الثانية الهجرية . ففى المدينة المنورة أخذت معالم الدولة الاسلامية تتشكل وتتحدد وتتوطد وتوالت التشريعات السماوية للدين والفقه والدنيا

والمعاملات والحكم بما انزل الله ».

ومن الامثلة التى تنطق بسنة التدرج من مرحلة حتى مرحلة ، وهيئت الاذهان تباعا الى أن استقرت على الحكم النهائى فيها .. « الخمر » ، وكأنما الحكم فيهـــا كان « يختمر » حتى قضى الامر ! ففى البداية كان لا تثريب على المسلمين ان هم عاقروها ، وان كان المتنعون عنهـا تحرجا لدينهم كثر ! وفى المدينة المنورة سألوا عن «وضعها» فنزل قوله تعالى « يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما اثم كبير ومنافع للناس ، واثمهما اكبر من نفعهما » ٢١٩ البقرة . وتلى ذلك أن حظر الله عليهم أن تجتمع الصلاة مع الخمر وآثارها فانزل قوله سبحانه « يأيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وانتم سكارى حتى تعلموا ماتقولون » ٤٣ النساء . فطفق الذين يشربونها لا يتناولونها الا بعد صلاة العشاء « وفى زماننا الحاضر يقف البعض عند هذه الآية ويتأولونها « فيسكرون » بعد العشاء ناسين أن من الايات القرآنية ما ينسخ آيات سبقتها فيؤخذ بالحكم الاخير الناسخ الذى يسرى والذى يفصل والذى يقطع » الفيصل فى هـــذا الشـــأن هو قوله تعالى « يأيها الذين آمنوا انما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمـل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون . انما يريد الشيطان ان يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميســـر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة ، فهل انتم منتهون . واطيعوا الله واطيعوا الرسول واحذروا » ٩٠ـ٩٢ المائدة. والمشهور أن عدو الخمر اللدود والذى هيأه الله لان يدعوه بأن يبين للمؤمنين فيها بيانا شافيا هو عمر بن الخطاب ، فتنزلت تلك الآيات من سورة المائدة ، فقال النبى عليه

الصلاة والسلام « حرمت الخمر » . وروى أن أبا عبيدة كتب الى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أن نفرا من المسلمين أصابوا الشراب ، فلما سئلوا قالوا : خيرنا الله فاخترنا .. قال « فهل أنتم منتهون ؟ » ولم يعزم ! فجمع عمر الناس فأجمعوا على خلاف هؤلاء النفر وأن المعنى فى « فهل أنتم منتهون ؟ » أى انتهوا . واجمعوا على جلد شاربى الخمر ثمانين جلدة ، وأن من تأول هذا التأول واصر عليه فهو مارق ، وأن من أقر بتحريم الخمر وشربها يتعين أن يقام عليه الحد .

تلك أمثلة لألوان من التدرج والتصاعد بالبناء حتى الذروة لبنة لبنة ..

ولعل مناسك الحج كانت - بالضرورة - من أواخر الشعائر التى فصلت تفصيلا . فقد علمها النبى عليه الصلاة والسلام لابى بكر الصديق حين بعث به فى السنة التاسعة الهجرية على رأس ثلثمائة مسلم الى مكة ليحج بالناس . وحرم الله - مع هذه الحجة - مكة على المشركين والكفار « انما المشركون نجس ، فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا » ٢٨ التوبة . ثم أدى النبى فريضة الحج بمناسكها كاملة فى حجة الوداع ليتعلم الناس وليحجوا وفق ما رأوه يحج ، مثلما يصلون كما رأوه يصلى .. وتتواتر السنة الاسلامية المحمدية فعلا وقولا . وفى حجة الوداع نزل الوحى على محمد بآخر ما نزل به من القرآن « اليوم اكملت لكم دينكم » . فلا ثمة تدرج بعد ، وقد أوفت الرسالة المحمدية على تمامها . والقى عليه الصلاة والسلام فى حجة الوداع خطبة الوداع الدافئة

الوافية البليغة المبلغة والتى جاء فى ختامها قوله عليه السلام « فاعقلوا أيها الناس قولي فاني قد بلغت . وقد تركت فيكم ما ان اعتصمتم به فلن تضلوا ابدا امرا بينا : كتاب الله وسنة رسوله » .

اللهم نشهد ان محمدا نبيك المصطفى قد بلغ الرسالة وادى الامانة .

في وصف رسول الله

عمرو بن معد يكرب تنسب اليه حكايات طويلة عجيبة في صدر الاسلام . والذي يعنيني هنا ماينسب اليه من ابيات شعر عامرة ناضرة جاء فيها قوله :

انني بالنبي مؤمنة نفسي وان لم أر النبي عيانا
سيد العالمين طرا وأدناهم الى الله حين بان مكانا
ان تكن لم نر النبي فانا قد تبعنا سبيله ايمانا

وجمال هذه الابيات هو في بساطتها وصدقها . ونفاذها الى الوجدان عائد الى جزالتها وطلاوتها وحلاوتها المعبرة وكأنما لا يفصح الشاعر عن نفسه فحسب بل يعبر عنا جميعا نحن الذين لم نر النبي صلى الله عليه وسلم . فكيف وصف قسمات وجهه وخلقه وسماته وهيئته هؤلاء الذين رأوه فتوارثنا عنهم مجملها وطالعناها على الغيب وعلى التقدير وعلى التصور ، حتى ولو لم يكن الكثيرون قد اطلعوا على دقائق هذا الوصف . أو ليس عامة المسلمين اليوم — وخاصة البائعون الجائلون وغيرهم كثيرون — يرددون بعفوية وتلقائية وعلى البداهة قولهم : اللهم صلي على جمال النبي ؟ أولسنا نؤكد حين يذكر الجمال أنه « ما جميل الا سيدنا محمد » ؟

فلننقب في أوراق من اسهموا واسهبوا في وصفه عليه السلام .

بين الروايات الطلية عن هجرة النبي وفي صحبته ابوبكر

من مكة الى المدينة ، انهما ومعهما مولى أبى بكر ودليلهم عبد الله بن اريقط مروا بخيمة أم معبد الخزاعية ، فسألوها هل عندها لحم أو لبن يشترونه منها ؟ قالت : لو كان عندنا شيء ما أعوزكم القرى « أى الاستضافة والاطعام »! فنظر رسول الله عليه السلام فاذا شاة فى كسر خيمة أم معبد فسألها عنها فقالت : هى شاة خلفها الجهد عن الغنم . قال عليه السلام : أتأذنين لى أن أحلبهما ! قالت : أن كان بها حلب فاحلبها ! فدعا النبى بالشاة فمسحها وذكر اسم الله ، ومسح ضرعها وذكر اسم الله . وطلب آناء كبيرا يشبع الجمع الغفير فحلب فيه حتى ملأه . فسقاها وسقى أصحابه فشربوا حتى اذا رووا شرب هو آخرهم وقال : ساقى القوم آخرهم ! ثم حلب فيه ثانيا عودا على بدء وتركه عندها ، ثم ارتحلوا . فما لبث أن جاء زوج أم معبد يسوق أعنزا عجافا . فلما راى اللبن عجب وقال لزوجته : من أين هذا اللبن يا أم معبد ، ولا حلوبة فى البيت والشاة عازب ؟! فقالت : لا والله انه مر بنا رجل مبارك كان من حديثه كيت وكيت . فقال : صفيه لى ، فوالله انى لاراه صاحب قريش الذى تطلب ! فمضت أم معبد تصف رسول الله عليه الصلاة والسلام قائلة « رأيت رجلا ظاهر الوضاءة ، حسن الخلق ، مليح الوجه . لم تعبه ثجلة « أى ضخم البطن » ولم تزريه صعلة « أى صغر رأس » . قسيم وسيم ، فى عينيه دعج ، وفى اشفاره « منابت أهداب العين » وطف « طول شعر » ، وفى صوته صحل « أى بحة وخشونة يسيرة » . أحور ، أكحل ، أزج « من دقة الحاجب واستقواسه » . أقرن « اتصال الحاجبين » . فى عنقه سطع « امتداد الى

السماء » ، وفى لحيته كثاثة . اذا صمت فعليه الوقار ، واذا تكلم سما وعلاه البهاء . حلو المنطق فصل ، لا نزر « لا قليل الكلام » ولا هذر . كأن منطقه خرزات نظم ينحدرن . ابهى الناس واجمله من بعيد ، واحلاه واحسنه من قريب . ربعة « وسيط القامة » لا تشنؤه عين من طول ، ولا تقتحمه عين من قصر . له رفقاء يحفون به ، ان قال استمعوا لقوله ، وان أمر تبادروا الى أمره . محفود محشود « مخدوم مجتمع عليه » لاعابس ولا معتد» فقال زوجها أبو معبد : هذا والله صاحب قريش الذى تطلب . لو صادفته لالتمست أن اصحبه ، ولاجهدن فى ذلك . وقد اسلم الاثنان أبو وأم معبد .

ومن الوصافين المشاهير هند بن أبى هالة ربيب النبى عليه السلام « كانت أمه خديجة بنت خويلد وابوه ابوهالة ثانى زوجيها السابقين قبل زواجها من النبى » . والذى التمس من هند وصف النبى هو قرة عين النبى وحفيده ، وسبطه الحبيب ، الحسن بن على بن أبى طالب . لم يشاهد جده الا طفلا صغيرا لا يحسن — على امتيازه — تمييز وتذكر الملامح جيدا . قال الحسن رضى الله عنه : سألت خالى هند بن أبى هالة — وكان وصافا — عن حلة رسول الله عليه الصلاة والسلام ، وانا اشتهى أن يصف لى منها شيئا اتعلق به ! فقال هند : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم فخما مفخما يتلألأ وجهه تلألؤ القمر ليلة البدر . أطول من المربوع واقصر من المشذب « الطويل » عظيم الهامة ، رجل الشعر « بين المجعد واللين » ، اذا تفرقت عقيصته « خصلته » فرق ، والا فلا يجاوز شعره شحمة اذنيه ، ذا وفرة . ازهر اللون واسع الجبين ازج

الحواجب سوابغ ، اقنى العرنين « حسن فى الانف كله »، له نور يعلوه يحسبه من لم يتأمله اشم « مرتفعا » . كث اللحية ، ادعج ، سهل الخدين ، ضبع الفم ، اشنب « ثغره فيه صفاء » مفلج الاسنان . دقيق المسربة « الشعر السائل من الصدر الى مادون ذلك » . كان عنقه جيد دمية فى صفاء « يعنى الفضة » . معتدل الخلق . بادن « أميل الى البدانة » متماسك سواء البطن أو الصدر . عريض الصدر بعيد مابين المنكبين . طويل الزندين ، رحب الراحة ، سابل الاطراف ، مسيح القدمين . يخطو مكفيا ويمشي هونا ، وربع المشية اذا مشى كأنما ينحط من صبب ، واذا التفت جميعا . خافض الطرف ، نظره الى الارض أطول من نظره الى السماء ، جل نظره الملاحظة ، يسوق أصحابه ، ويبدأ من لقيه بالسلام .

ويسأل الحسن خاله هند الشقيق : صف لى منطقه ! قال هند : كان رسول الله عليه السلام متواصل الاحزان دائم الفكرة ، ليست له راحة ، لا يتكلم فى غير حاجة ، طويل السكوت ، يفتتح الكلام ويختمه باشداقه . يتكلم بجوامع الكلم . فصل لا تطويل ولا تقصير . دمث ليس بالجافى ولا المهين . يعظم النعمة وأن دقت . لا تغضبه الدنيا وما كان لها ، فاذا تعرض للحق لم يعرف احدا ، ولم يقم لغضبه شيء حتى ينتصر له ، لا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها . اذا أشار أشار بكفه كلها ، واذا تعجب قلبها . واذا تحدث يصل بها . يضرب راحته اليمنى باطن ابهامه اليسرى . واذا غضب اعرض واشاح ، واذا فرح غض بصره . جل ضحكته التبسم ، ويفتر عن مثل حب الغمام .

ونمضي مع الوصافين ، ففي صحيح البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها ــ وهي أحب واقرب الناس للنبي ــ تقول : كان خلقه القرآن . تقول : ماخير رسول الله بين أمرين الا أخذ أيسرهما ما لم يكن اثما ، فان كان اثما كان أبعد الناس عنه ، وما انتقم لنفسه الا أن تنتهك حرمة الله فينتقم لله بها . وتقول : ماضرب بيده خادما له قط ولا أمراة ، ولا ضرب بيده شيئا الا أن يجاهد في سبيل الله .

ويقول أبو سعيد الخدري في البخاري : كان النبي اشد حياء من العذراء في خدرها . وصدق أبو سعيد في وصفه فان النبي لا يفعل الا مايقول ولا يقول الا مايفعل . أو ليس مما اثر عنه قوله عليه السلام : الحياء شعبة من الايمان . وكذلك قوله عليه السلام : ان مما ادرك الناس من كلام النبوة الاولى .. اذا لم تستح فاصنع ماشئت !

ومما يروى عن رسول الله ، وان لم تكن رواية قوية الاسناد ، ولكنها في مضمونها تصدق على شمائله وتتماثل مع فضائله ، انه ــ عليه السلام ــ لقي جاريةتبكي في الطريق فسألها مايبكيها ؟ قالت : يارسول الله ... اعطاني أهلي درهمين أشتري بهما دقيقا فهلكا ! فدفع اليها النبي الدرهمين . ثم انقلب وهي تبكي ! فدعاها فقال : ما يبكيك وقد أخذت الدرهمين ؟ فقالت : أخاف أن يضربوني ! فمشى معها الى أهلها فسلم فعرفوا صوته عليه السلام . ثم عاد فسلم . ثم عاد فسلم .. فردوا ! فقال : أسمعتم أول السلام ؟ قالوا : نعم ، ولكن أحببنا أن تزيدنا من السلام ! فما شخصك « جاء بك » بأبينا

انت وامنا ؟ فقال : أشفقت هذه الجارية أن تضربوها .
فقال صاحبها : هي حرة لوجه الله لممشاك معها ! فبشرهم رسول الله بالخير .

وما أكثر وانضر وابلغ واسبغ مايروى عن لطفه وعطفه ورقة نصحه . سطور تملأ مجلدات فتزخر بها .

على أنني أجتزيء بثلاثة أمثلة « شاردة » لا احسبها متداولة بين مايكتب للتدليل في هذا المقام . وقد علقت هذه الامثلة في ذاكرة قراءاتي بين كتب السيرة . وصنفتها — رغم عدم مباشرتها — كنماذج صافية للطفه وعطفه وموضوعيته ودماثة نصحه عليه الصلاة والسلام .

روى ابن اسحق عن أبي أيوب — وفي الصحيحين ما يشابه ذلك — انه كان يصنع للنبي عليه السلام العشاء، ثم يبعث به اليه ، فاذا رد فضله تيمم هو وأم أيوب موضع يد النبي فأكلا منه ابتغاء البركة . حتى بعثا اليه ذات ليلة بعشائه وقد جعلا فيه بصلا أو ثوما . فرد الرسول العشاء ولم يرد ليده فيه أثر . قال أبو أيوب : فجئته فزعا ، فقلت يارسول الله بأبي وأمي رددت عشاءك ولم أر فيه موضع يدك . فقال عليه السلام : اني وجدت فيه ريح هذه الشجرة ، وانا رجل اناجي ، فاما انتم فكلوه ، قال أبو أيوب : فأكلناه ، ولم نضع له تلك الشجرة بعد ذلك .

وفي صحيح البخاري انه لما توجه رسول الله عليه السلام الى خيبر في الغزوة ، واشرف الناس على واد فأخذوا يصيحون : الله أكبر لا اله الا الله . وعلا صوتهم علوا كبيرا . فقال عليه السلام « اربعوا على انفسكم ، فانكم لاتدعون أصم ولا غائبا . انكم تدعون

سميعا قريبا وهو معكم » . نصح جميل رفيق عميق ، خليق بنبى .

وفى غزوة مؤتة غير المتكافئة وكان المسلمون نحـو ثلاثة آلاف ، والعدو مائتى الف ، استطـاع خالد بن الوليد أن ينجو بجيش المسلمين سالمين ببراعة وبقـدر المستطاع ، ولم ينل العدو خيرا ولا نصرا . غير أن المقاتلين المسلمين العائدين الى المدينة كانوا يخشون أن يلقـاهم الناس فيصيحون فى وجوههم : يافرارون ! وقد فعل بعض الناس ذلك .. فقال عليه الصلاة والسلام : لا ، بل أنتم الكرارون .. ان شاء الله عز وجل .. وقد كان ! لا تفوته صلى الله عليه وسلم شاردة ولا واردة .

ومرة اخرى اعود الى التفرقة بين الحب والثناء وبين الشطحات والغلواء . اننا نتفهم تماما معنى الآية الكريمة « قل انما أنا بشر مثلكم يوحى الى انما الهكم اله واحد » ١١٠ الكهف . فالرسول بشر مثلنا ، وهذه حكمةاللهوآيته لنا حتى لا يشق علينا ، وحتى نتأسى بنبيه . ومـن احاديث النبى « لا تطرونى كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم ، فانما أنا عبد،فقولوا عبدالله ورسوله » رواه مسلم عن عمر بن الخطاب . كذلك قوله عليه السـلام « أيها الناس قولوا بقولكم ولا يستهوينكم الشيطان . انا محمد عبد الله ورسوله ، والله ما أحب أن ترفعونى فوق ما رفعنى الله » .

ولكنا نؤمن أن هذا البشر الكريم والرسول الرحيم اصطفاه الله وفضله على خلائقه اجمعين ، وارسله رحمة للعالمين .

نساء النبى أمهات المؤمنين

لان محمدا رسول الله هو بشر مثلنا فان له ــ كسائر البشر ــ « حياته الخاصة » حتي تكمل الصورة البشرية، فيأكل الطعام ويمشي في الأسواق ويهجع الى أهل بيته. ولكنها حياة خاصة بالغة الشرف والعفة والنقاء والمثالية لنقبس منها ونتزود فى معايشنا . لم يحل دونها كونه « رجلا عاما » وبأكمل واشمل واقوم واعظم ما تبرزه « العمومية » من جلائل المعاني . فهو صاحب الرسالة الكبرى التى لا ضريب لها فى التاريخ السابق واللاحق ، ومبلغ الدعوة السامية للحياة الدنيا والآخرة بشيرا ونذيرا ، والتى لو وضعوا الشمس في يمينه والقمر فى يساره على أن يتركها حتي يظهرها الله أو يهلك فيها ماتركها . وهو يتحمل أعباء نضال شاق خطير متصل تنوء به شمم الجبال ولا ينوء . وهو الذى يتلقى التشريعات السماوية ويمارسها ويطبقها ويعلمها لمن اتبعه من المؤمنين الذين شغل بهمومهم وتبعاتهم . وهو فى البداية والنهاية مبعوث رب العالمين الى العالمين .

محمد الذى عرف بالتحنف والتبرر والتنسك في غار حراء قبل أن يوحي أليه ، ومحمد النبى العابد الخاشع المتهجد الذى أمر بقيام الليل « قم الليل الا قليلا . نصفه أو انقص منه قليلا . أو زد عليه ، ورتل القرآن ترتيلا . آنا سنلقى عليك قولا ثقيلا . ان ناشئة الليل هى اشد وطئا واقوم قيلا . ان لك فى النهار سبحا طويلا .

واذكر اسم ربك وتبتل اليه تبتيلا » ٢ــ٨ المزمل ...
هو الذى نهى عن الرهبانية وقال « لا رهبانية فى الاسلام»
كما قال « انا أصلى وانام ، وأصوم وأفطر ، واتزوج
النساء .. فمن رغب عن سنتى فليس منى » .

وقد تزوج رسول الله عليه الصلاة والسلام النساء ،
وتوفى عن تسع نساء هن عائشة بنت أبى بكر التيمية ،
وحفصة بنت عمر بن الخطاب العدوية ، وزينب بنت
جحش الاسدية ، وام حبيبة رملة بنت أبى سفيان
الاموية ، وام سلمة هند بنت ابى أمية المخزومية ،
وميمونة بنت الحارث الهلالية ، وسودة بنت زمعة
العامرية ، وجويرية بنت الحارث بن أبى ضرار
المصطلقية ، وصفية بنت حيى بن اخطب النضرية
الهارونية .. رضى الله عنهن .

ولست أمسك عن الحديث فى زواج النبى بهذا العدد
وغيره من النساء ، ولا اجد اى حرج فى الاقتراب من
غيرتهن من بعضهن البعض ، ولا فيما نشب من «خلاف»
احيانا بين النبى عليه السلام وبينهن ، ولا أتوانى في دفع
ما تخرص به بعض المستشرقين المغرضين الذين روجوا
و « بلطجوا » والقوا في روع قرائهم أنه كان شديد
الحب للنساء حبا « شهوانيا » ومولعا بهن ولعا ملك
عليه اهتماماته ، وذلك غير صحيح جملة وتفصيلا . انه
تزوج النساء .. نعم ، وكان بينه وبينهن مابين الرجل
والمرأة لكونه بشرا .. نعم ، ولكن زيجاته كانت لها
خصوصية النبى البشر المرسل ، وذات أغراض تهذيبية
سامية حكيمة أساسا .. فزوجاته هن أمهات المؤمنين .
اما اهتماماته أول الامر وآخر الامر فبالدعوة الاسلامية

التي نيطت به وتخيره الله لها فأداها أحسن وأروع وأكمل الاداء .

أعظم ما نفتتح به الحديث عن زوجات النبى قول خالق الذكر والانثى رب العالمين سبحانه « يانساء النبى لستن كأحد من النساء ان اتقيتن ، فلا تخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض ، وقلن قولا معروفا . وقرن فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الاولى ، وأقمن الصلاة ، وآتين الزكاة ، وأطعن الله ورسوله ، انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا . واذكرن مايتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة ، ان ألله كان لطيفا خبيرا » ٣٢-٣٤ الاحزاب .

فى شرخ الفتوة ، فى سن الخامسة والعشرين وقبل أن يتنزل عليه الوحى ، فان خديجة بنت خويلد عهدت بتجارتها الى محمد بن عبد الله خير شباب بنى هاشم ، والذى كانت مكة تدعوه « الامين » لما يتصف به من خصال زاخرة .. سخاء نفس ، وأمانة ضمير وقول وفعل ، ورجولة مبكرة باطنة وظاهرة . ولم تلبث خديجة - وقد أنست الى محمد واعجبت به أيما اعجاب - أن بعثت اليه بمن يفاتحه فى شأن زواجه بها وهى التى دأبت بعد ترملها الاخير على رد وصد كل متقدم اليها مهما عظم قدرهم وانسابهم سواء خالتهم طامعين فى ثروتها المتزايدة ام غير ذلك . ولكن محمدا نسيج وحده وهو الذى تتمنى وتسعى اليه . وتم الزواج برفاء سابغ للاثنين وهناء غامر واستقرار . ورزقهما الله بالابناء .. القاسم « وبه كان النبى عليه السلام يكنى وينادى يا أبا القاسم » والطيب والطاهر وزينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة .

وقضى الله ان يقبض اليه ارواح الابناء الذكور وأن تعيش الاناث ويكبرن ويتزوجن . ثم بعد خمسة عشر عاما من زواج محمد وخديجة نزل الوحي على محمد ليصبح الرسول المبعوث الى امته والى العالمين .. فكانت خديجة ـ رضي الله عنها ـ أول من حدثها محمد بذلك فصدقته على الفور وهدأت من مخاوفه وقالت كلماتها الحانية الشافية : ابشر واثبت . والله لا يخزيك الله أبدا . انك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتحمل الكل وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق ! ولتصبح خديجة أول من أسلم وآمن بالله ورسوله محمد . وقفت الى جانبه قرابة عشر سنين في مكة وهو يدعو الى الحق ويكابد مايكابد .. تشد أزره وتجيش بالدفء والرعاية كأكرم زوجة لاكرم نبي .

لم يتزوج رسول الله على خديجة طوال حياتهما معا أية امرأة .. على شيوع تعدد الزوجات بين العرب آنذاك . زواج دام ربع قرن من الزمان . أمضى رسول الله زهرة عمره ورجولته حتى بلغ الخمسين ولا زوجة له الا خديجة بنت خويلد ، كما أنه لم يتزوج بعدها لاكثر من ثلاث سنوات .. ثم يقول اعداء الاسلام بين المستشرقين ماقالوا ـ ويابئس وكذب ماقالوا ـ عن « شهوانيته » الخارقة المسيطرة المزعومة ! أوليس هذا الاكتفاء ـ هذا الوفاء الطويل للزوجة الواحدة ـ أبلغ رد على ما ارجفوا ؟ ذلك الوفاء النادر الذى لازم رسول الله الى آخر العمر حتى ان عائشة كانت تغار من ذكرى خديجة فاذا قالت للنبي : ابدلك الله خيرا منها ! اجابها عليه الصلاة والسلام : ما ابدلني الله خيرا منها ! آمنت

بى اذ كفر الناس ، وآستنى اذ حرمنى الناس ، ورزقنى الله ولدها اذ حرمنى أولاد النساء !

ولنطل سريعا على زيجات النبى بعد خديجة وظروفها واسبابها .

تزوج النبى اول ماتزوج سودة بنت زمعة بن عامر ابن لؤى الارملة المسلمة لاحد المسلمين الاوائل الذين اوذوا فى سبيل الله وهاجروا الى الحبشة ، فحين مات عنها زوجها رغب النبى أن يعولها ويرعاها ، فتزوجها . ولم تكن ذات شباب أو جمال مذكور أو مكانة ملحوظة وانما هو التكريم . وقد جرت عادة الصحابة من بعـده أن يتزوجوا أرامل اخوانهم الصحابة الذين استشهدوا او ماتوا وذلك اعرابا عن تقديرهم لمنزلتهن السابقة ورعاية وصونا . انتشر ذلك العرف الحميد وذاع وتكرر لا استثناء له ـ وبحق ـ الا فيما يخص ازواج النبى فهن أمهـات المؤمنين . وفى ذلك نص قرآنى قاطع « وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ، ولا أن تنكحوا أزواجه من بعـــده أبدا ، ان ذلكم كان عند الله عظيما » ٥٣ الاحزاب .

ثم تزوج النبى فى السنة الاولى الهجرية فى المدينة بعائشة ابنة صديقه الصدوق ابى بكر ايثارا واعزازا له ، فكانت عائشة هى البكر الوحيدة التى بنى بها . وكانت على حداثة سنها ذات نضوج مبكر ، المعيـــة الذكاء والحافظة حتى انه قال عليه السلام بشأنها « خـــذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء » ، كما أضحت وظلت اقرب وأحب ازواجه اليه ، فنعما هى مودة ورحمـــة وسكنا .

كما تزوج عليه السلام حفصة ابنة عمر بن الخطاب

القطب الثاني من صحابته ، وكـــانت أرملة خنيس بن حذافة الذى مات عنها مؤمنا . وكان عمر قد ألح الى عثمان بن عفان أن يزوجه ابنته حفصة بعد وفاة زوجها فتراخي عثمان لعلمه أن النبى يرغب فى تشريف عمــر بزواجه من ابنته .. وقد كان . فأبدلها الله خيرا من عثمان كما أبدل عثمان خيرا منها حيث زوجه النبى ابنته أم كلثوم بعد وفاة شقيقتها رقية ، فتزوج عثمان بابنتى النبي على التعاقب وسمى ذا النورين .

وتزوج النبى أيضا زينب بنت خزيمة التى استشهد زوجها عبيدة بن الحارث يوم بدر ، وكانت طاعنــة فى السن وافرة الطيبة والاحسان حتى لقبت أم المساكين ، وسرعان ماتوفيت خلال شهور معدودات وفى حياة النبى ثم تزوج عليه السلام « عجوزاً » أخرى كثيرة الابناء هى أم سلمة التي أصيب زوجها فى « أحد » ومات متأثرا بجراحه . وبعد عدتها عرض عليها النبى الزواج فاشفقت عليه من كثرة عيالها ، ولكنه من أجل هــذا حرص على زواجها ليرعى أبناءها .

وزوج الله عز وجل النبى من زينب بنت جحش ، وكانت قبله تحت ربيبه وحبيبه زيد بن حارثة فطلقهــا فأنزل الله قوله تعالي « واذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله ، وتخفى فى نفسك ما الله مبديه ، وتخشي الناس والله أحق أن تخشاه فلما قضي زيد منها وطرا زوجناكها لكي لا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم اذا قضوا منهن وطرا ، وكان أمر الله مفعولا » ٣٧ الاحزاب . وهكذا سن الله هذا التشريع بالفعل . وكانت أم المؤمنــين زينب بنت

جحش تباهي أزواج النبي قائلة « زوجكن أهاليكن ، وزوجني الله من فوق سبع سماوات » . وهي أول من نزل بعد زواج النبي بها آية الحجاب « وإذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب » ٥٣ الاحزاب . وأول من لحق من أزواج النبي به الى الرفيق الاعلى في السنة العشرين الهجرية . وأول من عمل عليها النعش وشيعت به الى مرقدها الاخير .. فيالهـا من صاحبة أوليات .. رضي الله عنها . وقد شهدت لها عائشة رضى الله عنها ـ على ماكان بينهما من غيرة ـ فقالت رضى الله عنها: مارأيت امرأة قط خيرا في الدين ، وأتقى لله ، وأصدق حديثا ، وأوصل للرحم ، وأعظم أمانة وصدقة من زينب بنت جحش » .

وتزوج النبي عليه السلام أم حبيبة بنت أبي سفيان ابن حرب بن أمية أرملة عبد الله بن جحش وكان قد رحل معها الى الحبشة ومات هناك فبعث اليهما النبي بابن عمها عثمان بن العاص يخطبها له من النجاشي . ورحلت الى النبي وزفت اليه بعد غزوة الاحزاب في السنة الخامسة الهجرية ، فأمست ابنة أبي سفيان بن حرب زعيم المشركين الذين يقاتلون المسلمين بضراوة هي احدى أمهات المؤمنين . ويتنزل في ذلك قوله تعالى « عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة ، والله قدير ، والله غفور رحيم » ٧ الممتحنة . وقد أسلم أبو سفيان فعلا بعد فتح مكة .

وتزوج عليه السلام في سنة ست من الهجرة وبعد غزوة بني المصطلق بجويرية بنت الحارث ابن المصطلق « ملك خزاعة أو كبيرها » . أسلمت وأسلم أبوها ،

وزوجها من رسول الله . وقيل فيها : ما كانت امـرأة اعظم بركة على قومها منها !

ثم بعد غزوة خيبر فى السنة السابعة الهجـرية سبيت صفية بنت حيى بن اخطب سيدة قريظة والنضير وكان زوجها اليهودى قد قتل في خيبر . واعزها رسول الله عليه السلام فبدلا من ان تسلك بين السبايا تزوجها النبى وضمها الى نسائه وفرض عليها الحجاب وباتت من المؤمنات العابدات الصالحات ، بل من أمهات المؤمنين .

هذه ـ في سطور ـ زيجات النبي بظروفها واسبابها وآثارها .

لم يولد للنبي أبناء من ازواجه سوى من خديجة بنت خويلد رضى الله عنها وعنهن جميعا . وقد ذكرنا ابناءه آنفا . وكانت فاطمة ابنته من خديجة وزوجة على بن ابى طالب احب ابنائه اليه ، كما كان حفيداه منها الحسن والحسين في سويداء قلبه .

على انه صلى الله عليه وسلم اعقب ابنه ابراهيم من مارية القبطية المصرية التى اهداها له مقوقس مصر والتى اسلمت واعتقها النبى ، وان لم تحسب فى عداد أمهات المؤمنين . وقد مات ابراهيم في السنة العاشرة الهجرية وهو ابن اربعة عشر شهرا . وقال النبى في وفاة ابراهيم قولته المأثورة « تدمع العين ، ويحزن القلب ، ولا نقول الا مايرضى الرب ، وانا عليك ياابراهيم لمحزونون » . واذ تصادف كسوف للشمس مع موت ابراهيم ظن من ظن أن تلك معجزة من معجزات النبى ان تكسف الشمس لموت ابنه ، فتصدى لهم رسول الله الذى لا يشـهد الا بالحق ولا ينطق الا بالصدق ولا يفتنه هوى الناس ، وقال من خلال مدامعه قولته المأثورة الاخرى « ان الشمس

والقمر آيتان من آيات الله لا تخسفان لموت احـــــد ولا لحياته ، فاذا رأيتم ذلك فافزعوا الى ذكـــر الله بالصلاة » . فيأيها النبى العظيم نشهد انك لرسول الله حقا وصدقا .

وقد عدل النبى عليه السلام بين زوجاته ، وان تفوقت السيدة عائشة وظلت أمكنهن من قلبه فكان يردد قوله « اللهم يا مقلب القلوب والابصار ، هذا نصيبى فيما أملك فلا تؤاخذنى فيما لا أملك ! » . وعائشة على رجاحة عقلها ومنزلتها الرفيعة عند النبى غير الخافية على الجميع لم تستطع أن تحبس غيرتها حين ولد للنبى ابنه ابراهيم . وكان النبى ـ ببشريته وكأى أب ـ يفيض سعادة وبشرا بابنه وقد راح الطفل ينمو ويشب . وحمله الى عائشة لتتأمل الشبه الكبير بين الاب وابنه . فما كان منها ـ غيرى حانقة ـ الا أن انكرت هذا الشبه ! غير أن المسائل اخذت تتفاقم . وحدث بين زوجات النبى ما يشـــبه « التواطؤ » . واشتعلت الغيرة مع مولد ابراهيم ومع غير ذلك من الاسباب . وكثرت المنازعات ، والنبى الذى شغله الشاغل الدعوة وانتشار الاسلام يحاول أن يهدىء من غلواء ازواجه وغيرتهن وحنق بعضهن على البعض الآخر . وحدث أن مكث النبى فترة أطول من المعتـاد لدى زوجه زينب بنت جحش مما أوغر صدر عائشـــة « فتآمرت » مع حفصة وانضمت اليهما سودة وصفية على أن يبادرن النبى اذا دخل عليهن بأن يقلن له : انهن يجدن ويشممن ريح » « مغافير » تناولها لدى زينب بنت جحش . والمغافير طعام حلو قد يخلف رائحة كريهة .. والروائح الكريهة من أبغض الاشياء الى رسول الله . فلما اجمع الاربعة على ذلك حرمه النبى على نفسه .

والى جانب الغيرة وما اججته ، نشبت « خلافات » صغيرة اخرى حول النفقة والشئون المعيشية صاحبتها جفوة قصيرة عارضة من النبى لبعض ازواجه ، وهجرهن لايام قلائل ، واستمر « الحال » على ماهو عليه حتى اعتزل النبى نساءه جميعا شهرا كاملا ، وكان يبيت فى خزانة خشنة . وقلق ابو بكر وعمر — على وجه الخصوص — وانزعجا اشد الانزعاج لما جرى . وشاع ان النبى طلق ازواجه وهو لم يطلقهن . وانما كان « يلقى عليهن درسا » ويعظهن بمسلكه المتباعد عنهن عسى أن يثبن الى رشدهن . وتنزل قوله تعالى « عسى ربه أن طلقكن ان يبدله ازواجا خيرا منكن مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيبات وابكارا » ٥ التحريم . وقوله سبحانه « يايها النبي قل لازواجك ان كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين امتعكن وأسرحكن سراحا جميلا . وان كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فان الله أعد للمحسنات منكن أجرا عظيما » ٢٨—٢٩ الاحزاب الى آخر الآيات من سورة الاحزاب .

وانتهت « الازمة العابرة » على خير ، وأحدث الدرس اثره ، وحسمت الآيات الكريمات الموقف المتوتر ، ووهبت « سودة » اليوم والليلة المخصصين لها الى عائشة ، وعادت السكينة والطمانينة والوفاق والاستقرار وكل ماهو خليق باهل بيت النبى الكريم والزوج العظيم الى اهل بيته .. وانما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا .

فما اطيبه بشرا ، وما اطيبه زوجا ، وما اطيبه أبا ، وما اطيبه نبيا كريما ورسولا معصوما ..

في خدمة رسول الله

اربعون سنة انقضت ومازلت اذكر ذلك اليوم وكأنه جرى بالامس . في سنة ١٩٤٥ وانا بعد في الثالثة والعشرين من عمري ، وفي الطريق الطويل « غير المسفلت آنذاك » وعن يميني بيد وعن يساري صحاري وبين جدة والمدينة ابتغاء الصلاة بمسجد النبي عليه الصلاة والسلام وزيارته ، بتنا ليلتنا في منتصف المسافة ببلدة مساجيد ، وليس في أعماقي الا نفس مفعمة بحب النبي وقلب يخفق بالشوق اليه . فكيف لا تنبعث نفسي لقرض الشعر ؟ وترنمت على السجية بأبيات استهللتها قائلا :

في بلاد الحبيب خير البلاد
أبعث الشعر من دمي وفؤادي
للرسول الكريم أبذل روحي
وأسوى بها رمال البوادي

ولا جناح في ... المتيم ، ولا جنوح لمبالغة شعرية في هذا المعنى الذي أبديت والذي اكرره اليوم بالصدق نفسه ـ علم الله ـ وانما هو ترجمة خالصة عما تجيش به الاحاسيس تجاه الرسول الكريم . تالله انني لابذل له روحي وأسوى بها رمال البوادي . وانني لأتمثل ذلك المؤمن المقاتل الذي قال للنبي ﷺ وهو يسوى الصفوف للقتال : اوجعتني يارسول الله ! فكشف عليه السلام

عن صلته وقال له : دونك فاقتد منى ! فتقدم الرجل واشبع جسد رسول الله تقبيلا وهو يقول : انما احببت أن يكون آخر عهدى بالدنيا أن اقبل بشرتك !

ولكم اغبط هؤلاء الرهط من الصحابة الذين التفوا حول رسول الله يوم أحد ـ حتى ولو كان الله عاصمه من الناس .. وهو يعصمه ـ وقد اشتد الضرب والكرب وحمى الوطيس ، ووقع ماوقع من غلبة المشركين لحين ، هؤلاء النفر من المؤمنين كالسياج حول النبى . منهم من تلقى الطعنات فجرح ، ومنهم من اخترمه الموت فاستشهد ذلكم هو « الحب الغامر الحالم » الذى استشعره نحوه عليه السلام ، وذلك هو الفداء . ولا غرابة فى ذلك . فاذا كنت قد احببت ابى طوال حياته حبا جارفا ـ ومازلت أكنه ـ وحرصت على خدمته خدمة العبد للسيد وودت لو افديه بعمري ، واذا كانت الجنة تحت أقدام الامهات ، واذا كان الايثار الفوار يقوم بين الاخ واخوته وبين الصديق واصدقائه ، أو ليس حبيبنا رسول الله له المقام الاول ؟

وهنا نقطة « دقيقة » لا أسام من وضعها تحت الاضواء .. اضواء وجهة نظرى . فلربما يلاحظ على كتاباتى أننى استشهد بين الحين والحين بأحاديث النبى حول بشريته وضرورة عدم الغلو فيه مؤيدا بحديثه الشريف « لا تطرونى كما أطرت النصارى ابن مريم ، فانما انا عبد الله ورسوله » . كذلك لا ارى صواب سؤال الله « بجاه النبى » او التوسل اليه عز وجل بالنبى عليه السلام . « فالوسيلة » فى قوله تعالى « يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا الوسيلة » ٣٥ المائدة ، هى

« العمل الصالح » كما اجمع المفسرون . وبالعمل الصالح وحده ينبغي التوسل الى رب العالمين . وبداية الشرك فى القرون الاولى انما نشأت لدى هؤلاء الذين يعبدون مايعبدون من دون الله ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله . أما الوسيلة بمعنى الشفاعة فعن النبى عليه السلام قال « سلوا لى ألوسيلة — ولم يقل توسلوا بى — فانها منزلة فى الجنة لاتنبغى الا لعبد من عباد الله وارجو ان اكون انا هو ، فمن سال الله لى الوسيلة حلت عليه الشفاعة » رواه مسلم . لذلك نبين الدعوات الشرعية بعد رفع الآذان قولنا « اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمدا الوسيلة والفضيلة وابعثه المقام المحمود الذى وعدته » . كذلك فانني أندد بحلف احد بالنبي صلوات الله عليه وسلامه ، وذلك من منطلق حديثه الشريف « من كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت » .

هذه خطوط فاصلة ، ولكن فى الوقت نفسه فان منزلة محمد رسول الله عندي لا يكفى أن تعد سيدة المنازل مثلما هو سيد ولد آدم ، فهى فوق الوصف والتحديد . ان النبى ليملأ حبه كل خلجة من خلجاتى . والله أعلم بالسرائر ، قلبى ودمى وفكرى وكيانى . وذلك حق وواجب الايمان « قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم ، والله غفور رحيم . قل أطيعوا الله والرسول ، فان تولوا فان الله لا يحب الكافرين » ٣١-٣٢ آل عمران . وفى الحديث الشريف « لا يؤمن احدكم حتى أكون أحب اليه من نفسه » . وانه لكذلك لدينا ، فعسى الله أن يتقبلنا فى عباده

المؤمنين الصالحين المحبين لرسوله والمتبعين له .

نعم .. مني النفس والروح لو كنت في خدمة رسول الله ، في جملة خدامه وقد كان الصحابة جميعا - وهم وأهلوهم فداؤه - يسارعون الى خدمة النبي عليه السلام والتشرف و « التبرك » بذلك .

أولم يخدمه ابو بكر الصديق - أجل الصحابة قدرا - طوال رحلة الهجرة وماقبلها ومابعدها ؟

كما أن النبي عليه السلام كان له خدامه المتفسرغون لخدمته .

وانني لاعرض هنا لفريق من خدام رسول الله لنتبين علو مكانتهم في الاسلام وبين المسلمين . وكيف اقتربوا منه - عليه السلام - وتفانوا فيه وسعدوا به وسمعوا منه ورددوا عنه ، وطابت ذكراهم وأمدونا بذخيرة نضيرة من الاحاديث النبوية الشريفة ومن السيرة .

نذكر من بينهم أنس بن مالك الانصاري الذي خدم النبي ولازمه طوال اقامته بالمدينة ، فما عاتبه النبي على شيء قط . وكان انس يعد أحسن الناس صلاة في سفره وحضره حتى قيل : ما رأينا احدا اشبه صلاة برسول الله من انس بن مالك . وهو من مشاهير وثقاة رواة الاحاديث النبوية الشريفة ، وله في صحيحي البخاري ومسلم وحدهما ثلثمائة وثمانية عشر حديثا مرجعا شرعيا .

ويروى أن أم انس بن مالك حين عهدت به صغيرا الى رسول الله سألته أن يدعو له فقال عليه السلام « اللهم أكثر ماله وولده ، وأطل عمره ، وبارك له » فكانت دعوة مستجابة . أفاء الله عليه بزينة الحياة الدنيا من

وفرة المال والبنين ، وطال عمره حتى قيل انه آخر من مات من الصحابة فى سن تجاوزت التسعين .. رضى الله عنه .

ونذكر من بينهم بلال بن رباح الحبشى « المؤذن الخاص» للنبى .. وهو أول المؤذنين واشهرهم . وقد اعتزل « الأذان » بعد وفاة النبى وتفرغ للجهاد ، وان لم يفته جهاد وغزوات مع النبى عبر حياته .

ونذكر من بينهم عبد الله بن مسعود وهو من ائمة الصحابة . وكان النبى قد أناط بابن مسعود أن يأخذ ويحفظ القرآن عنه ، كما كان يحب عليه السلام أن يقرأ عليه عبد الله ماتيسر من آى الذكر الحكيم لرخامة صوته. وهو أيضا من فطاحل رواة الاحاديث الشريفة ومبلغيها وله فى البخارى ومسلم وحدهما مائة وعشرون حديثا عنه . عن رسول الله عليه السلام .

ومن بين « خدم » رسول الله أيضا المقداد بن الاسود وهو صحابى من السابقين بالاسلام « قيل هو ثامن من أسلموا » ، وشهد « بدرا » ، وكان هو الوحيد فيهما الذى يركب فرسا ، وهو القائل للنبى فى هذه المعركة المصيرية القولة الشهيرة « يارسول الله . امض لما أراك الله فنحن معك . والله لا نقول لك كما قال بنو اسرائيل لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا ، انا هاهنا قاعدون ! ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا وانا معكما مقاتلون » .

ونذكر أيضا المغيرة بن شعبة الذى أحصوه بين طليعة دهاة العرب . وكان بمنزلة السلحدار « أى حامل السلاح » بين يدى النبى . وفى يوم الحديبية وقف على رأس رسول الله فى خيمته رافعا السيف مستعدا

ومحذرا . وحين هم عروة بن مسعود ـ سفير قريش فى الحديبية ـ بالامساك بلحية النبى على عادة بعض العرب خلال الحديث ، قرع المغيرة يد عروة بقائمة السيف قائلا : اخر يدك عن لحية رسول الله قبل الا تصل اليك !

ومن بينهم قيس بن سعد الانصارى وكان مفرط الطول كأنه من باسقات النخيل ! وروى البخارى أن قيسا كان من النبى بمنزلة صاحب الشرط « أى الياور .. بلغتنا » من الامير .

ومنهم ربيعة بن كعب . وفيه جملة قالها النبى عليه السلام أحسبها باتت « متوارثة » اذا سال مسلم مسلما أن يدعو له أو التمس منه أن يذكره بدعاء طيب فوق جبل عرفات . هذه الجملة التى هى من جوامع الكلم والحكم قوله عليه السلام « أعنى على نفسك بكثرة السجود » . ولنسمع « القصة الحلوة » من أولها ومن صاحبها .

يقول ربيعة بن كعب : كنت اخدم رسول الله صلى الله عليه وسلم نهاري كله حتى يصلى عشاء الاخرة فاجلس ببابه اذا دخل بيته اقول لعلها أن تحدث لرسول الله حاجة . فما أزال أسمع رسول الله يقول « سبحان الله وبحمده » حتى أمل فأرجع ، أو تغلبني عيناى فأرقد فقال لى يوما ـ لما يرى من خدمتي اياه ـ « يا ربيعة ابن كعب ! سلنى أعطك ! فقلت : أنظر في أمرى « اى افكر » يارسول الله ثم اعلمك ذلك . ومضى ربيعة قائلا : ففكرت فى نفسى فعرفت ان الدنيا منقطعة وزائلة ، وأن لى فيها رزقا يأتينى ويكفينى . فقلت اسأل

رسول الله لآخرتى فانه من الله بالمنزل الذى هـو به . فجئته فقال : ما فعلت ياربيعة ؟ قلت : نعم يا رسول الله ، أسالك أن تشفع لى الى ربك يوم القيامة فيعتقني من النار . فقال عليه السلام : من امرك بهذا يا ربيعة ؟ قلت : لا والذى بعثك بالحق ما أمرنى به أحد . ولكنك لما قلت سلنى أعطك وكنت من الله بالمنزل الذى أنت به نظرت من أمرى فقلت اسال رسول الله لآخرتى . ثم أردف ربيعة راويا : وصمت رسول الله طويلا ثم قال لى « فأعنى على نفسك بكثرة السجود » !

ومن بينهم « ذو مخمر » الذى بعث به النجـــاشى « المسلم » ملك الحبشة ليخدم النبى محبة فى رســول الله واكبارا ، فقد كان ذو مخمر ابن اخ النجاشى وقد أسلم معه . ولذى مخمر حكاية طريفة أتوقف معهـا هنيهة لازجى السكينة والطمانينة فى قلوب من تفوتهم صلاة الفجر شريطة الا ياتى هذا الفوات عن سبق الاصرار والترصد ، والكسل المتعمد !

يقول ذو مخمر انهم كانوا مع النبى فى سفر فاسرع السير ــ لقلة الزاد ــ فقال له قائل : يارسول الله لقد انقطع الناس ! فجلس عليه السلام وجلس الناس معه حتى تكاملوا ، فقال قائل : هل لكم أن نهجع هجمة ؟ فوافق النبى وسأل عليه السلام : من يكلؤنا الليلة ؟ « أى يحرسنا ويوقظنا لصلاة الفجر » . فقال ذو مخمر : أنا جعلنى الله فداك . فأعطاه النبى خطام ناقته وقال : هاك ، ولا تكونن لكعا ! فأخذ ذو مخمر بخطام ناقـة النبى وخطام ناقته غير بعيد ، وخلى سبيلهما ترعيان . وانه لكذلك ينظر اليها اذ أخذه النوم فلم يشعر بشىء

حتى وجد حر الشمس على وجهه ! فاستيقظ واستعاد الناقتين . حتى أتى أقرب الناس اليه فأيقظه فسأله : أصليت ؟ قال ذو مخمر : لا ! فأيقظ الناس بعضهم بعضا حتى استيقظ رسول الله عليه السلام ، وتوضأ ، وأمر بلالا فأذن ثم قام عليه السلام فصلى ركعتى السنة قبل الصبح فى غير عجلة . ثم أمر بلالا فأقام الصلاة فصلى عليه السلام فى غير عجلة . وبعد أن قضيت الصلاة سأله سائل : يارسول الله أفرطنا ؟ قال عليه السلام : لا ! قبض الله أرواحنا وردها الينا ، وقد صلينا !

هؤلاء بعض من أحبوا رسول الله وخدموه فى حياته . وكل الصحابة فعلوا مثلهم .

فهل بقى لنا فى كأس خدمته بعض الثمالة ؟

ان الكأس المطهرة مليئة تبقى وتتجدد ، وينابيعها تفيض وتخلد ولا تنفد !

نحن فى خدمة رسول الله ــ بل فى خدمة أنفسنا ــ بحبه ذلك الحب الذى ينعش شغاف القلب بغير مزاحم، وبالصلاة والسلام عليه ما ارتفع صوت باسمه وما استرجعنا مواقفه ومنزلته وذكراه وذكره فى خاطرنا . نحن فى خدمته باتباعه والحرص على سنته الشريفة .

ونحن فى خدمته ــ أساسا وكما يحب ربنا ويرضى ــ بنصرة دينه الحق الذى بعثه به ربه وربنا ورب العالمين لخير الدنيا والآخرة ، بالعلم والعمل ، بالتوادد والتراحم والتكافل ، بالتعاون على البر والتقوى لا الاثم والعدوان. فلا نغدو بعده أعداء يضرب بعضنا رءوس بعض ، ولا

مستضعفين نستخذى الى « الدنيـــة » فى ديننـــا ومعاشنا .(*)

وددت أن نأسو جراحنا النجلاء لا أن ننكأها ، وأن نرتفع فوق اليأس وأن نعبر الاحزان « ولا أكتمها فالنفس مفعمة بها ولا أزيد » لكى نجتمع على كلمـــة سواء وأعمال سوية .. فهل نحن فاعلون ؟

ولكم قيل اننا محتاجون الى « زعقة نبى » حتى لتحقق « المعجزة » . ووالله ان سيد الانبياء والمرسلين «ليزعق» فينا بهديه ودينه القويم وسبيله المنجى والمؤدى ـ اذا غيرنا ما بأنفسنا من وهن ـ الى العزة المنشودة .. فهل نلبى ؟

« ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ، ولكن المنـــافقين لا يعلمون » ٨ المنافقون .

وقانا الله شر النفاق والشقاق وسيىء الاخلاق وسوء المنظر والمنقلب . وقيض لنا من البصـــيرة والفطنـــة والايجابية مايسدد خطانا .

من هم الصحابة ؟!

لكم أغبط صحابة النبى صلى الله عليه وسلم واعرف قدرهم وفضلهم . انهم همزة الوصل الينا . هم تربوا فى جامعة النبى ونبتوا فى روضته . تنزل الوحى وهم شخوص آية بعد آية وسورة عبر اخرى وهم فى منزل الوحى يؤمنون ويتعبدون بما يتنزل ، يخاطبون فنخاطب نحن من خلالهم . ويتساءلون فيجيب الله ـ سبحانه ـ فى قرآنه بالاحكام الشرعية الفاصلة . ان جهادهم فى سبيل الله انما نهضوا به تحت قيادة النبى عليه السلام . وان التوجه بالامر والنهى صدر منه اليهم ، والحوار جرى بينه وبينهم ، والاحاديث الشريفة هم سامعوها منه وحافظوها ورواتها الينا . هم عزوة الاسلام وهم نواته ولولاهم ماانتشر فى العالمين . الم يدع النبى ربه : اللهم أن تهلك هذه العصابة فلا تعبد فى الارض ؟ الم يطالبهم أن يبلغ الحاضر منهم الغائب . وكنا نحن الغائبين فى ارحام الغيب . وأشهد انه صلى الله عليه وسلم ، قد بلغ ، وانهم رضوان الله عليهم قد أوصلوا البلاغ وقد عزروه وناصروه ، ولنفعل مثلما فعلوا . حتى ضعفهم الانسانى الذى كان يعفو عنه عليه السلام قد « يؤنس » ضعفنا ويواسيه فنتوب عنه كما تابوا ، عسى الله أن يعفو عنا !

ومن القراءات فى السيرة النبوية المطهرة ، وفى عدد

من كتب التراث ومن نهج نهجها أو أستلهمها أو أوضحها برؤية مستنيرة ، وفي كتب أكثر تخصصا عن الصحابة والطبقات الكبرى الخ وجدتني مشدودا الى هـــذه النخبة التى أرست قواعد المجتمع الاسلامى فى مطلعه والفيتنى حين أطالع عنه عليه السلام اطلع عليهم ، وحين اقلب صفحاتهم انعم بفصول نسجها القرب والحب للنبى عليه الصلاة والسلام .

« محمد رسول الله والذين معه اشداء على الكفار رحماء بينهم ، تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا ، سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ، ذلك مثلهم فى التوراة ، ومثلهم فى الانجيل كزرع اخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه ، يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار ، وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة واجرا عظيما » ٢٩ الفتح .

ولقد كرم الله صحابة النبى بذكرهم فى مواضع شتى من القرآن الكريم .

منها قوله سبحانه « لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والانصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة من بعد ماكاد يزيغ قلوب فريق منهم ، ثم تاب عليهم ، انه بهم رءوف رحيم . وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى اذا ضـاقت عليهم الارض بما رحبت وضاقت عليهم انفسهم وظنوا أن لا ملجا من الله الا اليه ، ثم تاب عليهم ليتوبوا ، ان الله هو التواب الرحيم . يايها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين » ١١٧-١١٩ التوبة .

ومنها « ان الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم

وانفسهم فى سبيل الله ، والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض » ٧٢ الانفال .

ومنها « والسابقون الاولون من المهاجرين والانصار والذين اتبعوهم باحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه واعد لهم جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم » ١٠٠ التوبة .

ومنها « للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون . والذين تبوءوا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر اليهم ، ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » ٨ـ٩ الحشر .

ومنها « من المؤمنين رجال صدقوا ماعاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا . ليجزى الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين ان شاء أو يتوب عليهم ، ان الله كان غفورا رحيما » ٢٣ـ٢٤ الاحزاب .

فمن هم الصحابة ؟

هل هم ـ كما يعرفهم البخارى ـ « كل من صحب النبى عليه السلام أو رآه ولو مرة واحدة » ؟

ويلوح أن هذا التعميم الواسع يأخذ أو يركز على العامل الزمنى .. اى المعاصرة . ولست أجسر على اتهام هذا التعريف بالتسطيح ، ففى الحق ان كل مسلم حسن اسلامه وأولى شرف رؤية النبى عليه السلام ولو بعض ساعة قد يستحق فى زمانه هذا التشريف وهذه المكانة .

ولكن العامل الآخر الاقوى الذى هو ادنى الى الدقـة والصحة هو طول الصحبة وتكرار المجالسة سواء روى عن النبى عليه السلام كثيرا أو قليلا ام لم يحدث عنه حديثا واحدا ، وذلك كله مع بديهية حسن الاسلام والاستقامة والتمسك بكرامة الصحبة والدين والسنة حتى النهاية .

والصحابة طبقات واقدمية ـ ولا مندوحة من الطبقات ـ وفقا للسبق ، حيث يتقدمهم الذين اسلموا بمكة كالخلفاء الراشدين الاربعة ، واصحاب دار الندوة . فمهاجروا الحبشة ، فأصحاب العقبة الاولى ثم الثانية، والمهاجرون الأولون الذين ادركوا النبى عليه السلام فى « قباء » قبل دخوله المدينة المنورة ، فاهل بدر ، فالمهاجرون بين بدر والحديبية ، فأهل بيعة الرضوان ، فالمهاجرون بين الحديبية وفتح مكة ، فالذين اسلموا مع الفتح ، فالصبيان والاطفال الذين رأوا رسول الله فى فتح مكة وحجة الوداع . وقد يتأتى أن يشارك عدد من هؤلاء فى هذه المواقع جميعها او بعضها . ولا نلت احدا منهم من عمله شيئا !

وقيل ان افضل الصحابة العشرة المبشرون بالجنة ويتصدرهم الخلفاء الراشدون الاربعة أبو بكر وعمر وعثمان وعلى .. والستة الباقون أبو عبيدة بن الجراح وسعد بن أبى وقاص وعبد الرحمن بن عوف وسعيد ابن زيد وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام . ثم أهل بدر .. اى المسلمون الذين شهدوا غزوة بدر ، ثم غزوة احد ، ثم الذين بايعوا النبى فى بيعة الرضوان . ويستدل على منزلة أهل بدر فيما يروى عن أن عمر بن الخطاب

غضب من موقف يستحق الغضب ارتكبه حاطب بن أبى بلتعه — وكان من أهل بدر — حين أبلغ قريشا أن الفتح وشيك ، وعفا عنه النبى عليه السلام اذ قدر موقفه وحسن نيته فى حين ثار عمر وقال : يارسول الله دعنى أضرب عنق هذا المنافق ! فابتسم عليه السلام لحماسة عمر وقال له : وما يدريك ياعمر .. لعل الله قد أطلع على أهل بدر فقال لهم اعملوا ماشئتم فقد غفرت لكم !!

حتى تفضيل المهاجرين على الانصار رغم سبق الاولين وكون ذكرهم يتقدم فى القرآن الكريم هو تفضيل « نظرى » فأمر الجميع موكول لله عز وجل . والاولى هو المؤاخاة بين المهاجرين والانصار كما قضت حنكة النبى عليه السلام .

ومن المشاهد الخالدة المؤثرة فى أعقاب فتح مكة وبعد تصفية جيب حنين وحصار الطائف هذا الحوار الحكيم البليغ الذى دار بين رسول الله وبين الانصار الذين أوجدهم وأحزنهم توزيع الفيىء والغنائم .

يقول النبى : يامعشر الانصار ما الذى بلغنى عنكم وماذا وجدتموه فى أنفسكم ؟ ألم آتكم ضلالا فهداكم الله ، وعالة فأغناكم الله ، وأعداء فألف الله بين قلوبكم ؟ قال الانصار : بلى ! الله ورسوله أمن وافضل ! فيعود النبى يسألهم الا تجيبونى يامعشر الانصار ؟ قال الانصار: بماذا نجيبك يارسول الله ولرسوله المن والفضل ؟

ثم بعد هذه المقدمة النبوية الذكية يصل عليه السلام الى اللب المستهدف ليطيب خاطرهم ويثلج صدرهم ويؤكد اعتزازه بهم فيرد عنهم ويقول عليه

السلام : أما والله لو شئتم لقلتم فصدقتم ولصدقتم : أتيتنا مكذبا فصدقناك ، ومخذولا فنصرناك ، وطريدا فآويناك ، وعائلا فآسيناك ! أوجدتم «أحسستم بمضض» في لعاعة « شيء يسير » من الدنيا تألفت بها قوما ليسلموا ووكلتكم الى اسلامكم ؟! الا ترضون يا معشر الانصار أن تذهب الناس بالشاة والبعير ، وترجعوا برسول الله الى رحالكم ؟! فوالذى نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت أمرءا من الانصار . ولو سلك الناس شعبا وسلكت الانصار شعبا لسلكت شعب الانصار . اللهم ارحم الانصار وأبناء الانصار وأبناء أبناء الانصار !

ويبكي الانصار ويتهدجون : رضينا برسول الله قسما وحظا !

حوار يهزنا هزآ . ومعالجة عظيمة شافية بأسلوب خارق ، وامانة والهام نبى !

ولقد أضيف الى ماهو وارد فى طبقات الصحابة التى أسلفت الاشارة اليها ــ أضيف تقسيما بينهم يتعلق بنهاية آجالهم . فثمة قسم من الصحابة اما أستشهد أو قضى نحبه خلال حياة النبى عليه السلام . وقسم ثان عاشوا من بعده وحضروا عهد ابى بكر ... وكان من أستشهد منهم فى حروب الردة واليمامة عدد كبير ، أو امتد بهم الاجل فاستشهدوا فى فتوحات عمر بن الخطاب ، أو عاشوا حتى خلافة عثمان ولقوا وجه ربهم خلالها . أما القسم الثالث فأولئك الذين عاصروا الايام الاخيرة للفتنة الكبرى وحصار عثمان بن عفان قبل مقتله، ثم خلافة على بن أبى طالب .. هؤلاء هم المبتلون

والممتحنون حقا بسؤال صعب : أين موقعهم على خريطة الخلافات ؟ بعضهم حارب مع علي بن أبى طـــالب كرم الله وجهه ، والبعض الآخر طالب بالثأر لدم عثمان فكان من حيث يريد أو لا يريد فى صف معاوية وفى مواجهة على . أما الفريق الثالث من هؤلاء المبتلين فقد نأى بنفسه عن النزاعات التى شقت عليه . ربما راقبها ، ولكن لم يشارك فيها ، وآثر أن يتفرغ للعبادة ! رحم الله الجميع ورضى عنهم وغفر لهم .

ابو بكر الصديق

« الصحبة يارسول الله » ، لم تكن مجرد كلمات مبتهلة مستجابة . بل كانت بالفعل مفتاح شخصيته مثلما هي منتهى امله ! نعم ، فبهذه الكلمات ، بالصحبة التي كرس لها حياته اخذ أبو بكر الصديق يناشد رسول الله عليه الصلاة والسلام اذ أسر اليه بعزمه على بدء هجرته من مكة الى المدينة . وحقق ـ عليه السلام ـ أمنيته ، ووعده بها ! بل ان النبي في واقع الامر ما نوى وما اراد أن يحظى بصحبته في الهجرة أحد سوى أبي بكر . واذ راح النبي يرسم الخطة ويلهمه الله بأن يجعل عليا يبيت في فراشه لخداع المشركين المتآمرين ، مضى أبو بكر بعد « الترتيبات الادارية » فابتاع راحلتين واحـــدة للحبيب المصطفى والثانية له . وكانت « الوثبة الاولى » الى غار ثور القريب للاختباء به معا عن عيون القوم . وقد وجه أبو بكر ابنه عبد الله لتزويدهما بالانبـــاء ، وابنته أسماء ذات النطاقين لحمل الطعام اليهما . كان ايمان أبي بكر وموهبته واسرته لتوثب جميعهـــا لاتصال الصحبة . صحبة لا يبقى أن يسعد ويشرف بها فحسب بل هي تنبعث من اجل خدمة وتأمين الرسول والرسالة ، فروحه لهما فداء ! وهو يبدئ من ضروب الشـــجاعة والتعلق ، وحميد الاشفاق والقلق ، ماينزل الله فيـــه قرآنا يتلى أبد الآبدين ، ويشهد الله سبحانه لابي بكر بالصحبة ؛ وكفى بالله شهيدا ! « الا تنصروه فقـــد

نصره الله اذ اخرجه الذين كفروا ثاني اثنين اذ هما في الغار ، اذ يقول لصاحبه لا تحزن ان الله معنا ، فأنزل الله سكينته عليه ، وأيده بجنود لم تروها ، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمة الله هي العليا ، والله عزيز حكيم » . حتى أنه مما قد يذكر في هذا المقام أنه بعد وفاة النبي عليه السلام توجه البعض الى أبي عبيدة بن الجراح وكانت أنفسهم تحدثهم بمبايعته للخلافة . فقال لهم : أتأتوني وفيكم ثالث ثلاثة ؟ قيل : وما ثالث ثلاثة ؟ قال : الم تروا الى الآية « اذ هما في الغار اذ يقول لصاحبه لا تحزن أن الله معنا » . ٤ التوبة مشيرا الى أن أبا بكر قال للنبي وهما في الغار والمشركون محيطون به : لو أن أحدهم ينظر الى قدميه لابصرنا تحت قدميه ! فأجاب النبي : وما ظنك باثنين ... الله ثالثهما ؟

ويشهد الله والمؤمنون والتاريخ أن أبا بكر منذ أن دعاه النبي صلى الله عليه وسلم فكان أول من أسلم من الرجال وأول من صلى ، وهو أقرب الناس اليه وأغزرهم حبا واشدهم ولاء وأصدقهم وفاء وأحرصهم صحبة . كان كلفا برسول الله بغير أي تكلف .

ولكونه حتى في جاهليته صدف عن عبادة الاصنام والحفاوة بالاوثان ، وازورت نفسه عن أن ينساق مع جهالات المشركين ، ولانه عرف محمدا قبل البعثة ولمس الى أي حد هو الصادق الامين بحق ، فقد بدأ ابو بكر مهيأ من السماء لان يستجيب على الفور لرسالة السماء التي نزلت على محمد . فلا غرابة اذن أن يقول النبي عليه السلام « ما دعوت أحدا الى الاسلام الا كانت عنده فيه كبوة

ونظر وتردد الا ماكان من أبى بكر بن أبى قحافة ماعكم « انتظر » حين ذكرته وما تردد فيه .

انسان مفطور على السماحة والوداعة ورجاحة العقل والجود ورقة الطبع . يقول عنه النبى عليه السلام : ارحم امتى بأمتى ابو بكر ! ولكنه ما كان يترخص قدر شعرة فى حق أو امر أو حكم لله ولرسوله . انه جمع بين بشاشة الايمان وحرارته وصلابته !

ثلاث عشرة سنة قضاها فى مكة جنبا الى جنب مع رسول الله يدعو لدين الله ويتحمل الاذى والمكاره ويصد عن المسلمين القلائل عدوانية المشركين . كان قبل اسلامه ذا تجارة واسعة رابحة وبلغت مدخراته اربعين الف درهم ، وظل من ناحيته يستثمر تجارته التى تعود عليه بالربح الوفير ، ومن ناحية أخرى يبذل ماله فى سبيل الله والدعوة . ولكم انفق وهو يفتدى ارقاء أسلموا فعذبوا فهب يعتقهم ويحررهم ، وكان من اشهرهم بلال ابن رباح مؤذن رسول الله عليه السلام . فماذا بقى له بعد هذا كله حين هاجر الى المدينة مع رسول الله ؟ بقى له من ماله خمسة آلاف درهم ! ولم يخسر مافقده ، بل ظفر برضاء الله ورسوله ... وانها لتجارة لا تبور !

ولعله من طريف ما استطرد اليه فى هذا السياق أن أبا بكر الصديق فى أول عهده بالخلافة اصبح غاديا الى السوق وعلى رقبته اثواب يتجر بها ، فلقيه عمر ابن الخطاب وابو عبيدة بن الجراح فقالا له : أين تريد يا خليفة رسول الله ؟ قال : السوق ! قالا : تصنع ماذا وقد وليت امر المسلمين ؟ قال : فمن اين اطعم

عيالى ؟ قالا : انطلق حتى نفرض لك شيئا ! فانطلق معهما فجعلوا له من بيت المال ستة آلاف درهم في السنة وقال ابو بكر : قد علم قومى أن حرفتى لم تكن لتعجز عن مؤونة أهلى ، وقد شغلت بأمر المسلمين وساحترف للمسلمين فى مالهم ، وسيأكل آل ابى بكر من هذا المال ! فلما حضرته الوفاة قال : ردوا ما عندنا من مال المسلمين ، فانى لا اصيب من هذا المال شيئا ! وأن أرضى التى بمكان كذا وكذا هى للمسلمين بما أصبت من اموالهم .

فقال عمر : لقد اتعب من بعده ! ونقول نحن : أين فى الناس والحكام مثل ابى بكر الصديق .. رضى الله عنه .

ولكم اتصلت مواقف عديدة استحق معها أبو بكر أن يلقب أبا بكر « الصديق » . غير أن هذه التسمية أطلقت عليه ، ومن ثم حملها مدى الدهر ، منذ مرحلة مبكرة وموقف مشهود .

ففى ذات يوم خطير ذى شأن سرى نبأ فى مكة جعلها تعج بسخرية بالغة بين المشركين وبلبلة راجعة بين المسلمين ، بل أخذت تنكب وتتنكب بارتداد عدد من المسلمين عن دينهم ! وجاء النبأ الى أبى بكر . قيل له أن صاحبك يزعم أنه أسرى به الى بيت المقدس ثم عاد الى مكة فى ليلة واحدة ! فماذا كان رد الفعل «الغيابى» لدى أبى بكر وانطباعه الفورى قبل أن يستوثق من نسبة هذا القول الى النبى عليه السلام ؟ قال أبو بكر : انكم تكذبون عليه ! قالوا : بلى هاهو ذاك فى المسجد يحدث الناس بذلك ! قال أبو بكر وقد لاحظ أصرارهم وتأكيدهم :

والله لئن كان قد قاله لقد صدق ! انه ليخبرني أن الخبر ليأتيه من الله من السماء الى الارض في ساعة من ليل أو نهار فأصدقه ، فهذا ابعد مما تعجبون منه ! وهرع أبو بكر الى المسجد وانصت الى النبي وهو يصف بيت المقدس الذي كان أبو بكر قد زاره وعرفه . فما أن فرغ النبي من وصفه لبيت المقدس ومن حديثه عن الاسراء حتى قال أبو بكر : صدقت يارسول الله ! هكذا بلا أدنى تردد ولا ارتياب .

وكما يؤيد الله رسوله بنصره وملائكته أيده ــ سبحانه ــ بأبي بكر الذي حسم الموقف واعاد اليقين الى المهتزين فزادهم الله تثبيتا .

هكذا مكانة أبي بكر في الاسلام وفي الصحبة ... صديقا وناصرا وثقلا كبيرا !

انني لست اتناول هنا تفاصيل حياة ابي بكر ولا اؤرخ له . انما احاول بجهد المقل وبشغف المحب ان الثم يده واقبلها تقبيلا ! ان اقول كلمة حب فيه وامتنان له . ان أقف على بعض من أسرار هذه الطاقة العظمى المثالية التي تجيش بالتفاني في حب رسول الله عليه الصلاة والسلام عسى أن نتعلم منها بعض الشيء . عسى أن تجذبني الى مجالها المغناطيسي الفذ فاسبح في فلك ذرة صغيرة !

ربع قرن من الزمان وهو يلازم النبي . ثلاث عشر سنة في مكة ، ثم ليالي في الهجرة ثم عشر سنين في المدينة المنورة . ثم نحو سنتين واربعة اشهر وهو خليفة رسول الله ، وكأنما هو خلالها لم يفارقه أيضا !

ومالي اقصرها على ربع قرن وهي باقية مابقي الزمان

او لم يقل فيه رسول الله عليه السلام « اني لا اعلم احدا في الصحبة يدانيه . واني لو كنت متخذا من العباد خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ، ولكن صحبة واخاء وايمان حتى يجمع الله بيننا عنده » !

وفي المدينة المنورة يتصل بينهما النسب .. واى نسب ! ابنة أبي بكر البكر عائشة تزف الي رسول الله عليه السلام ، فتصبح أم المؤمنين ، وافقه النساء على الاطلاق واحب أزواج النبي اليه . روت عن النبي عددا هائلا من الاحاديث ، ولها في الصحيحين ثلثمائة وستة عشر حديثا .

وفي الحقبة الحاسمة بالمدينة المنورة هل كان يمكن وابو بكر من هو ايمانا وجهادا وبذلا وقربا الا أن يغدو في طليعة من يشارك ويشهد بدرا واحدا والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله ؟ ولازال يتردد في سمع الزمان ابتهال النبي ودعواته لرب العالمين في بدر يوم التقى الجمعان « اللهم هذه قريش قد أتت بخيلائها تحاول أن تكذب رسولك . اللهم فنصرك الذي وعدتني . اللهم أن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد » ! ويلح في الدعاء حتى يسقط عنه رداؤه ، ويرد ابو بكر رداء النبي على منكبيه ويهتف به هتافا لازال هو الآخر يرن كصدى الصوت الذي يفيض ايمانا بالله وجزعا على رسوله « يانبي الله ! بعض مناشدتك ربك ، فان الله منجز لك ماوعدك ! » .

وفي الحديبية لزم أبو بكر الصديق — بتسليم ورجاحة عقله — حكمة رسول الله في العهد الذي أبرمه مع قريش ولم يرحب به كثيرون — ومنهم عمر بن الخطاب — حتى نزلت سورة الفتح بأن عهد الحديبية صنو وسبيل الفتح المبين ، وهو ماتم بالفعل ..

ويجيىء عام الفتح ويتيسر الحج الى بيت الله الحرام وكما يقول ابن عمر : استعمل النبي عليه الصلاة والسلام أبا بكر على الحج وامره « بتشديد الميم » فى أول حجة كانت فى الاسلام ، ثم حج رسول الله فى السنة التالية حجة الوداع .

وعندما مرض النبى عليه السلام فى العام العاشر للهجرة واشتد وجعه قال : مروا ابا بكر فليصل بالناس . ولما ثقل عليه المرض أكثر وأكثر قال : ائتونى فاملى كتابا لابى بكر حتى لا يختلف عليه ! على انه مالبث ان عدل عليه السلام واجلس من هم بأن يأتى بالكتاب الذى سيمليه وقال : اجلس ! ابى الله والمؤمنون أن يختلف على أبى بكر !

وعندى أنه على وفرة الكلمات الحميمة التى أثنى بها النبى على أبى بكر فان هذه الشهادة هى فصل الخطاب ومسك الختام فى اعزاز وتأكيد قدر أبى بكر الصديق رضى الله عنه .

وكما لم يصدق أول الامر بعض المسلمين فى حياة النبى ماحدث به عن اسرائه الى بيت المقدس فى حين صدقه أبو بكر على الفور وقطع دابر البلبلة ، فمرة أخرى لم يصدق بعض المسلمين أن النبى عليه السلام قد مات . وشبت البلبلة الكبرى والفتنة حتى تصدى — كالعادة — أبو بكر الصديق فقال كلمته الشهيرة : من كان يعبد محمدا فان محمدا قد مات ، ومن كان يعبد الله فان الله حى لا يموت ! وتلى قوله تعالى « وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفئن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا ، وسيجزى الله الشاكرين » ١٤٤ آل عمران فخشعت

الاعتراضات والقلوب فلا تسمع الا تسليما ينشج بالبكاء وكان عمر بن الخطاب أقوى المعترضين وغير المصدقين بوفاة النبى ، فما لبث أن امتثل وبات أشد الباكين .

وعلى قصر الفترة التى قضاها أبو بكر فى خلافته فقد كانت جد حافلة . هو ــ كما أذاع وعاهد فى خطبة الخلافة ــ متبع لرسول الله وليس بمبتدع . أقوى الناس عنده الضعيف حتى يأخذ له بحقه . وأضعفهم عنده القوى حتى يأخذ منه الحق ! غير أن قصارى ما استخلف من أجله وتبتل فيه هو الالتزام بأحكام كتاب الله وسنة رسوله .

ومنتهى العدالة ومنتهى الرحمة ومنتهى الزهد والورع ، ولكن منتهى الصرامة والغيرة فى الحفاظ على دين الله .

خلافة تاريخية فى فترة انتقالية حرجة ومصيرية ، واذا كان بعض المتربصين والذين فى قلوبهم مرض ومن فى الفتنة سقطوا قد شرعوا يشيعون التوتر والاضرابات والقلاقل فان أبا بكر كان لها بعزمه ومسئوليته وبراعته وعبقريته فنهض وتصدى بكل قوة وحسم وايمان الصديقين الابرار .

يكفى أن التاريخ الاسلامى يسجل له شجاعته وحصافته وتصميمه وانتصاراته على المرتدين ومانعى الزكاة وقضائه على المتنمرين والمنشقين والطامعين قضاء مبرما فى حروب الردة التى استمرت فى عديد من اركان الجزيرة العربية حتى رد كيدهم فى نحورهم . فما هدأ وقر عينا حتى استقرت الامور وتثبتت دعائم دين الله فى جميع الارجاء ثم مهد بفتوحاته للامبراطورية الاسلامية .

ولانه موعود « بالاولوية » دائما ، فهو أولَ من صلى فى الاسلام واول من اقام للناس حجهم فى حيـــاة رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، واول خليفـــــة للمسلمين ، واولَ واولَ .. فهو أيضا اول من جمـــع القرآن الكريم من صدور القراء عندما خيف عليهم مع تناقص عددهم أذ استشـهد منهم من أستشـهد فى حروب الردة . وهل هناكَ ماهو اعظم جـــــلالا من جمـع القرآن ؟!

وفى مثل سن النبى عليه الصلاة والسلام « ٦٣ سنة » عندما لحق بالرفيق الاعلى ، يحتضر أبو بــكر الصديق . وتقف عائشة الى جواره فتتمتم ببيت شعر باكَ من مأثورات حاتم الطائى :

لعمرك ما يغني الثـــراء عـــن الفتى
اذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر

فينظر اليها الصديق بين الحنان والغضب ويقول : يابنية ! ليس كذلك يا أم المؤمنين ، ولكن قولى « وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ماكنت منه تحيد . » ١٩ ق .

حتى وهو يحتضر فان « الصحبة » حاضرة لا تغيب عن خاطره ، وطفق يوصى عائشة أن يدفن الى جنب رسول الله عليه الصلاة والسلام . فلما توفى الصديق حفر له وجعل رأسه عند كتفى رسول الله ، والصق اللحد بقبر الرسول عليه السلام فقبر هناكَ .

وبعد

فعندما قبض ألنبى صلى الله عليه وسلم قصد ابوبكر الى بيت عائشة فاستأذن ليدخل ، والفى النبى مسجى فى ناحية من البيت ، فأقبل حتى كشف عن وجهه ،

ثم انحنى يقبله وقال : ما اطيبك حيا ، وما أطيبك ميتا !

ومنذ ذلك الحين فلكم استعيرت هذه العبارة ورددت في رثاء الراحلين وما فتئت تقال وتكتب . والصديق قائلها هو أولى الناس بها بعد رسول الله عليه الصلاة والسلام .

نعم يا أبا بكر ! ما اطيبك حيا ، وما اطيبكَ ميتا ! وجزاكَ الله عن الاسلام والمسلمين خير الجزاء !

عمر بن الخطاب

المسجد الذى اختلف اليه بحكم المتاخمة كان الآذان فيه يرفع من الحجرة المجاورة حيثما احل فى بيتى ، او كان المؤذن يقيم الحجة على هل البى سرعة الصـــوت والضوء بسرعة الاستجابة والسعى !.. هذا المســجد الذى اختلف اليه يحمل اسمه .. عمر بن الخطاب ! ولست أعتقد أن أحدا من المسلمين أو غير المســـلمين يختلف على عمر بن الخطاب وعلى شخصيته الفـــذة ومكانته البارزة حتى أن العالم المؤرخ ليتل هارت عندما اصدر منذ أعوام كتابه الشهير عن الخالدين المائة فى تاريخ البشرية وكان على رأسهم محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لم يذكر من العرب والمسلمين بين المـائة احدا آخر سوى عمر بن الخطاب الذى جاء ترتيبـــه الحادى والخمسين فيما يرى هو !

واذا كنت اشعر بالامتنان للموقع العمـــرانى الذى جمعنى بمسجد عمر بن الخطاب ، فاى امتنان عظيم هذا الذى يحمله المسلمون جميعا لموقع عمر نفسه واثره فى دين الله ؟! لا جرم أن دعوة رسول الله عليه الصلاة والسلام التى فتحت لها أبواب السماء والتى هيأت لها الاسباب والاجابة كانت « منعطفا تاريخيا » فى السنة السادسة للبعثة المحمدية ، وكانت الدعوة « اللهم أعز الاسلام بعمر بن الخطاب » !

كان عمر بن الخطاب ذا حمية وشكيمة وقوة فى الجاهلية يهابه الناس ويحسبون حسابه ، وكان مكابرا ومنحازا مع قومه ضد دعوة النبى عليه السلام حتى أنه كاد يبطش بأخته فاطمة وزوجها سعيد بن زيد اذ فوجىء باسلامهما وبصحيفة فى ايديهما يبغى انتزاعها فما مكنتاه منها الا أن يغتسل ، فقد كان مخطوطا بهـــا آيات كريمة من سورة طه . وانصاع الجبار واغتسل وتطهر لا ليشفي حب استطلاعه فحسب ولكن بالدرجة الإولى لان الله سبحانه وتعالى الذى ادخره لمنزلة سامية يبلغها أراد أن يشفي صدره ويغسل روحه ويخلقه خلقـــا جديدا ! وطفق يقرأ السورة حتى اذا بلغ قوله تعـالى « انني أنا الله لا اله الا انا فاعبدني » ١٤ طه تمت كلمة الله وانقشعت الغشاوة وتحـرك الايمان الكامن ورق القلب الذى انفتح وانشرح للاسلام . وهكذا ذهب الى النبى يشهد الا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ! وهلل المسلمون فقد أجيب الدعاء النبوى واعز الله الاسلام بعمر بن الخطاب . وقد قيل انه نزل فى اسلام عمر قوله تبارك وتعالى « يأيها النبى حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين » .

أما أن اسلام عمر ــ كما قال عبد الله بن مسعود ــ كان فتحا ، فهذا ترجمة لواقع الحال . فقد أمكن بعد اسلامه ــ والمسلمون بعد حفنة قليلون ــ أن تنتقل الدعوة من السر الى الجهر . وبعد أن كان يحال بين المسلمين وبين الصلاة بالبيت العتيق ، فما أن أسلم عمر الا وقد شاحن المعترضين وقاتلهم وأرهبهـــم حتى خلوا بين المسلمين وبين صلاتهم فى البيت الحرام . ويضـــيف

صهيب الرومى انه « لما اسلم عمر ظهر الاسلام ودعى اليه علانية ، وجلسنا حول البيت جمعا ، وطفنـــا به ، وانتصفنا من غلظ علينا ، ورددنا عليه بعض ما يأتى به » ! .

ونشأت الصحبة وتوثقت أواصر المحبة والقرب بين المسلم ألوافد وبين نبى الاسلام عليه السلام حتى أهله ايمانه وشجاعته وشدته فى الحـــق وشخصـــيته واستبساله فى الدفاع عن دين الله ورسوله وفى تحمل اذى المشركين الى أن غدا بين صحابة النبى عليه السلام فى المرتبة التالية بعد أبى بكر الصديق مباشرة ، وحتى قال عنه عليه السلام « جعل الله الحق على لسان عمر وقلبه » .

ومن منطلق الايمان الذى زينه الله فى قلبه ، ومـن الصراحة التى نشأ عليها ، ومن الاحســاس بذاته التى كانت نسيج وحدها ، ومن رجاحة فكره التى حباه الله بها ، ومن الشورى التى رباه الاسلام وشجعه الرسول عليها ، ومن زهده وعدالته وفقهه .. من كل الخصـــــائص العمرية المتألقة نقف مشدوهين أمام ماجاء فى مســـند أحمد أن النبى عليه السلام قال « لو كان بعدى نبى لكان عمر بن الخطاب » !

ولقد شهد عمر المشاهد والغزوات بدءاً من بدر ، ولم يتخلف عن واحدة منها ، وكان كأخيه ابى بـــكر ــ وقد آخى النبى بينهما بالفعل ــ ألى جوار رســـول الله .

وثمة مسالة تبدو دقيقة ..

فاذا كان أبو بكر قد آمن بالله ايمانا ثابتا كالجبـــال

الراسيات الرواسخ وافنى ذاته فى حب رسول الله واضحت الصحبة عنده اغلى واعز ما يملك ويحرص عليه فان هذه الصفات بعينها كانت من سمات عمر بن الخطاب لولا ماكان يغلب على كل من الصاحبين .. ربما بحكم النسيج النفسى أو فارق السن . فأبو بكر يتسم بالهدوء والتسليم وهو أميل الى الاخذ بالعفو والتسامح ، وعمر مفطور على العنفوان والاندفاع والتشدد مع أن جوانحه تطوى نفسا رحيمة غاية الرحمة بريئة براءة الطفـــل الوديع ! وبعبارة اخرى فهذان الصاحبان ـ رجـــلا الاقدار وعناية السماء ـ كانا الى جانب رسول الله يكملان بعضهما البعض . وكان هذا الاختـــلاف فى التناول يتضح عندما يطرح الرسول عليه السلام مسألة للرأى يستشيرهما فيها . ومن أقوال النبى عليه السلام: أن مثل ابى بكر كمثل عيسى عليه السلام أذ يقـــول « أن تعذبهم فانهم عبادك ، وأن تغفر لهم فانك انت العزيز الحكيم » ١١٨ المائدة ، وأن عمرا مثله كمثل نوح عليـــه السلام اذ يقول « رب لا تذر على الارض من الـكافرين ديارا » ! ٢٦ نوح وعلى سبيل المثال ـ وما اوفر الأمثلة ـ ففى أسرى بدر أشار أبو بكر بقبول الفداء منهم فى حين أشار عمر بضرب اعناقهم !

وقبيل أن تحسم قضايا طرحت للرأى ربما خالف عمر النبى عليه السلام . حدث ذلك غير مرة ، ثم يتنزل الوحى بالقول الفصل وقد أيد رأى عمر فى أشياء وخالفه فى اخرى . وكان مايصدر عن عمر يصدر من فـــرط حماسه وغيرته على دين الله وحبه لرسول الله عليه السلام . فمن مشهورات حماسة عمر أنه اعترض على

صلح الحديبية وتساءل : ألسنا على الحق ؟ لماذا نرضى الدنية فى ديننا ؟ حتى نزلت سورة الفتح واعتبرت صلح الحديبية سبيل الفتح . ومن مأثور مواقف الحماسة العمرية أيضا أنه كراهية فى الخمر واحتساء المسلمين لها وإتلافها صلاتهم ، مابرح يدعو الله سبحانه: اللهم أنزل لنا فى الخمر بيانا شافيا ! حتى نزل قوله تعالى « يأيها الذين آمنوا انما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون » ٩٠ المائدة . أنه حقا كما وصفه النبى عليه السلام « أشد امتى فى أمر الله عمر » .

على أن الاختلاف والمشورة انما يردان ويصحان قبل ان يتنزل القول الفصل بوحى السماء وبآيات من القرآن الكريم ، فاذا قضى الله فان عمرا كان أعرف الناس ، وأسرعهم امتثالا لقوله تعالى « وماكان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم » ٣٦ الاحزاب .

ان الذى يمكن ان يكتب عن صحبة عمر للنبى من وفرة بحيث لا تسعه هذه السطور عن صحابة رسول الله عليه السلام ، أما الذى يروى ويسجل عن خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فقد صدرت ولن تفتأ تصدر فيه مئات الكتب والمجلدات ، وحرى بى أن أتطرق الى طرف منها بوصفها امتداد للصحبة ومن غرسها وتربيتها .

سعد عمر بصحبة النبى أيما سعادة ، وهنا برأيه فيه كان يردد « قال النبى صلى الله عليه وسلم كلمة ما أحب ان لى بها الدنيا ! » ذلك انه حين استأذنه

عمر في العمرة قال له عليه السلام « لا تنسانا يا أخى من دعائك » !

ولحق نبى الله بالرفيق الاعلى ، وكان أحزن الصحابة عليه أحبهما اليه واخلصهما حبا له وهما أبو بكر وعمر ، ولكن كل بأسلوبه وبطريقته .

وظل عمر الذراع اليمنى لابى بكر فى خلافته ومستشاره الاول . واعتل ابو بكر بمرض المنية فصح عزمه — دون تردد — على أن يستخلف على المسلمين عمر بن الخطاب بوصية مكتوبة . وسمع البعض بما انتواه ابو بكر فقال نفر منهم : ما أنت قائل لربك اذا سألك عن استخلافك عمر ؟! فقال ابو بكر : أجلسونى ! أبالله تخوفونى ؟ خاب من تزود من أمركم بظلم ! أقول : اللهم استخلفت عليهم خير اهلك !

اى والله ، فان دعوة محمد صلى الله عليه وسلم بأ[ن] يعز الله الاسلام بعمر بن الخطاب كانت بحق دعوة نب[ى] أو كما نقول فى زماننا « زعقة نبى » عندما تظلم الد[نيا] فى أعيننا ونتلمس مخرجا أو ننشد معجزة نحتاجها فقد عز الاسلام بالفعل منذ أن اسلم عمر ، ثم كتب ا[لله] لهذا الصحابى « الاسطورى » الذى عرض حياته للمو[ت] والاستشهاد فى عديد من الغزوات والمواقف أن يس[لم] ويمتد به الاجل لمواعيد عظيمة مع القــــدر فيتولى ا[مر] المسلمين كافضل ما تكون عليه الخلافة والحكم ، وينهض الى مهام واعمال مجيدة خالدة عبر عشر سنين بلغ[ت] فيها العزة الاسلامية ذروتها دينا ودولة . وكما [كان] ابو بكر الصديق هو الخليفة المناسب فى المرحـ[ـلة] المناسبة ، اعقبه امير المؤمنين عمر بن الخطاب وكـ[ـان]

انسب المؤمنين قاطبة للمرحلة قيادة وسياسة وبسطا لدين الله طولا وعرضا وعمقا وازدهارا بتدبير وارادة من لدن حكيم خبير عز وجل وصدق الله « انا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا » ٥١ غافر .

سبعة كتب على الاقل عن عمر بن الخطاب أعــدت قراءتها بينما أعد للكتابة عن عمر بن الخطاب . وبأمانة وصدق فان ثمة بضعة سطور بليغة موجزة وواضـــحة متبلورة ذكرت عن عمر فى كتاب الدكتور محمد حسين هيكل « الفاروق عمر » ولا استطيع مقاومة اغــراء تضمينها هنا :

« فاذا ذكر الناس الزهد فى الدنيا مع القــدرة على النهل من نعمها ذكروا زهد عمر . واذا ذكروا العــدل المطلق وغير المشوب بشائبة ذكروا عمر . واذا ذكــروا النزاهة لا يفرق صاحبها بين أقرب الناس اليه وابعدهم عنه ذكروا نزاهة عمر . واذا ذكروا العلم والفقه فى الدين ذكروا عمر ودينه .. وقامت الامبراطورية الاسلامية فى عهده .. فقد خلف عمر ابا بكر على امارة المؤمنين حين فرغ أبو بكر من حروب الردة وحين كانت جنــود المسلمين تواجه الفرس والروم على تخوم العراق والشام فلما قبض عمر كانت الامبراطورية الاسلامية قــد اشتملت العراق والشام جميعا وقد تخطتهما فاشتملت فارس ومصر . وبذلك بلغت حدودها الصين من الشرق وافريقيا من الغرب وبحر قزوين من الشمال والسودان من الجنوب . وقيام هذه الامبراطورية العظيمة فى عشر سنوات معجزة بلا ريب . والمعجزة اعظم قدرا بعد أن تحطمت فارس والروم الامبراطوريتان صاحبتا السلطان

على عالم يومئذ . وتحطمتا بأيدى العرب الذين كانوا الى سنوات قبلها قبائل متنافرة لا تهدأ منازعاتها . ولم تكن الامبراطورية الاسلامية وليدة عبقرية حربية فتبقى الامبراطورية ما بقيت وتزول بزوالها ، بل كانت قائمة على اساس قوى من خلق متين وحضارة سليمة الاساس » .

وفي الحق انني حرت ماذا التقط وماذا ادع من قصة واحداث وانتصارات وحكايات خلافة عمر الخصيبة المشرقة ، والكثير منها معروف ومتواتر ومتداول ابتداء من قولته « اصابت امراة واخطأ عمر » الى جراته فى عزل خالد بن الوليد وهو في أوج انتصاره ليدلل عمر على أن النصر ليس رهينا ولا حكرا لفرد أو آخر وانما هو من عند الله وجزاء حسن نوايا واداء المؤمنين .

ومن المفهوم انني لست أكتب مؤلفا تفصيليا لا عن النبى صلى الله عليه وسلم ولا عن بعض صحابته رضوان الله عليهم ، والا لما كانت آلاف الصفحات تكفي لذلك . انما اعرض لهم فى سطور قليلة تنسجها المحبة والتقدير والتحية والسلام أكثر مما يتناولها التاريخ والتحليل والتعليق .

ولقد ارى أن سر قوة عمر بن الخطاب ربما يكمن فى أن الدنيا كلما اقبلت عليه وفتحت له آفاقها وخيراتها كلما اعرض وزهد فيها وتوجه الى العلى القدير . هذا مكمن القوة في شخصية عمر . كان متجرداً يخاف الله ويتقيه أشد التقوى فى السر والعلن ، وكان حب رسول الله وصحبته نور ذاكرته وأشواقه ، ومؤنس ضميره واعماقه .

قالَ عمر لبعض أصحابه : أيها القوم انى والله أرى تعذيركم وكراهيتكم لطعامى ! وانى والله لو شئت لكنت أطيبكم طعاما وأرفعكم عيشا ! ولكنى سمعت الله جل ثناؤه عير قوما بأمر فعلوه فقال « أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها » ! ٢٠ الاحقاف .

مرة واحدة أصيب بعير من بيت المال فنحره عمر وارسل الى أزواج النبى منه ، وصنع مابقى فدعا اليه من المسلمين من دعا ياكلون معه . فقيل له يا أمير المؤمنين لو صنعت لنا كل يوم مثل هذا فاكلنا عندك وتحدثنا ؟! ويتذكر عمر ما كان من أمر رسول الله وتقشفه وما اثر من زهد أبى بكر فيقول عمر : والله لا اعود لمثلها ! انه مضى صاحبان لى « يعنى النبى عليه السلام وأبا بكر » عملا عملا وسلكا طريقا واننى ان عملت بغير عملهما سلك بى طريق غير طريقهما !

راغب هو عن زخرف الحياة التى ازدهرت للمسلمين فى عهده ، وراغب فى أن يأتى الله بقلب سليم . وهو يقول : لولا أن اسير فى سبيل الله ، أو أضع جبينى لله فى التراب ، أو أجالس قوما يلتقطون طيب القول كما يلتقط طيب الثمر ، لاحببت أن اكون قد لحقت بالله !

وتقبل عليه ابنته حفصة زوج النبى وأم المؤمنين فتسمعه يتضرع : اللهم ارزقنى قتلا فى سبيلك ، ووفاة فى بلد نبيك !

هذا الخليفة الذى كان أعدل وازهد وافقه أهل الارض والذى تمنى الشهادة واللحاق بقرب رسول الله كان أبر على الله من أن يقتله احد المسلمين الذين نعموا وعزوا بفيىء خلافته واتساع وازدهار رقعتها

شرقا وغربا لتمسي اكمل وانقى مجتمع اســـلامى فى التاريخ ، ما نبرح نتطلع نحن اليــه بعد أربعــة عشر قرنا . .

انما الذى اغتاله فى ألسنة العاشرة من خلافته فارسى مجوسي حاقد موتور كان خادما للمغيرة بن شعبة .

ففى السادس والعشرين من ذى الحجة سنة ثلاثة وعشرين للهجرة وبينما أمير المؤمنين عمر يوشك أن يؤم المسلمين فى صلاة الفجر ، وقبل تكبيرة الاحرام ، مرق أبو لؤلؤة المجوسى من بين الصفوف فطعن أمير المؤمنين عمر ثلاث طعنات غائرة بخنجر له نصلان حادان كـــان يخفيه تحت ردائه ، فخــر عمــر مضرجاً بدمـــائه ، واستبد الجزع والاضطراب بالمؤمنين ، فحمل البعض أميرهم فى حين تعقب الاخرون القاتل الذى فر واختبأ فى ركن بالمسجد ، فلما أدركوه طعن نفسه بخنجـــره وانتحر .

وحين أفاق عمر من غشيته وهو يكابد جراحه وأوجاعه كان أول ما سأل عنه : هل صلى الناس ؟! فلما أجيب بالايجاب قال أمير المؤمنين داعية الاسلام حتى النفس الاخير : لا اسلام لمن ترك الصلاة . . ثم سأل عن قاتله ، فلما علم بهويته اطمأن وشكر الله وقال : الحمد لله الذى لم يجعل قاتلى يحاجنى عند الله بسجدة سجدها له قط: ما كانت العرب لتقتلنى !

ماذا بقى من أمنيات لهذا الصحابى والخليفة العظيم المبشر بالجنة ؟

كان عمر بن الخطاب أحد العشرة المبشرين بالجنة ، ولكنه كان أكثر الناس خشية من يوم الحساب رغم هذه

البشرى ، ورغم كل فضائله وأفضاله ، ورغم كراماته وانجازاته . فاخذ يتمتم وقد حضرته المنية : لو أن لى مافى الارض من شىء لافتديت به من هول المطلع ! لم تكن له من أمنية الا أن يغفر الله له . على أن نفسه كانت نزاعة الى شىء آخر فى شهوره الاخيرة ، وهو أن يدفن الى جوار رسول الله عليه الصلاة والسلام وأبى بكر ، فاستأذن أم المؤمنين عائشة فى ذلك فاذنت له . لكن عمر هو عمر أبيا نائيا بنفسه عن شبهات استغلال النفوذ وحتى الرمق الاخير . اذ أنه — والطبيب يداوى جراحه بغير جدوى — بعث بابنه عبد الله الى السيدة عائشة مرة أخرى يستأذنها « فان أذنت فادفنونى الى جوارهما، والا فدعوها وادفنونى فى البقيع ، فانى أخشى أن تكون قد أذنت لى من قبل لسلطانى » ! فلما مات رضوان الله عليه أذنت عائشة ودفن الى جوار صاحبيه .

لقد اعز الله عمر بن الخطاب فى حياته وفى استشهاده وفى ذكراه .. واكرمه بابنه عبد الله بن عمر الذى عرف عنه أنه من أوعى شباب الصحابة ومن حفظة ورواة احاديث النبى عليه السلام . كما حبى الله عمر وخصه بحفيد من أحفاده سار على دربه ونهجه وتولى الخلافة فكان من أزهد واعدل الناس طرا .. الا وهو أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز « الاموى » الذى ينعته التاريخ والمسلمون بانه خامس الخلفاء الراشدين !

عثمان بن عفان

في سنة ١٩٣٩ وكنت بعد فى مطلع فتوتي وصباى ، وعاطفتي الدينية مشبوبة ، و « مصروفى » مبذول لاقتناء الكتب الدينية عن طيب خاطر اعب منها عبا ، فما عجزت عن شرائه استعرته لاشبع نهمى ، فى ذلك الحين أعارنى المرحوم الشيخ محمد على أمين بواب المدرسة العباسية الثانوية بالاسكندرية سفرا ضخما متعدد الاجزاء هو « البداية والنهاية » فى التاريخ الاسلامى لابن كثير . ولم يكن تحديا كبيرا أن آتى عليه كله فى وقت وجيز ، فالتاريخ الاسلامى الذى يدرس لنا حتى المرحلة الثانوية مجرد سطور وقشور ، والروح ظامئة راغبة فى أن تنهل بأسرع ما تستطيع ، وارادة الثقافة الدينية فى عنفوانها ، ولكن شيئا لا أنساه وقع لى آنذاك بل عصف بى اذ بلغت تاريخ خلافة عثمان ابن عفان وكيف جاءت نهايته . انخرطت فى بكاء محموم كأنما أتلقى نبأ مصرعه تلك الساعة ، أو كأنني المقتول والقاتل معا ! وطويت الكتاب كما طويت راسي مقيما بين الضلوع ! ثم عدت استأنف القراءة مهموما كأنني وضعت يدي على مكان وزمان انحسار المد الاسلامى الحقيقى ، ورحت أتحسر عليه . كانت عبراتى أسفا على أمير المؤمنين عثمان بن عفان ونهايته المأساوية تسيل مدرارا ، اما دموعى حزنا على بداية انبعاث تلك الفتنة التى

فرقت المسلمين منذ ذلك الحين فقد فاضت انهاراً . وفي كل مرة يطالعني كتاب واطالعه وهو يتناول تلك المرحلة كتبه اقدمون او محدثون يغشاني مايغشاني وتذهب نفسي حسرات ، واتقلب على جمر الفتنة الكبرى ! ولم أستطع أن اقطع برأى فى عثمان بن عفان ، أو لم أرد ذلك ، كأنى لا أود حتى الاحتفاظ بهذا الرأى لنفسى !

ولكن هاناذا اليوم والسياق يطالبني بالافصاح وبالكتابة عنه ، فهل هو امتحان شاق وعسير ؟ ! من الواضح أن نهجي فيما اعرضه عبر هذه الحلقات عن صحابة النبى عليه الصلاة والسلام قد اختلف في هذه الحلقة . فلقد انتويت واتبعت التركيز على الصحبة ! فاذا استرسلت وتعديتها فليشغلني فى المقام الاول اثر الصحبة على الصحابى فى المرحلة التالية لوفاة النبي عليه السلام . غير انني مع عثمان بن عفان ابدأ القصة من ختامها اى من نهايات خلافته . لعل الذى حدا بى الى ذلك هو هذا الاثر العميق الذي خلفته في اغوارى ماساته ومأساة المسلمين ، فكأنه برز الى السطح وشدني شدا لمواجهته . لعلى وجدتني منساقا الى تصفية وحسم مسألة «معلقة» قبل أن اتريض في سيرته . اترانى ابغى تحديد مسئوليته فيما دهاه ودهانا ؟ ! وكيف اصل الى بغيتى والعناصر مختلطة متضاربة وربما غير متكاملة ؟ ثم من اكون ــ وانا العبد الضعيف على هامش الهامش ــ حتى اتحمل مسئولية الحكم على مسئولية أمير المؤمنين عثمان بن عفان ؟ انما اجتهد ، وعزائي انها محاولة اجتهاد من موقع الحب ، وفرق بين الحب والتعصب المنحاز ، واشهد الله انني احب الصحابى الجليل عثمان بن عفان

حبا صادقا راصيلا لولا أن فى النفس غمامة تساؤل ربما آن الاوان أن أهزها فتنقشع !

لم يكن عمر بن الخطاب صورة طبق الاصل من أبى بكر الصديق ، وبالتالي فليس متصورا ولا مطلوبا أن يبيت عثمان بن عفان صورة من أبى بكر وعمر . الذى يجمع بينهم على سبيل اليقين هو خشية الله ومحبة رسوله ، والذي « يفرق » بينهم اختلاف الطبائع فضلا عن اختلاف الظروف والمناخ . ثم ان الحاكم — أى حاكم — ليس ملاكا ، ولا « تقييمه » يجرى بمقاييس الملائكة !

ما الذى قد يؤخذ على عثمان بن عفان وقد دامت خلافته اثنتى عشرة سنة لان للناس فيها ووصلهم كثيرا حتى بدا كأنه نقيض عمر بن الخطاب ؟ قيل انه فى الست الاواخر من سنى خلافته استعمل بعض أقربائه فى الولايات ، وهذه وجهة نظر على أى حال فيمن يطمأن اليهم من « أهل الثقة » على الا يخونوا اماناتهم أو يفسدوا فى الأرض ، فان فعلوا فهو قمين بتغييرهم .. بالشورى وبالحسنى . واذا كان عمر قد قال « أحب الناس الى من رفع عيوبى الى » فما احسب ان عثمان رغم « تأولاته » كان ليصد عن النصح أو النقد .

وعثمان واقف على المنبر ابتدره عمرو بن العاص قائلا : ياعثمان انك ركبت بهذه الامة نهابير « مهالك » من الامر فتب وليتوبوا معك ! فحول عثمان وجهه الى القبلة ورفع يديه وقال : اللهم انى استغفرك واتوب اليك ! ورفع الناس أيديهم . وقال عثمان فى مناسبة اخرى : ان وجدتم فى كتاب الله أن تضعوا رجلى فى قيود فضعوها !

وعثمان كان أشد الناس حياء ، وكان أوابا رقيقا ، بكاء « بتشديد الكاف » من كتاب الله .

والفتنة نائمة ولعن الله من أيقظها ! ولم يكن عثمان بالتأكيد من أيقظها ، فقد قامت الدلائل على أن أيدى خفية مغرضة وراء اشعال الفتنة ، فمتى اتقد أوارها ، ومن اختفى وراءها ؟

حين أقبل « المصريون » الى المدينة يريدون أن يعزل عثمان بن عفان والى مصر عبد الله بن سعد بن أبى السرح استجاب لهم عثمان ، وولى عليهم محمد بن أبى بكر الصديق . وبينما هم فى طريق عودتهم مطمئنين شاكرين، اختلقت اليد الخفية ـ يد الفتنة ـ مشهدا مدبرا ... رسمت « السيناريو » باحكام خبيث ، وخططت ـ بخداع وتزوير آثمين ـ لمسرح الاحداث . اذ ألقت فى طريق « المصريين » العائدين بغلام كشفوا أنه يحمل كتابا بختم عثمان الى عبد الله بن سعد يثبته واليا ويحرضه على قتل فلان والتنكيل بعلان ! وثارت ثائرة « المصريين » وعادوا أدراجهم الى المدينة يحاصرون دار عثمان بن عفان ، ويستعدون الامصار ضده من كل مكان قرابة شهر من الزمان ! وانكر عثمان ـ وهو الصادق التقى الذى لم يرتكب فاحشة فى جاهلية أو اسلام ـ انكر أن الكتاب صدر عنه . وأكد على ابن أبى طالب للمتخرصين أن عثمان لا يشهد الا بالحق . فعاد « المصريون » الثائرون يطالبون بتسليمهم مروان ابن الحكم فهم يتهمونه بالكيد لهم ، وكان مروان مع أمير المؤمنين فى داره . وابت نخوة عثمان وعروبته الا أن يجير مروان فلا يسلمه اليهم ليقتلوه . ولم تكن هذه

الواقعة المفتعلة هي التزوير الوحيد في سبيل الاثارة والتهييج والافتيات على عثمان . فقد نسبوا الى أم المؤمنين عائشة انها كتبت الى الناس تؤلبهم ضد عثمان . وقد نفت عائشة هذا الكتاب الخسيس المدسوس فقالت وهي تنعي عثمان بعد مقتله : تركتموه كالثوب النقي من الدنس، ثم قربتموه تذبحونه كما تذبح الشاه ! والذي آمن به المؤمنون وكفر به الكافرون ما كتبت الى أحد عن عثمان بسوء !

وكان في مكنة عثمان ان يقاتل هؤلاء المتمردين قبل أن يتكاثروا فيدحرهم ويصد عن داره وخلافته غوغائية التمرد . كان في داره سبعمائة من الرجال الاشداء ، كما جاءه زيد بن ثابت يقول : هذه الانصار بالباب يقولون ان شئت كنا أنصار الله مرتين ! لكن عثمان أبى أن يهرق دماء المسلمين فشكره ورده : أما القتال فلا !

وكما رفض مقاتلتهم رفض كذلك مطلبهم بأن يخلع نفسه من الخلافة . وسانده في ذلك عبد الله بن عمر وناشده : لا أرى أن تسن هذه السنة في الاسلام ، كلما سخط قوم على أميرهم خلعوه ! ثم أضاف مشيرا الى حديث شريف « ونبوءة » لرسول الله عليه السلام : لا تخلع قميصا قمصكه الله !

ولم يستطع علي بن ابي طالب ان ينفذ الى دار عثمان ليحميه . منعته الدهماء فصاح : اللهم لا ارضى قتله ولا آمر به !

واشرف عثمان على محاصريه والقى خطبته الاخيرة المؤثرة : ياقوم لا تقتلوني ! اني وال واخ مسلم ، فوالله

ان أردت الا الاصلاح مااستطعت ، أصبت واخطأت ، وانكم ان تقتلوني لا تصلوا جميعا ابدآ ، ولا تغزوا جميعا ابدا ، ولا يقسم فيؤكم بينكم ! انشدكم الله هل دعوتم عند وفاة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بما دعوتم به وأمركم جميعا لم يتفرق وانتم أهل دينه وحقه فتقولون أن الله لم يجب دعوتكم ؟ ! أم تقولون هان الدين على الله ؟ أم تقولون انى اخذت هذا الامر بالسيف والغلبة ولم آخذه عن مشورة من المسلمين ؟ أم تقولون ان الله لم يعلم من أول أمرى شيئا لم يعلمه من آخره ؟!

غير أن العقل والايمان كانا فى غيبوبة ، وحل مكانهما الهوى والكفر والفسوق والعصيان بتحريك من اعداء الدين وأن تزيوا بزى المسلمين ! وطفقوا يتدافعون الى دار عثمان فامسكوا به وهو يتلو فى الصحف « مصحف عثمان الاشهر » فقتلوه واراقوا دمه بسيل فوق كتاب الله ، ليمسى مقتله الفتنة التى لم تتوقف ..

ولولا أن « لو » كما جاء فى الحديث « تفتح عمل الشيطان » لاثرت الف لو ولو ، ولكن قدر الله وماشاء فعل ، ولله حكمة فيما اقترفه أعداؤه ليبلونا .

ألغمامة انقشعت وصفيت تماما من نفسى . وأن عثمان لبرىء .. وانا لنبرأ الى الله من دمه .

شفت كتابة هذه السطور نفسى . حفظت لها حبها لعثمان وزادت عليه ، وبددت « غمامة التساؤل » ، وان كنت لم أفعل سوى أعادة ترتيب وتبسيط الاحداث من موقع محبة عثمان بن عفان .. رضى الله عنه .

نعم .. والله لا أقولن فى عثمان بن عفان ولا انقلن عنه الا خيرآ ، ولا أجدن الا برا ! كان من السابقين الاولين

توسم فيه أبو بكر حميد الخصال وحسن الفطرة وسخاء النفس وكرم المحتد ، فحدثه عن دين الله وجادله بالتى هى أحسن حتى تفتحت الروح وتهيأت . فجاء به الى رسول الله عليه الصلاة والسلام ــ ولم يكن قد دخل الاسلام الا نيف وثلاثون رجلا ــ فخاطبه النبى عليه السلام « يا عثمان أجب الله الى جنته ، فانى رسول الله اليك والى خلقه » فأسلم عثمان واسلم معه بعض أخوته ذكورا واناثا . وشق على كبراء قريش اسلام عثمان وهو من عمدهم ، فعهدوا الى عمه الحكم بن أمية أن « يردعه» ، فأوثقه رباطا حتى يدع اسلامه « المحدث » ! لكن عثمان لم يأبه لتعذير أو تعذيب وقال « والله لا أدع هذا الدين أبدا ولا أفارقه » . وأيأست صلابة عثمان وتمسكه بدينه عمه الحكم فحل وثاقه وتركه !

وأى شرف لعثمان أعظم من أن يقربه نبى الله صاحبا ثم يقربه صهرا ويزوجه ابنته رقية ، ثم تموت فيزوجه عليه السلام ابنته الثانية أم كلثوم ، فيمتاز وحده بتوكيد مصاهرة رسول الله مرتين ، ويسميه الصحابة بحق « ذا النورين » ؟ ! وأى شهادة أسمى من شهادة النبى فى غمرة أحزانه على وفاة ابنته الثانية أم كلثوم اذ يقول لهذا الصحابى الاثير « والذى نفسى بيده لو كان عندى ثالثة لزوجتكها ياعثمان » ؟!

وعثمان الصحابى الوقور الحيى الذى قيل ان الملائكة تستحى منه ، والذى بارك الله له فيما امتهنه من تجارة برع فيها واثرى منها ، يتحمل فى صبر وجلد وايمان أذى قريش واضطهادها وتضييقها الخناق عليه ، ثم ما أن يحث النبى عليه السلام بعض صحابته على الهجرة

الى الحبشة حتى يترك عثمان تجارته مضحيا بها مفوضا أمره الى الله ، ويمسى أول المهاجرين الى هـذا البلد البعيد ومعه زوجه رقية ابنة رسول الله . ثم لا يلبث بعد شهور أن يبرح به الشوق الى نبيه وصاحبه وحبيبه وصهره عليه السلام ، فيعود الى مكة عسى ان يكون الحال قد تبدل غير الحال . بيد أن قريشا هي هي ما برحت ممعنة في استعلائها وكفرانها واذاها . وان هي الا فترة وجيزة حتى تكون الخيوط قد تجمعت والاسباب توفرت لتحل اللحظة الموعودة المصيرية التي غيرت التاريخ ، فيأذن الله سبحانه بالهجرة من مكة الى المدينة و « اذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ، ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين » . وتستقبل المدينة النبى استقبالا كريما منقطع النظير هو من صـنع الله .. استقبال الحائرين الذين طلع عليهم الهدى لا البـدر وحده ! ويلحق بالنبى الى المدينة عشرات المسلمين كمـا قد سبقه عشرات . وكان عثمان بن عفان ممن ظفـروا بالهجرتين الى الحبشة ثم المدينة . وحين اقطع النبى عليه السلام الدور بالمدينة خط لعثمان داره الى جواره. ويعود عثمان الى تجارته وأمواله ، لكنها لاتحول بينه وبين أن يظل بين كتاب وحى النبى ثقة فيه وايثارا ، فلكم نزل جبريل عليه السلام بآيات القرآن على النبى صلى الله عليه وسلم فيستدعى عثمان امامه ويقول له : أكتب ياعثيم ! ثم اننا سوف نرى بعد قليل كيف أدت أموال عثمان دورا بارزا فى نصرة دين الله وقد كـان جوادا بها فطنا لاثرها وثوابها « ان الله اشترى مـن المؤمنين انفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة » . « الذين

آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله ، وأولئك هم الفائزون » ٢٠ التوبة .

وعثمان بن عفان أحد العشرة المبشرين بالجنة . وجاءت بشرى النبى لعثمان بالجنة مقترنة بمحنة تسبقها كما أخبر بها عليه السلام وتنبأ ، حيث روى أبو موسى الاشعرى أنه حين اقبل عثمان على دار النبى قال عليه السلام لابى موسى : افتح الباب للقادم ، وبشره بالجنة على بلوى تكون ! ودخل عثمان فلما علم بقول النبى تمتم عثمان : الله المستعان !

وقد شهد عثمان المشاهد والغزوات كلها فيما عدا غزوة بدر التى اذن له النبى بالتخلف عنها لتمريض زوجه رقية ابنة رسول الله وكانت توشك على الموت . واثبت النبى لعثمان اسهم البدريين واجرهم .

وما اظن ان احدا من الصحابة انفق على الدعوة وعلى الغزوات وعلى المسلمين قدر ما انفقه عثمان بن عفان ابتغاء وجه الله وجنته .

فى أولَ الهجرة آلى المدينة المنورة لم يرقَ للمهاجرين ماؤها الذى يستقى منه أهلها عادة ، ولكن طاب لهم ماء بئر « رومة » وهو مكلف غير ميسور . فأرسلَ النبى الى صاحبُ البئر أن يبيعها له وثمنها عين من عيون الجنة يعده بها . ولعلَ مثل هذه الصفقة الرابحة والتى مؤداها بيع عرض زائل فى الدنيا بمقابل أخروى هو خير وابقى ، لعلها ماكانت لتغرى صاحب البئر الذى تحجج بكون رزق عياله معقوداً على مايبيعه من مائها . ولكن الذى يتوقَ ويسارع آلي صفقة كهذه صحابى

كعثمان بن عفان ، فاشترى البئر من صاحبها بخمسة وثلاثين الف درهم ووهبها للمسلمين .

وكانت غزوة تبوك هي خاتمة غزوات النبى عليه السلام وواحدة من أشق الغزوات ، اذ أنها اقتضت تجهيزا ضخما وأموالا كثيرة فى حين أنها صادفت أياما ذات عسر وضيق بالغين . وبقدر ما كشفت غزوة تبوك المنافقين بقدر ماتوهج فيها المعدن الطيب السخى للمؤمنين المجاهدين بأموالهم وأنفسهم يتسابقون فى ذلك ويتنافسون لم يدخر أبو بكر وعمر وعبد الرحمن بن عوف ولفيف من الصحابة وسعا فى انفاق ما يستطيعون وأكثر مما يستطيعون من أموالهم . غير أن عثمان بن عفان كان له القدح المعلى ! اذ جهز ثلثى الجيش بالبعير والافراس ثم زاد عليها الف دينار وضعها فى خشوع وفى رضا بين يدى رسول الله ، فدعا له عليه السلام : اللهم أرض عن عثمان ! وهل جزاء الاحسان آلا الاحسان ؟! وتغلبت غزوة تبوك على العسرة وعلى أعداء المسلمين معا وحققت أهدافها ! وتنزل قوله تعالى « لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والانصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ، ثم تاب عليهم ، أنه بهم رءوف رحيم » ١١٧ التوبة .

والحياة بطبيعتها مد وجزر ، ويسر وعسر ، الذي يهم الا نبطر النعمة ساعة اليسر ، وأن نصبر ونتكافل ساعة العسر . ثم الا يراد بالبذل الرياء أو المباهاة ، وانما وجه الله الذى نخشاه بالغيب .

وهذا هو بالدقة ماكان يشغل بال وضمير عثمان بن عفان .. أن يؤتى الناس من مال الله الذى آتاه ، وأن

يفرج كربتهم ، كما فعل فى خلافة أبى بكر ـ ومع عسرة وقحط طارئين ـ فتبرع عثمان للمسلمين باطايب الزاد والطعام التى حملتها له قافلة تجارية ، وقد تصادف أن وصلت اليه حينذاك على ظهور الف بعير !

ماذا بقى من الثناء على عثمان بن عفان ، وهو خليق به وهيهات أن نحصيه عددا ومواقف !

هل نذكر له يوم الحديبية حين أوفده رسولُ الله عليه السلام سفيرا يفاوض قريشا باسمه ، وغاب فى مكة أياما قلقة ، ثم قبل أن يعود رؤى أن يبايع المسلمون رسول الله « بيعة الرضوان » فلم ينسه نبى الله ، وانما ضرب عليه السلام شماله على يمينه قائلا : هذه يد عثمان! وهل منزلة غالية كهذه يمكن أن تغفلَ ؟!

كان عثمان بن عفان « قرآنيا » بمعنى الكلمة ! فقد تقدم أن النبى اختاره بين كتاب وحيه . ثم انه عاش من آداب الناس على قيام الليل الذين يتهجدون « ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعا » . وتواتر الرواة على أن عثمان بن عفان كان أولَ من قرأ كتاب الله كله فى ركعة واحدة .. تصوروا ! كما قيل انه نزل فيه وبسببه آيات من كتاب الله .

وحسب عثمان بن عفان فضلا ابديا جمعه للقرآن وتوحيده المصاحف ضبطا وهجاء فيما عرف بمصحف عثمان ..

ويقتل عثمان وهو يتلو فى مصحفه ، ويخر براسه ودمائه بين صفحاته الشريفة .. واللهم الطف بنا فيما جرت به المقادير .

على بن ابى طالب

ذات سنة قبيل البعثة المحمدية بقليل نزلت بقريش ازمة طاحنة أصابت الكثيرين فى معايشهم ، واضحت أشد وطأة على كاهل ابى طالب بن عبد المطلب لكثرة ابنائه . ولان محمد بن عبد الله مفطور على حسن النظر فى الامور ومعالجتها ، ولان نفسه نزاعة لصلة الرحم ولرد الجميل وللمروءة والتكافل ، فقد صح عزمه على ان يأخذ المبادرة . ذهب الى عمه الميسور العباس واتفق معه على المشاركة فى مواجهة الموقف للتخفيف عن أبى طالب . فليتكفل كل منهما بابن من ابناء ابى طالب وليكن جعفر من نصيب العباس ، وعلى من نصيب محمد !

وهكذا جاء على بن ابى طالب صبيا صغيراً واقام ببيت ابن عمه ، وانزله هو وزوجه خديجة منزلة الولد . انها فرصة عمر — فى باكورة العمر — قد اعطيها على ليحظى بالمكان ثم بالزمان ، فينجذب بالسمع والبصر والفؤاد ويذوب بالروح والجنان . « وما يلقاها الا ذو حظ عظيم » ٣٥ فصلت .

ففجاة يجرى من حول على بن ابى طالب فى هذا البيت شأن .. اى شأن ! وهو لصغر سنه لا يلحظ اول الامر بداياته ذات الرهبة والجلال ، وان كان حسبه ان امسى يعيش تلك الساعة اقرب مايكون الى مايضطرم ويتألق تحت هذا السقف المبارك .

تنزل ألوحي على محمد فتلقاه أول الامر بقلب واجف ونفس مضطربة . ومن البداهة ومن البشرية أن يرتاع محمد وقد القي الله عليه قولا ثقيلا ، وتأذن عز وجل أن يتم اتصال السماء والارض في شخص محمد الذي اصطفاه ربه نبيا ورسولا . وهرع محمد الى زوجه خديجة وحدثها بما رأى وسمع ، وهي بما تعهد فيه من خلق عظيم فريد وبما تحمله له من اكبار ومحبة وحنان تصدقه وتطمأنه وتقول له « أبشر يابن عم واثبت . فوالذي نفس خديجة بيده اني لارجو أن تكون نبي هذه الامة . والله لا يخزيك الله أبداً . انكَ لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتحمل الكل ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق » .

ويذهب الروع عن محمد ، ويتصلّ الوحي !

وعلى بن أبي طالب لايدرى شيئا عما يدور !

وتمضي الايام ، حتى كان ذات يوم دخل على بن أبي طالب على محمد وخديجة فشاهدهما يركعان ويسجدان ويرتلان بعض آيات مما أوحى الى محمد . فدهش الصبي ـ وكان في العاشرة من عمره ، ولكن فطنته وبصيرته مبكرتان ـ وسأل ابن عمه : يامحمد . . ماهذا ؟ قال عليه السلام : دين الله الذي اصطفى لنفسه وبعث به رسله ، فأدعوك الى الله وحده لا شريك له ، والى عبادته ، والى أن تكفر باللات والعزى ! فقال على : هذا امر لم أسمع به قبل اليوم ، فلست بقاض امرا حتى احدث به أبا طالب ! فكره رسول الله عليه السلام ان يفشي على سره قبل أن يستعلن أمره فقال له « ياعلى ! اذا لم تسلم فاكتم ! » فمكث على تلكَ الليلة حتى انشرح

صدره للاسلام ، فأصبح غاديا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال « لقد خلقني الله من غير أن يشاور أبا طالب ، فما حاجتي أنا الى مشاورته لأعبد الله ؟! » وأسلم علي بن ابي طالب كرم الله وجهه فكان أول صبي أسلم ، والثاني اسلاما بعد السيدة خديجة رضى الله عنها .

وانما استطردت بعض الشيء فيما تقدم شغفا به لذاته من ناحية ، ومن ناحية أخرى لبيان منزلة على بن أبي طالب . فهو ليس مجرد صحابى من خيرة وطليعة الصحابة ، ولكنه على وجه الخصوص نشأ فى بيت النبوة وجمعته برسول الله عليه السلام وشائج الدم وصلة القربي والمصاهرة . حتى أن النبى عليه الصلاة والسلام لما نزل قوله تعالى « انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت » ٣٣ الاحزاب دعى النبى عليا وزوجته فاطمة وابنيهما الحسن والحسين وجللهم بكساء وقال « اللهم هؤلاء أهل بيتى فاذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا » .

ولست أجد أبلغ فى التشبيه ـ والدقة أيضا ـ من واقعة أخرى جديرة بأن تروى هنا لبيان مكانة على بن أبى طالب ومنزلته عند رسول الله صلى الله عليه وسلم . اذ أنه عليه السلام لما غزا غزوة تبوك وخلف عليا فى أهله قال بعض الناس : مامنعه أن يخرج به الا أنه كره صحبته فبلغ ذلك القول عليا فذكره للنبى فقال له : يا رسول الله خرجت وخلفتنى ! فأجابه النبى عليه السلام : أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسي .. الا أنه لا نبى بعدى ؟!

والى جوار رسول الله عليه الصلاة والسلام في مكة ، وسنة بعد أخرى ، ينضج على بن أبى طالب ويشتد عوده ، ويراقب ويتعلم ، ويقبس من نور رسول الله ، ويمتلأ علما وحلما ، ويتصدر شباب المسلمين شجاعة وفروسية ، ورجاحة عقل ، وبلاغة وقوة حافظه ، وجرأة في الحق والدعوة . فلا عجب أن اكتسب وزن كبار الصحابة وهو بعد لم يكمل العشرين من عمره .

وعندما خطط النبى للهجرة من مكة الى المدينة ـ وعلى بن أبى طالب كان قد أتم الثالثة والعشرين من عمره ـ لم يأمن رسول الله ويطمأن قدر ما أمن واطمأن لشجاعة ومحبة رجلين : أبى بكر الصديق ليصحبه في رحلته ، وعلى بن أبى طالب ليتسجى برده الحضرمى الاخضر وينام في فراشه أثنـاء تلك الليلة الموعودة ، والمتآمرون يتلصصون من فرجة الى مكان نوم النبى فيرون هذا المسجى في الفراش فيحسبونه النبى فيقرون عينا انهم سوف يصبحونه بسيوفهم مثلما تواعدوا بينهم . فلما طلع عليهم الصبح ـ والله خير الماكرين ـ فاجأتهم خدعة نوم على بن أبى طالب في الفراش النبوى ، فكلت سيوفهم ونبت عن على بن أبى طالب لم تمس شعرة من رأسه . وعادوا يجرون أذيال الفشل في حين كان النبى وصاحبه قد اختبئا في غار ثور !

ولم يتريث على بن أبى طالب ولم يلبث في مكة الا ريثما ينفذ ما عهد به اليه النبى من أداء الودائع التى عليه للناس . وبادر على الى الهجرة ، فكان أول من هاجر بعد النبى عليه السلام وأبى بكر الصديق .

وهناك في المدينة المنورة ، وقد بدأت الدعوة عهدا

جديدا تشريعيا ونضاليا وسياسيا واجتماعيا ، واخذت تنطلق أعظم الانطلاق في جميع مناحى الحياة ، استهل النبى هذا العهد الجديد الواعد الموعود بالمآخـــاة بين أصحابه اثنين اثنين وبين المهاجرين والانصار . واختص النبى عليه السلام عليا بن أبى طالب بنفسه وقال له « أنت أخى فى الدنيا والآخرة » . وعلى بن ابى طالب يلازم نبيه وأخاه فى كل موقف مبهورا مؤمنا طائعا حبا فى الله ورسوله ، فلا اغلى عنده من كتاب الله وسنة رسوله .

وقد شهد علي بن أبى طالب المشاهد والغزوات كلها بدءا من غزوة بدر فيما عدا غزوة تبوك التى تقدم ذكرها وكم ابلى أحسن البلاء ببسالة منقطعة النظير ، ولا غرو فقد كان لواء النبى عليه السلام مع على بن أبى طـالب عادة . وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة .

وتأتي السنة العاشرة للهجرة وقد أكمل الله دينه واتم نعمته وتأذن رحيل خاتم النبيين الى الخالق البارىء الذى بعثه بالحق .

ويحم النبى حمى شديدة فيهتز مجتمـــع المدينة ، وتتعلق برسول الله عيون وقلوب المســلمين . كــان وجدانهم وقفا عليه . فاذا خرج اليهم ليصلى بهم هللوا وبرقت آمالهم بنور رؤيته « وكان يخرج مستندا الى علي بن أبى طالب عن يمينه والعباس عن يساره » . واذا احتجب عنهم عليه السلام ينهارون قلقا وجزعا ، حتى حم القضاء ولحق النبى بالرفيق الاعلى فــكانت القارعة التى عصفت بالجميع وزلزلتهم ، وكان ما كان من موقف عمر بن الخطاب وابى بكر الصديق مما فصلناه من

قبل ، ثم التفكير فيمن يبايعه المسلمون خليفة لرسول الله عليه السلام .

اين كان على بن ابى طالب يوم الخطب الافدح والفزع الاكبر والحزن الاوجع فى تاريخ البشرية ؟ ثم ترى هل حدثته نفسه بانه الاحق والاجدر بأن يبايعه الصحابة والمهاجرون والانصار خليفة لرسول الله ؟!

ولست والله قادرا ولا راغبا فى تصوير الوداع الحزين الرهيب الذى هو حريق فى القلب وغصة فى الحلق ، يكسر البال والقلم . كلما كتبت سطورا تستعيد هذا المشهد المهيب القاصم الذى انقطع معه وحى السماء ـ مشهد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ طويت السطور ومزقتها مثلما يمزقنى الاسى والعجز . فكيف بمن احاط به من اهله وأهل المدينة فى تلك الساعة .. عليه السلام ؟ كيف كان حال على بن ابى طالب والتياعه وقد غاب عنه رسول الله ، وابن عمه وصهره ، وكل شىء وخير فى حياته وصحبته ، وعماد اهل البيت الذى اظله ، وطهره الله تطهيرا ؟

ولكن رغم ذلك كان على على بن ابى طالب أن يتجلد ، وأن يتولى ـ مع العباس ـ غسل النبى عليه السلام ودفن جثمان سيد الخلق .

ثم كان عليه ايضا ان يتجلد ، وأن يتأمل الموقف والمصير . فهل حدثته نفسه بان يغدو هو اول خليفة لرسول الله ؟ احسب ان « حيثياته » ـ وهى قوية وموفورة ـ كانت حديث نفسه اليه ، وانها شدته الى هذا المنحى فى التفكير حول الخلافة ، لا طمعا ولا حتى طموحا ، ولكن تقديرا منه لقدرته على نيل هذا الشرف

وحمل هذه المسئولية . غير أنه تعين عليه في الوقت نفسه أن يضع في حسابه ثلاثة اعتبارات متصلة ببعضها البعض هي أحرى بالتعويل عليها وباحترامها والالتزام بها . هذه الاعتبارات هي مكانته ومكانة الآخرين من أصحاب رسول الله ، واتجاه « الرأى العام » في الموازنة والبيعة ، ثم ضرورة وحدة كلمة المؤمنين والمجتمع الاسلامي .

ان عليا بن أبى طالب يعبر عما ساوره وعما سلكه لا في هذا الموقف الحساس وحده بل عبر قضية الخلافة كلها ، وقد جاء تعبيره وافيا شافيا ، صريحا فصيحا . يشبع على بن أبى طالب فضول من سألوه يوما عن خفايا هذا المسلسل الذى تعاقب في خلافة رسول الله وموقعه منه ، فيقول باسهاب أورده كاملا لاهميته ، فهو كأنما ينهض « مذكرة ايضاحية » !

« أما أن يكون عندى عهد من النبى صلى الله عليه وسلم وآله وسلم فى ذلك فلا . والله لئن كنت أول من صدق به لا أكون أول من كذب عليه ! ولو كان عندى عهد من النبى فى ذلك ماتركت أخا بنى تيم بن مره « أبو بكر الصديق » وعمر بن الخطاب يقومان على منبره، ولقاتلتهما بيدى ولو لم أجد الا بردتى هذه ! ولكن رسول الله عليه الصلاة والسلام لم يقتل قتلا ولم يمت فجأة ، فمكث فى مرضه اياما وليالى .. يأتيه المؤذن فيؤذنه بالصلاة فيأمر أبا بكر فيصلى بالناس ، وهـو يرى مكانى . ولقد أرادت امرأة من نسائه « السيدةعائشة» لصرفه عن أبى بكر فأبى وغضب وقال « انكن صـواحب يوسف ! مروا أبا بكر فليصل بالناس ! » فلما قبض الله نبيه عليه السلام نظرنا فى أمورنا فاخترنا لدنيانا مـن

رضيه عليه السلام لديننا . ولان الصلاة أعظم شعار في الاسلام وقوام الدين ، بايعنا أبا بكر ، فكان أهلا لذلك . لم يختلف عليه منا اثنان ، ولم يشهد بعضنا على بعض ، ولم نقطع البراءة . فأديت الى ابى بكر حقه ، وعرفت له طاعته ، وغزوت معه في جنوده . وكنت آخذ اذا اعطاني ، واغزو اذا أغزاني . وأضرب بين يديه الحدود بسوطي . فلما قبض ولاها عمر بن الخطاب ، فأخذ بسنة صاحبه وما تفرق من أمره . فبايعنا عمر ، لم يختلف عليه منا اثنان ، ولم يشهد بعضنا على بعض ، فلم نقطع البراءة . فأديت الى عمر حقه ، وعرفت له طاعته ، وغزوت معه في جنوده ، وكنت آخذ اذا اعطاني . واغزو اذا اغزاني ، واضرب بين يديه الحدود بسوطي . فلما قبض ذكرت في نفسي قرابتي وسابقتي وفضلي . وانا اظن انه لم يعدل بي ، ولكن خشي الا يعمل الخليفة بعده ذنبا الا لحقه في قبره ، فاخرج منها نفسه وولده ! ولو كانت محاباة منه لآثر ولده . وانما برئ منها الى رهط من قريش ستة انا احدهم . فلما اجتمع الرهط تذكرت في نفسي قرابتي وسابقتي وانا اظن أن لن يعدلوا بي . فأخذ عبد الرحمن بن عوف مواثيقنا على أن نسمع ونطيع لمن ولاه الله عز وجل امرنا . ثم ضرب يده على يد عثمان ! فنظرت في أمري فاذا طاعتي قد سبقت بيعتي ، واذا ميثاقي قد اخذ لغيري ! فبايعنا عثمان . وأديت الى عثمان حقه ، وعرفت له طاعته ، وغزوت معه في جيوشه ، فكنت آخذ اذا اعطاني واغزو اذا اغزاني ، واضرب بين يديه الحدود بسوطي . فلما اصيب عثمان نظرت في أمري : فاذا الخليفتان اللذان

أخذاها بعهد رسول الله اليهما فى الصلاة قد مضيا ، وهذا الذى اخذ له ميثاقنا قد أصيب ، فبايعنى أهل هذين المصرين » !

رووددت أن اقف عند حدود هذه الكلمات النيرة المعبرة الصادرة عن على بن ابى طالب ، فلا أتعداها ولا استطرد بعدها . بل تمنيت أصلا ـ وما كل مايتمنى المرء يدركه ـ ان لو كانت فترة خلافة على بن ابى طالب كرم الله وجهه واحدة من أزهى عهود الخلافة الراشدة واكثرها استقرارا ، وهو خليق بتحقيق ذلك فى ظروف غير تلك الظروف . ولكن خلافته ـ للاسف الشديد ـ قامت والفتنة منطلقة من عقالها ، وورثت تركة التوتر والقلاقل التى خلفتها السنوات والشهور الاخيرة من خـلافة عثمان ، وسيقت الى ممارسات ماكان يبغيها على بن ابى طالب او يرتضى تصعيدها .. بل ان المواجهات المسلحة قد تفجرت على أوسع واوجع مدى . ولبست الاطماع والمتاجرة والاحقاد « قميص عثمان » تلوح به بغيـــــة الاستغلال واثارة الخواطر المبلبلة ، وبقصد تحويل قطرات الدماء الى أنهار من الدماء . لقد ظلموا عثمان بن عفان عشر مرات ، ثم ظلموا قميص عثمان مائة مرة .. فرحم الله عثمان ، وعفا الله عن قميص عثمان !

عهد خلافة على بن ابى طالب اذن اختلط فيه الحابل بالنابل ، والمغرضون بحسنى النية ، والعصبية القبائلية بالشهامة العربية والدينية . وكأنما ـ استغفر الله ـ خفيت المواقع السوية الصائبة عن عيون العديدين من خيرة المسلمين أو شبهت لهم !

أوليس مما يثير العجب والذهول وتعض عليه الاصابع

أسفا ومرارة أن طلحة والزبير ــ وهمــا من العشرة المبشرين بالجنة ــ بعد أن كانا من أقرب الناس الى علي ابن ابى طالب وفى طليعة من بايعوه بالخلافة .. ينقلبون طلبا للثار من دم عثمان ؟! فيمسون من حيث لا يدرون « عزوة » المعسكر المضاد لامير المؤمنين على بن أبى طالب، حتى اذا التقى الجمعان « يوم الجمل » وقعت الواقعة .. وواحر قلباه من يوم الجمل ، وياحسرة على العباد !
وكان زهير بن أبى سلمى فى جاهليته استشف بالذات من ضمير الغيب هذه الحرب الذميمة غير المفهــــومة التى « تحمل فتتئم » وتأتى « بغلمان اشأم كلهم » فوصفها فى معلقته الشهيرة أدق وصف .

وما الحرب الا ما علمتم وذقتمـــو
وما هو عنهــا بالحديث المرجم
متى تبعثــــوها تبعثـوها ذميمة
فتضرى اذا ضريتموها فتضرم

ويروى أن عليا لما سمع بمسير طلحة والزبير وعائشة وكتائبهم لحربه قال : والله ما انكروا على شيئا منكرا ، ولا استأثرت بمال ، ولا قلت بهوى . بايعونى فنكثوا بيعتي قبل أن يعلموا جورى من عدلى . وانى لراض بحجة الله عليهم وعلمه فيهم . ومع هذا فانى معــــذر اليهم وداع لهم فان قبلوا فالتوبة مقبولة ، والحـــق اولى » .
ولما علم على بن أبى طالب بمقتل طلحة والزبير فى المعركة بكاهما وقال : انى لارجو أن أكون أنا وعثمــان وطلحة والزبير ممن قال الله تعالى فيهم « ونزعنا مافى صدورهم من غل اخوانا على سرر متقابلين » ٤٧ الحجر .

ويروى أن قاتل الزبير بعث بسيف الزبير الى علي فقال علي : ان هذا سيف طالما فرج الكرب عن رسول الله . ثم أضاف بشروا قاتل ابن صفية « الزبير » بالنار !

ولم تكن واقعة يوم الجمل آخر المآسي بل انتقلت المآسي من العراق الى الشام حيث كان معاوية بن أبي سفيان يؤسس بالتمرد والعصيان اللبنات الاولى للملك يحلم به . فاشتعلت معركة مروعة في صفين بين علي ومعاوية . وكان عمار بن ياسر يقاتل في صف علي بن أبي طالب فقتله جنود معاوية . ويحبس التاريخ أنفاسه فقد « وقع المحظور » وتبين الرشد من الغي في أحد أشهر نبوءات متواترة عن النبي صلى الله عليه وسلم حين خاطب عمارا قائلا له « ويح ابن سمية ! تقتلك الفئة الباغية ! »

ولما طالت المعركة رفع أهل الشام المصاحف وتداعوا الى الصلح . دعوا الى تحكيم استعد له معاوية بمكره وخداعه ومؤامرته . خلال « الهدنة » التي وافق علي عليها ، اختار أبا موسى الاشعري حكما ، كما اختار معاوية عمرو بن العاص . واتفق الحكمان على خلع علي ومعاوية ! تقدم أبو موسى فخلع عليا ، واعقبه عمرو فنكث وبايع معاوية !

على أن كارثة التحكيم لم تتجسد في هذه الخدعة وحدها بل فيما هو أشد ، اذ أن فريقا من اتباع علي لم يرضوا عن مبدأ التحكيم ، ونادوا بأن « لا حكم الا لله » وخرجوا على علي بن أبي طالب وتألبوا عليه ، وهم هؤلاء الذين عرفوا باسم « الخوارج » فباتوا الد الاعداء ،

يتربصون بعلى الدوائر ويدبرون لقتله ، حتى أن هموم على بن أبى طالب وغثيانه واشجانه أطبقت عليه فقال « اللهم قد سئمتهم وسئموني ، فارحمهم منى وارحمني منهم » ! وكانما يتعجل ويتقبل بالرضاء ماروى عن رسول الله عليه السلام من أنه قال : ياعلى ! من أشقى الاولين والآخرين ؟ قال على : الله ورسوله أعلم ! قال عليه السلام : اشقى الاولين عاقر الناقة ، واشقى الاخرين الذى يطعنك باعلى ! .. واشار الى جبهته ..

تربص به عدو الله عبد الرحمن بن ملجم — احد اقطاب الخوارج — فضرب عليا بالسيف فى وجهه فأصاب وجهه وجبهته . وتوفى — كرم الله وجهه — فى التاسع عشر من رمضان فى سنة اربعين هجرية ، توفى فى مثل السن التى قبض فيها رسول الله عليه الصلاة والسلام وابو بكر وعمر رضى الله عنهما : ٦٣ سنة !

رضى الله عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب آخر الخلفاء الراشدين . بقدر ما كان حظه من الاسلام مبكرا ومديدا وجليلا بقدر ما كان حظه من الخلافة متاخرا وقليلا !

الزبير وطلحة

ولماذا لا اجمع بينهما فى هذه السطور ، وأكتب عنهما معا ؟ أو لم يسلما معا فى عمر متقارب ، وكان أحدهما خامس من أسلم ، وثانيهما ثامن المسلمين ؟! الم يهاجرا معا الى المدينة المنورة ، وحالما بلغاها آخى بينهما رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهما اخوان بالاسـلام والهجرة ؟ الم يقاتلا معا والى جوار رسول الله كل الغزوات فكانا لفرط ايمانهما وشجاعتهما معـا محل ثقة واعجاب النبى عليه السلام ؟ الم « يكن » النبى أحدهما فى غزوة ، و « كنى » اخاه فى غزوة تالية ، فسمى الاول « الحوارى » وسمى الآخر « الفياض » ؟ الم يكن الزبير وطلحة ـ او طلحة والزبير ـ بين الذين نزل فيهم قوله تعالى « فبشر عبادى الذين يستمعون القول فيتبعون احسنه » وقوله عز وجل « والذين آمنوا بالله ورسله اولئك هم الصديقون » وقوله سـبحانه « محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم » ؟ الم يجتمع اسمهما معا فى اعز قوائم البشرى والخلود ، فكانا من العشرة المبشرين بالجنة ؟ ثم كانا معا بين الستة أصحاب الشورى الذين سماهم امير المؤمنين عمر بن الخطاب عندما حضرته المنية ، اذ طالبه من حوله بأن يستخلف من يراه احرى واوجب بالاستخلاف اميرا على المؤمنين مثلما فعل ابو بكر فى استخلاف عمر ، فابى

رضي الله عنه وقال : لا أتحملها حيا وميتا ! ثم ارتأى الحل البديل في أن يجعل الامر شورى في ستة هم علي وعثمان وطلحة والزبير وعبـــد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص يرشحون ويختارون من بينهم أمير المؤمنين الذي يجمعون عليه ، فكان أن فوضــــوا عبد الرحمن بن عوف فزكى عثمان بن عفان أميرا للمؤمنين ثم ألم يكونا معا من أقرب الصحابة الى علي بن أبي طالب ثم فجأة انشقا عليه معا ولزما ركب السيدة عائشة ، وقد شق رغم عليهم دم عثمان ؟! ثم أخيرا ألم يقتلا معا ، وذهبا كأكرم شهيدين يوم الجمل بالبصرة ، اذ اختلطت وتردت المسائل وبلغت القلوب الحناجر ، وعـرف علي ابن أبي طالب سبقهما وقدرهما وقال ماقال مما سلفت الاشارة اليه ؟ .

وبعد ..

فأما الزبير بن العوام فهو من أمجد الصحابة حسبا ونسبا ، وكان من أعظم بواعث اعتزازه قرابته الوثيقة برسول الله عليه الصلاة والسلام . ولا يخفى أن العرب درجوا وولعوا برواية وتتبع ما نسميه الآن « شـــجرة العائلة » . قال الزبير يوما لابنه عبد الله « يابني ! كانت عندي أمك « أسماء ابنة أبي بكر » وعند رســـول الله عليـه الصـلاة والسـلام خالتـك « السيدة عائشة » . وبيني وبينه من القرابة ماعلمت . عمة أبي أم حبيبة بنت أسد جدته . وامي « صفية بنت عبد المطلب » عمته . وام آمنة بنت وهب بن عبد مناف وجدتي هالة بنت وهب بن عبد مناف . وزوجته خديجة بنت خويلد عمتي » .

يقول الله سبحانه فى كتابه العزيز « واذكروا اذ انتم قليل مستضعفون فى الارض تخافون أن يتخطفكم الناس فأواكم وايدكم بنصره ورزقكم من الطيبـــات لعلـكم تشكرون » ٢٦ الانفال .

ففى أول البعثة الاســـلامية كان المسلمون قليلين مستضعفين فى مكة ، تحملوا العذاب والعنــت والاذى وصبروا ، وماشهر احد منهم سيفا الا الزبير بن العوام فقد كان أول من سل سيفا فى سبيل الله آنذاك . سمع « شائعة » بأن النبى قد احتجزه المشركون ، فســل الزبير سيفه ومضى ليذود عن النبى ، فطمأنه عليه السلام ودعا له ولسيفه .

مثل هذا الصحابى المقدام ماكانت لتفوته غزوة فى سبيل الله . شهد بدرا ونهض بواجبه فى كل الغزوات . وكان يوم الاحزاب يومه الاغر ، ففيه اسبغ عليه رسول الله عليه السلام شرف الصفة التى وصفه بها . ذلك أنه عليه السلام نادى أصحابه ثلاثا فلا يجيبه فى الثلاث كلها غير الزبير ، فقال عليه السلام : ان لكل نبى حواريا، وحوارى الزبير » .

ويوم فتح مكة جعل النبى عليه السلام الزبير بن العوام على الجناح الايسر لجيشه ، وخالد بن الوليد على الجناح الايمن ، وامر بدخول مكة دون سفك دماء ، فقد اضحت مكة كالتفاحة التى نضجت ، واذنت لربها وحقت . وتم نصر الله والفتح .

فأما « توامه » طلحة بن عبيد الله فقد كان قرين الزبير فى الشجاعة والاقدام والغيرة على دين الله والذود عنه . واذا كانت غزوة بدر وحدها قد فاتته لكون النبي عليه

السلام أوفده هو وسعيد بن زيد عيونا يتحسسان قبيلها الانباء « وهى مهمة قتالية فى كل الخطط والمعـــايير القديمة والحديثة » واثبت عليه الســــلام أجرهمـــا وسهمهما ، وعدا من البدريين ، فان يوم غزوة أحـد كان — على حد تعبير أبى بكر الصديق — يوما كله لطلحة ابن عبيد الله ! وفى جملة كتب السيرة أن « طلحة رفع النبى عليه الصلاة والسلام يومئذ وقد وقع فى حفرة ، وبرك له وحمله على ظهره بسلاحه حتى صعد به الى الصخرة ، كما قاتل دونه ووقاه بيده ، وأصاب طلحة يوم أحد بضع وثلاثون أو بضع وسبعون بين طعنة وضربة ورمية » .

وسماه النبى عليه السلام « طلحة الجود » و « طلحة الخير » و « طلحة الفياض » .

كان من خطباء الصحابة وأثريائهم وكرمائهم .

وروايات كرمه وجوده وسخائه تفوق الوصـــف ، ومحصلتها أنه عاش أكثر خلق الله عطاء من جـزيل ماله .

كان برا بأهله من بنى تيم وبالناس جميعا ، حتى لقد روى أنه باع أرضا له بسبعمائة الف درهم ، فلما حملوا اليه هذه الاموال قال : ان رجلا تبيت هذه عنده فى بيته لا يدرى مايطرقه من أمر الله ، فبات ورسله تختلف بها وتنفقها على فقراء الاسر فى المدينة فما بقى عنده منها درهم ! هكذا .. وطوبى له !

وصدق رسول الله عليه الصلاة والسلام : طلحـة الجود .. الفياض !

وفى كل ما قرأت عن القرينين الزبير بن العوام وطلحة

ابن عبيد الله وجدت تشابها اغراني بذكرهما معا هنا .
تشابها فى العديد من السجايا ، بل كادت تتشابه صفحات قضائهما وقدرهما ..
لم يختلفا الا اختلافا واحدا طريفا .
كان للاثنين أبناء كثيرون ، فما وجه الاختلاف اذن ؟
قال الزبير بن العوام : ان طلحة بن عبيد الله التيمى يسمى بنيه بأسماء الانبياء « محمد « السجاد » وعمران ، وموسى ، ويعقوب ، واسماعيل ، واسحاق ، وزكريا ، ويوسف ، وعيسى ، ويحيى ، وصالح » وقد علم أن لانبى بعد محمد . وانى أسمى بنيى بأسماء الشهداء لعلهم أن يستشهدوا !
فقد سمى الزبير بن العوام من ابنائه عبد الله « تيمنا » بالشهيد عبد الله بن جحش ، والمنذر بالمنذر بن عمرو : وعروة بعروة بن مسعود ، وحمزة بحمزة بن عبد المطلب ، وجعفر بجعفر بن أبى طالب ، ومصعبا بمصعب بن عمير ، وعبيدة بعبيدة بن الحارث ، وخالد بخالد بن سعيد ، وعمرا بعمرو بن سعيد بن العاص !
ورضى الله عن الاخوين اللذين هما على سرر متقابلين .. الحوارى والفياض !

ابو عبيدة بن الجراح

المسافات البعيدة التى قطعها أبو عبيدة بن الجراح جهادا فى سبيل الله قد لاتعد أطول ما قطع صحابى من مسافات ، ولكن لست أدرى لماذا استرعت انتباهى واستلفتت نظرى معه هو بالتخصيص ، وشهدت فيهما قدرة له خارقة مميزة ، ودأبا لا يلوى على شىء ، وقوة تحمل وصبر ، وسجايا تحلت بها هذه الشخصية العذبة المحببة المحتسبة ؟! وأوشكت أن أقيس واحصى – لدى الاطلس والخرائط والآلة الحاسبة – المئات من الاميال التى ذرعها أبو عبيدة لايكل ولا يمل . فهو يهاجر مع من هاجر من مكة الى الحبشة لفترة يعود بعدها مع العائدين . ثم يهاجر من مكة الى المدينة . ثم يشارك فى الغزوات من بدر حتى تبوك . ثم هو فى طليعة من كان يبعث بهم النبى عليه الصلاة والسلام على رأس السرايا يدعو الى الله « ويمشط » الفلول . ثم يؤمره أبو بكر الصديق على الجيوش لفتح الشام ومقاتلة الروم فيستجيب هذا الصحابى الرقيق القلب المرهف الحس القوى الايمان الشديد العزم ويبلى احسن البلاء . ثم يتبادل وخالد ابن الوليد امارة الجيش وامارة اللواء خلال الفترة الاخيرة من خلافة أبى بكر والفترة الاولى من خلافة عمر . وينهض بالاعباء فيسير من بلد الى بلد وينتقل من نصر الى نصر . يمضى الى اليرموك فلا تستعصى عليه وعلى جيش الاسلام

والايمان . ويحاصر ثم يقتحم دمشق العاصمة الحصينة ثم حمص ثم حلب ثم انطاكية فشمال الشام وجنوب قلقية وسورية حتى يحاط بهرقل وجنوده من كل مكان فيحمل تاجه المهترىء المهيض ويلوذ بالفرار الى القسطنطينية ، وقد دانت سوريا كلها لجيوش المسلمين ودخلت فى دين الله افواجا .

نعم ، لست أدرى لماذا لفتتنى « مسافات » ابى عبيدة وكانت المدخل فى تناوله مع أنها ليست حكرا عليه ، ولا كانت اسطع مافى خصاله الباهرة ؟ ربما سبقت الى قلمى لانه كان اول كبار الفاتحين المسلمين المبعوثين الى ابعد نقطة من حدود الجزيرة العربية فى السنوات الاولى للهجرة ، ربما لاننى اذ رحت اقرأ عنه وأتتبعه خطوة خطوة لهثت وراءه بأنفاس تضطرم تقديرا واعجابا او لعل الارجح أن تسليط الاضواء على حكاية المسافات وما حولها جاء عفويا ومن قضاء الله وقدره ، فانا اكتبه وابدأ به لانه مكتوب على أن افعل وان تكون هذه الشخصية المثالية « المتطرفة » فى التسليم بقضاء الله والخضوع المطلق لقدره هى التى قدر لى معها ان أتنبه الى هذه التحديات التى قامت بين الاولين وبين المسافات والتى كانت الغلبة فيها للاولين !

كيف كان هؤلاء الابطال المغاوير من الرعيل الاسلامى الاول ؟ اى نوعية شامخة من الرجال مثلوا ، ومن أى معدن كريم سووا بشرا ؟ أين فى الناس مثل هذا الايمان المرهف الملهم المتدفق ، وتلك الارادة التى صيغت من العزم والتوكل فاضحت حديدية ؟ كيف الى هذا المدى نذروا انفسهم وجهادهم وخطاهم لله رب العالمين ،

لا يبالون باى عناء وفي اى زمن يقطعون المسافات ؟ يقطعونها في ايام او في شهور ، ولكنهم يصلون وباصرار !

هل نقارن بين مسافاتهم ومسافاتنا ، وان بينهما لمساحات ومسافات حقا ! أم بين وسائلهم ووسائلنا ، فهم ينحملونها على الاقدام او فوق ظهور البعير او صهوات الجياد ، ونحن بالسيارات المكيفة والطائرات النفاثة وكل ما تشمله الاشارة القرآنية المعجزة «ويخلق ما لا تعلمون » ؟ أم بين أسبابهم فيها ـ كمثل أبى عبيدة ـ وأسبابنا حيث نطير ابتغاء متعة وترويح وترفيه ، أو لعرض زائل وتنمية ثروة وعقد صفقة ، أو للتراشق بالمعارك الكلامية والقاء خطب لا تصد ولا ترد !

صحيح ان لهم زمانهم ولنا زماننا ، وصحيح أن هذه ليست مناسبة للحط من شأننا والزراية بحالنا فقد توفر لنا المعاذير او لاتوفر .. نسأل الله أن يكلأنا بمغفرته ورحمته . صحيح « لكل زمان دولة ورجال » ولكن صحيح أيضا أن مايمثله هؤلاء الرجال الافذاذ الميامين من صحابة النبى عليه السلام شيء كندى الفجر براءة وطهرا ، وكفلق الاصباح نضارة ونورا ، وكالجبال الراسيات رسوخا وثباتا ، وكالرياح المرسلة قوة وانطلاقا ، وكاسمى ماخلق له الانسان من فضائل ونبالة ..

ثم ماذا نقول فى أبى عبيدة بن الجراح الذى كان رجلا اى رجل ؟

اى ثناء أبلغ من ثناء رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ .

عندما جاء اهل بحران وسألوا النبى عليه السلام أن يبعث معهم أمينه قال عن أبى عبيدة كلمة لا تعد لها كنوز الارض . قال « سابعث عليكم امينا حق امين » . وكانت جموع الصحابة حاضرة فتمنى كل أمرىء منهم أن تصيبه هذه الكلمة ، وان يقع عليه الاختيار . واختار النبى . بعث معهم ابا عبيدة ، وقال عليه السلام « لكل أمة أمين ، وأميننا ايتها الامة أبو عبيدة بن الجراح » .

ثم ماذا ؟

سئلت عائشة رضى الله عنها اى اصحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام كان آحب اليه ؟ قالت : ابو بكر قيل : ثم من ؟ قالت : ابو عبيدة !

ومن هنا وبعد ان مات رسول الله عليه السلام وقبل ان يبايع المهاجرون والانصار ابا بكر بالخلافة قال الصديق لاصحابه : قد رضيت لكم احد الرجلين عمر بن الخطاب وابا عبيدة ! ..

ومن هنا أيضا كان هو المرشح الاول والاوحد لامير المؤمنين عمر بن الخطاب لو مات عمر فى حياة أبى عبيدة ، ولكن أمين هذه الامة مات فى حياة عمر وخلافته الذى كانت امنية من اعز امنياته ـ كما عبر عن ذلك صراحة ـ ان تمتلأ الامة برجال من امثال أبى عبيدة ! .. وياليتها تمتلأ !

ولان المعايير فى ذلك الزمن الصبوح الامثل أن الرجل تزينه اعماله ومواقفه وليس اى شىء آخر ، فقد قيل عن ابى عبيدة انه « مارؤى اهتم احسن واصبح منه » . ولم يكن أبو عبيدة أهتم فى صباه ولا شبابه ، ولا كان ثمة علة فى اسنانه حتى تسقط بعضها وهو ابن نيف

واربعين سنة . أنما فقدها آنذاك في موقف فداء وحب لنبي الامة ورسول العالمين ، اذ انتزع يوم غزوة أحد من جبهته الشريفة حلقتي المغفر بثنيتيه « سنتيه » فسقطتا بينما يرتفع هو بحق الي طبقة العشرة المبشرين بالجنة .

والجنة ـ نعمت الجنة ـ تحت ظلال السيوف وفي حومة الجهاد في سبيل الله . وقد كان أبو عبيدة ـ كما تقدم القول ـ في طليعة المجاهدين بل أمير أمــــراء الفتوح . ولانه كان من المؤمنين العابدين المستغفرين الذين لهم قدم صدق عند ربهم ودودا وداعية الى الله بليغا ، فقد أثر عنه أنه كان يسير في عساكره ويقول : ألا رب مبيض لثيابه مدنس لدينه ! الا رب مكرم لنفسه وهو لها مهيض ! بادروا السيئات القديمات بالحسنات الحادثات ، فلو ان أحدكم عمل من السيئات مابينه وبين السماء ثم تاب وعمل حسنة لعلت فوق ذلك كله !

وكان حييا حصيفا . ورد كتاب عمر بن الخطاب الى ابي عبيدة بعزل خالد بن الوليد وتوليته هو امارة الجيوش وهم يحاصرون دمشق فأخفاه عنه وكتمه حتى فتحت دمشق ثم اعلمه به بعدها بأيام ! وينقل ابن كـثير في « البداية والنهاية » تحوار بينهما ساعة العلم . فيقول خالد « يرحمك الله ! مامنعك من أن تعلمني حين جاءك ؟ » ويجيبه أبو عبيدة « انى كرهت أن أكسر عليك حربك ! وما سلطان الدنيا اريد ولا للدنيا اعمل . وما ترى سيصير الى زوال وانقطاع . وانما نحن اخوان . وما يضر الرجل أن يليه أخوه في دينه ودنياه » وهكذا ..

فى كل عبارة راس حكمة ، وعفة نفس ، وسمو خلق !

ولقد المحت في البداية الى « تطرف » ابى عبيدة فى التسليم بقضاء الله وقدره والخضوع له ، وتجلت هذه الصفة تماما فى خاتمة حياته . فلقد انتشر الطاعون بين قرية عمواس حيث كان يعسكر جند أبى عبيدة بين الرملة وبيت المقدس فى فلسطين . فلما أبى عمر بن الخطاب ان يحل على قرية عمواس قال ابو عبيدة بصراحته وتلقائيته : أفرار من قدر الله ياعمر ؟ فأجابه عمر « لو قالها غيرك يا أبا عبيدة ؟! نعم ! فرارا من قدر الله الى قدر الله » ! وأفتى عبد الرحمن بن عوف بحديث سمعه من رسول الله عليه السلام قال فيه « اذا سمعتم بهذا الوباء ببلد فلا تقدموا عليه ، واذا وقع وأنتم به فلا تخرجوا فرارا منه » .. وكما نرى فهذا الحديث الشريف آية فى أصول الحجر الصحى . بل ان عمرا عندما رغب فى أن يدع ابو عبيدة قرية عمواس وشأنها تدرع بحاجته اليه وكتب يستدعيه . بيد أن أبا عبيدة القابض على قدر الله برضاء وخشوع حتى ولو بدا كأنه يقبض على الجمر اجاب عمر بن الخطاب قائلا : « انى فى جند من المسلمين لا أجد بنفسى رغبة عنهم ، فلست أريد فراقهم حتى يقضى الله فى وفيهم أمره وقضائه ؛ فحللنى من عزمتك يا أمير المؤمنين ودعنى فى جندى »!

هنا فقط لم يشأ ابو عبيدة ان يقطع المسافات .. وما تشاءون الا أن يشاء الله ! وطالع عمر هذا الرد والدموع تطفر من عينيه كأنه يطلع على المنية تنشب

اظفارها فى ابى عبيدة . وان هى الا أيام قلائل حتى كان طاعون عمواس بفلسطين قد قضي على أبى عبيدة وخمسة وعشرين الفا ماتوا معه شهداء .

ترى كم بلغ عدد شهداء فلسطين للآن ؟ وكيف لا يتوسدون قلوبنا ويستثيرون ارواحنا وفيهم امين هذه الامة ؟!

سعد بن ابى وقاص

كان له من اسمه نصيب وأى نصيب . هو سعد ، وهو على موعد متصل مع السعد ومع السبق ! واذا كان الصحابة قد عرفوا بالشجاعة وتحلوا بها وابدوا من ضروبها ماتيسر لهم ، فهذا الصحابى صنعته الشجاعة مبكرا وخرطته وانضجته . كأنها اختارته واختارت له ، وأهلته وكان أهلا لها . ولانها شجاعة ملهمة بالسجية ، زاخرة مطهرة بالايمان ، محظوظة بنجمه السعيد ، فقد نما وعلا بها سعد بن أبى وقاص كأنما كتبت له قدره وتاريخه ومجده .

فى سن جد مناسبة للتفتح ولنضارة وحماسة الاستهلال هى سن السابعة عشر ، أوعده السعد ان يغدو أحد السبعة السابقين بالاسلام ، وأحد العشرة المبشرين بالجنة . ان الله جلت مشيئته أراد له الخير وهو بعد غض الاهاب يوشك أن يستطلع فجر الشباب ، ثم أراد به الخير حين أقترن اسمه بواحدة من أهم وأشهر المعارك والانتصارات الفاصلة فى تاريخ ومصير الاسلام ، وسعد فى أوج الرجولة .

فى أية مرحلة أطلق على هذا الصحابى الجسور لقب « فارس الاسلام » ؟ لست أدرى على وجه التحقيق ولا المراجع تحدد تماما . بيد أن جسارته وفروسيته كانتا باكرتين بالفعل وبحساب الزمن . ذلك انه مجمع على كونه

أول من رمى سهما وأسال دما فى الاسلام قبل أن يكتب على المسلمين القتال ، وقبل المواجهات المسلحة والشاملة قبل غزوة بدر . فقد اختير سعد بن أبى وقاص فارسا شابا بين سرية برأسها عبيدة بن الحارث بعث بها رسول الله عليه الصلاة والسلام الى ماء بالحجاز فى وادى رابغ . وهناك التقوا بجماعة من قريش يقودها « شيطان المشركين » آنذاك أبو سفيان بشحمه ولحمه وبحقــده ولدده . ورغم ذلك فيلوح أن كلا من الجمعين تجنب الاخر ، وانسحبا دون قتال أو رمية رمح الا ماكان من عنفوان سعد بن أبى وقاص الذى لم يتمالك نفسه ولم يحجم اربه فأطلق سهمه الذى جرح من جرح دون أن « يتدهور » الموقف الى أكثر من ذلك ، وليظل موضــع اعتزازه قوله « انى لاول رجل من العرب رمى بسهم فى سبيل الله » .

ثم كانت « بدر » وما أدراك ماصــولة وروعة بدر ونضالها وأبطالها ، وكان سعد فى مقعد صدق منها . ثم كانت غزوة أحد وثبات المؤمنين الراسخين حــول رسول الله عليه الصلاة والسلام وما قيل لسعد يومئذ وممن ؟ من رسول الله عليه السلام « ارم فداك أبى وامى أيها الغلام الحزور . اللهم سدد رميته واجب دعوته » ! وكأنما كان سعد من أرضى الناس وأسعدهم بصفقة العمر الباقية « ان الله اشترى من المؤمنــين انفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى ســبيل الله » ١١١ التوبة و « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وان الله على نصرهم لقدير » ٣٩ الحج . وكأنما كانت لاحاديث النبى عليه السلام حول الجهاد فى سبيل الله

مذاق خاص فى نفس سعد المؤمنة المتوثبة الباسلة .
وهو يرنو الى هذه الكلمات الشريفة ويتفيأ رياضها ويستن بها « رباط يوم فى سبيل الله خير من الدنيا وما فيها . والروحة يروحها العبد فى سبيل الله والغدوة خير من الدنيا وما عليها » . « ما اغبرت قدما عبد فى سبيل الله فتمسه النار » . « سئل رسول الله عليه السلام اى العمل افضل ؟ قال : ايمان بالله ورسوله . قيل ثم ماذا ؟ قال . الجهاد فى سبيل الله » « مثل المجاهد فى سبيل الله كمثل الصائم القائم القانت بآيات الله لا يفتر عن صلاة ولا صيام حتى يرجع المجاهد فى سبيل الله » .

ومن المقاتلين الكماة الرماة من لا شبهة فى تفوقه القتالى ، ولكن عندما يجد الجد ويحزب الامر ويجتمع اهل الرأى والشورى من اجل تزكية من يزكون لقيادة الرجال ولحمل المسئولية فى مهمة قتالية فانه لا يرد على خاطرهم ولا يطوف اسمه ببالهم ، لا انتقاصا من شجاعته بل لان الشجاعة واحدة من صفات عديدة قد لا يتوفر بعضها فيه . فالقائد لابد له من الشجاعة والاستقامة ، والشخصية ، والثقة بالنفس ، وحدة الذكاء ، ومعرفة وتقدير الرجال ، واتخاذ القرارات ، وفى كلمة واحدة . . موهبة القيادة . وقد اجتمعت هذه الصفات لسعد بن ابى وقاص .

ومن هنا فعندما صح عزم امير المؤمنين عمر بن الخطاب — رضى الله عنه وأرضاه — على قتال الفرس وكانوا يحتلون العراق ويختالون فيها ، ويحشدون جيوشهم ، ورأى عمر الا مندوحة من المواجهة واقسم « والله

لاضربن ملوك العجم بملوك العرب » وأعد الجيش العربى الاسلامى الذى سيسيره الى هذه المهمة المقدسة ، وبقى قرار اختيار الرجل الذى يؤمره على رأس جيش المسلمين لتأديب الفرس وفتح العراق ، فان أهل الحل والعقد والرأى الذين شاورهم عمر هتفوا باسم القائد فى نفس واحد : « سعد بن مالك بن ابى وقاص ! انه الاسد فى براثنه ! » وكان نعم الرأى الصائب .

نعم ، فمثلما قيل بحق أنه فى الليلة الظلماء يفتقد البدر ويطلب ، ففى الحرب وقراع ألقنا والرماح والسيوف والهول وعظائم الامور والمصير يلتمس القائد ويندب . ولم يتردد عمر بن الخطاب فهو يعرف قدر سعد ، فانه خير من ينوب عن أمير المؤمنين فى قيادة هذا الجيش وحمل امانة هذه المهمة الجسيمة ، فعهد اليه بها على الفور واوصاه .

وكانت « القادسية » هى الهدف الاول لسعد وجيوشه التى سار بها من المدينة المنورة وهى قرابة اربعة آلاف جندى ، ثم بلغت عشرة أضعافها « اربعين الفا تقريبا » بانضمام من لحقوا بها من المدينة والجزيرة العربية ومن قوات المسلمين بالشام .

شهور طويلة من التأهب والاستعداد على مشارف القادسية ، وجولات عديدة لوفود المبعوثين بالرسائل والحوار بين الفرس والعرب . فمن ناحية يقف كسرى الفرس يزدجرد وقائده المهيب رستم الذى لم يهزم قط ومعهما قوات تربو على مائة وعشرين الفا ، ولا تعدو رسائلهم الى العرب المسلمين من أن تكون تحذيرا وترهيبا ووعيدا ، أو اغراء ووعودا بقوت وكساء ! ومن ناحية

اخرى يقف سعد بن ابى وقاص وجنوده أقل من ثلث جنود العدو ، ولا تتعدى ولا تتحول رسائله مع مبعوثيه الى كسرى وحاشيته وبلاده عن الدعـوة الى الاسلام « فان أجبتم الى ديننا خلفنا فيكم كتـاب الله واقمناكم عليه ، على أن تحكموا باحكامه ، ونرجع عنكم ، وشأنكم وبلادكم .. وان اتيتم بالجزية قبلنا ومنعناكم ، والا قاتلناكم » .

غير أن كل طرف بقى متمسكا بموقفه لا يحيد .

فكان لابد مما ليس منه بد ، وكانت القارعة ! ودخلت معركة القادسية التاريخ الاسلامى من أوسع ابوابه !

أين لى بوصفها ، ولا تكفى صفحات وصفحات لو رحت ألخص كيف دان النصر لسعد بن أبى وقاص وقواد وجنود المسلمين فى هذه الموقعة غير المتكافئة عـددا وعدة ؟ كيف واجهوا الافيال والاهوال ، والفرسـان والاستبسال باستبسال اشد ؟ كيف كروا وفروا وكروا ؟.

كيف قاتلوا القائد الاسطورة رستم وعشرات الالاف من جنوده الفارسيين كيف فعل هتاف « الله أكبر » فعل السحر ؟! كيف تألقت فى المعمعة أسماء وبطولات قادة ألوية اسلامية من أمثال القعقاع بن عمرو وهاشم بن عتبة وعاصم بن عمرو وطليحة بن خويلد وعمرو بن معدى كرب وغيرهم بصورة منقطعة النظير . كيف أتى جيش المسلمين بخوارق مذهلة دحرت الفرس والحقت بهـم هزيمة بالغة .

ويتلقى امير المؤمنين عمر بن الخطاب انبـاء نصـر القادسية بسعادة غامرة وشكران لله العزيز الحميد ، وسجود للعلي القدير بالك محمود . الم يكن عمر هو من

فكر فيها ، واعد لها وامر وبعث بها ، وتابعها بتوجيهاته ورسائله التي لم تنقطع وكأنه يشهدها علي بعد المسافات ؟

ان القادسية لم تكن سعدا على سعد بن أبى وقاص وجيشه فحسب ، بل بالدرجة الاولي على الاسلام والمسلمين .

على أن معركة القادسية الرائعة المظفرة الشهيرة التي تعتبر من أهم واحسم الاحداث فى انتشار الدعوة المحمدية وامتداد الامبراطورية الاسلامية ، ما كانت لتفي باغراضها السامية ـ بعد ان لاذ كسرى وفلوله بالفرار الي عاصمة ملكه « المدائن» يتحصن بها ويحلم ويعد بالثار ـ لولا ان الله تبارك وتعالى الهم عمر بن الخطاب وسعد بن ابى وقاص أن يعزز النصر بتطبيق مبدأ من مبادىء الحرب هو « استغلال النجاح » وتطويره وملاحقة العدو والحفاظ على عنصر المبادءة . وهكذا وبعد فترة وجيزة نسبيا تم لسعد بن ابى وقاص وجيشه فتح « المدائن » بعد أن عبروا نهر دجلة بخيولهم وخاضوا بها معركة اغرب من الخيال تزخر بالبطولات والمعجزات حتى دخلوا ايوان كسرى ولبسوا تاجه وافاء الله عليهم باموال وكنوز وتحف ونفائس تجل عن الوصف وتتعذر علي العد والتقييم .

وهكذا سار « فارس الاسلام » سعد بن ابى وقاص من بدر الى القادسية الى ايوان كسرى فى المدائن واستقر ، وبنى الكوفة ووليها .

وكان سعد بن ابى وقاص ممن أعتزلوا « الحياة العامة » بعد الفتنة ومصرع عثمان ، واعتكف فى بيته

قرب المدينة المنورة مع عباداته وذكرياته .

على أن هذه « الامجاد » الخالدة ماكانت لتعدل عنده « بدريته » . فانه حين حضرته الوفاة أعطى اهله جبة من صوف وقال لهم : كفنوني بها ، فاني كنت البسها يوم بدر ، وكنت أخبأها لهذه المناسبة لالقى الله بها !

نعم الايمان ونعمت صحبة محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ..

عبد الرحمن بن عوف

حكمة الله ومشيئته ورحمته أن يبعث في النـــاس محمدا خاتم النبيين بشرا ورسـولا منا ليبلغ رسالات ربه الى العالمين « لقد جاءكم رسول من انفسكم عزيز عليــه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم » ١٢٨ التوبة .

وحكمته ـ عز وجل ـ ومشيئته ورحمته أن يمكث الرسـول الداعية الاعظم ثلاث وعشرين سنة كاملة حافلة « وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلنـــاه تنزيلا » . فشريعة التوحيد والحنيفية السمحاء تتنزل على محمد عليه السلام ، وفرائض مطهرة يأمر بها الله من فوق سبع سماواته . وصحابة تستجيب وتتزايد تترى وتتحول نواتها الى شجرة طيبة باسقة أصلها ثابت وفرعها في السماء ، وسلوك يسن ، وأسوة حســنة تضرب ، ومواقف تواجه ، وقرارات مصيرية تتخذ ، ومؤمنون يدخلون في دين الله أفواجا .

وفي أحكام الله تبارك وتعالى وفيما يوحى لرسوله به من قول أو فعل من الدين القيم فانه « ما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا » ٧ الحشر . « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمرا أن يــكون لهم الخيرة من امرهم » ٣٦ الاحزاب .

ولكن من أحكام الله ايضا أن « وشاورهم في الامر » ١٥٩ آل عمران .

« وامرهم شورى بينهم » ٣٨ الشورى . فمبدأ الشورى في غير ما امر الله به وقضى ، او اوحى الى رسوله .. مندوب اليه منصوح به . والشورى في القرآن والاسلام تجيء لاهي جامدة ولا محددة بتفصيلات وجزئيات واجراءات ، وانما اطارا واسعا ، وهذا بالتأكيد مما يتفق ويتجانس مع شريعة من طبيعتها الخلود ومن خصائصها في المعاني العامة المجردة ان تتسع لتتلائم مع كل بيئة وكل زمان .

فالشوري واردة في تكتيك القتال ومقتضياته سواء طلبها النبي عليه السلام او تطوع احد الصحابة . والامر كذلك يحتمل الشورى في الشئون المعاشية او في مواقف يستطلع فيها النبي عليه السلام آراء صحابته المقربين ويستشيرهم ، الا ان يفصل في الامر بتوجيه رباني يوحي به اليه عليه السلام او بقرآن يتنزل عليه حيث الآراء تناقش فيهدي الى الحق .

ولعلنا نذكر واقعة شهيرة في غزوة بدر حين نزل النبي بموقع ارتآه مناسبا للقتال فسأله الحباب بن المنذر ـ وكان له علم وخبرة وأسمان بتضاريس المنطقة ـ قائلا « يارسول الله ! ارايت هذا المنزل .. امنزلا انزلكه الله فليس لنا ان نتقدمه ولانتاخر عنه ام هو الراى والحرب والمكيدة ؟ » فقال عليه السلام « بل هو الراى والحرب والمكيدة » فاجابه بن المنذر « يارسول الله فان هذا ليس بمنزل ، فانهض بالناس حتى تاتى ادنى ماء من القوم فتنزل ثم تغور ما وراءه من البئر ، ثم نبنى عليه حوضا فنملأه ماء ، ثم نقاتل القوم فنشرب ولايشربون»!

« وانشرح صدر النبى لصواب ما اشار به الحباب وأخذ

به واكد لاصحابه جدوى الشورى والا يحبس الراى !
وحكاية « تأبير النخل » هى الاخرى معروفة ، وقوله بعدها للناس : أنتم أعلم بشئون دنياكم .
كذلك استشار عليه السلام أصحابه فيما يفعله بالاسرى وفى صلح الحديبية وفى غير ذلك ، الا ان يقضى الله فى الامر الذى فيه يستفتى . وكان عليه السلام يحاور ويناقش ويفسح صدره ويربى فى أصحابه هذه الروح ويستنهض الملكات ويجلوها ويصقلها ، لان الشورى أصل من الاصول ، ولانه سوف يأتى زمان يحتاجونها ورسول الله قد رحل عنهم وانقطع وحى السماء . فحيث لا نصوص قاطعة فاصلة فى القرآن والسنة فان الشورى هى من كتاب الله وسنة رسوله ، وهى منهاج يلجأ اليه من بعده ويتوخاها حيث يقتضى الحال أن يستشار صحابته كالنجوم الهادية !
وهذا ما ألتزم به الخلفاء الراشدون ..
لماذا قدمت بهذه السطور المضيئة التى اشرقت بالآيات القرآنية وعمرت بالسيرة النبوية ، وانا بصدد الحديث عن صحابى جليل من العشرة المبشرين بالجنة هو عبد الرحمن بن عوف ؟!
ذلك أن كل امرىء ميسر لما خلق له . فاذا كان من صحابة النبى خلفاء راشدون أربعة ، وقواد عظام واصحاب ملاحم ، وولاة ، فليس بالضرورة أن يبيت كل السابقين الاولين من صحابة النبى من هذه « النوعيات » المشار اليها آنفا . فمن المعتاد أن الميزة الكبرى او بالاحرى « مفتاح الشخصية » لاى صحابى أو اى انسان هى التى تتقدم على ماسواها وترسم له

خط سيره وتحدد مصيره . وقد كان عبد الرحمن بن عوف بحكم موقعه وصحبته وموهبته البارزة مرجعا وناصحا ذا حصافة وتدبر ودقة يصيب فى فتـــواه ويجتهد فى رأيه اذا سئل عنه . وفي الجملة كان مؤهلا ليمسي احد كبار المستشارين ان لم يكن كبير المستشارين بالفعل للخلفاء الراشدين .

فمن هو عبد الرحمن بن عوف ؟

هو احد أسبق ثمانية الى الاسلام ــ وله من العمر يوم أسلم ثلاثون سنة اذ ولد بعد عام الفيل بعشر سنين ــ ولزم صحبة رسول الله منذ الايام الاولى يتحمـــل مايتحمل ويصمد ويتصدى يدعو بما علمه صاحبه عليه الصلاة والسلام . وكان تاجرا ماهرا محظوظا مجدودا حتى لقد روى على لسانه قوله « لقد رأيتنى لو رفعـــت حجرا لرجوت أن أصيب ذهبا وفضة » .

ثم خلف ثروته وراءه مضطرا وهاجر مع أوائل من هاجروا من مكة الى المدينة وهو خالى الوفاض متوكلا على الله ، والله يرزق من يشاء بغير حساب .

وفى المدينة وفقا لسنة رسول الله فى المآخاة بين المهاجرين وبعضهم البعض ، بين المهاجرين والانصار ، فقد جاء من نصيب عبد الرحمن بن عوف أن آخى النبى بينه وبين عثمان بن عفان « وكانا معا ممن أســـلموا على يد أبى بكر الصديق » ، كما آخى بين ابن عوف وبين سعد بن الربيع الانصارى . فاسمع واقرأ هـذا الحوار المدهش القمة فى البذل والتعفف الذى جرى بين الاثنين مما نكاد نضعهما على الخريطة الملائكية ! يقول سعد ابن الربيع لعبد الرحمن بن عوف : اى اخى ! انا اكثر

اهل المدينة مالا فانظر شطر « اى نصف » مالى فخذه ! وتحتى امرأتان فانظر أيهما أعجب اليك حتى اطلقها ! فيجيب ابن عوف على الفور : بارك الله لك فى اهـــلك ومالك ! دلونى على السوق ! ولما دلوه ذهب واشترى وباع وربح . ولم يلبث هذا المجدود الذى يتحول التراب بين يديه الى ذهب أن اثرى ثراء مباركا عوضه الله به اضعاف مافقده فى مكة !

صحابى بهذا السبق والثقل والقرب من رسول الله صلى الله عليه وسلم كان حتما أن يشهد غزوة بدر وان يثبت فى غزوة احد ـ على ما أصابه فيها .. وانه لجسيم ـ وأن « يمول » غزوة تبوك بما أنعم الله عليه به حتى ليلتبس الامر على المؤرخين ايهما كان اشد عطاء وسخاء فيها هو أم عثمان بن عفان ؟!

واذا كان الذين استشهدوا فى غــزوة احــد من المسلمين كثارا فان الذين اصيبوا بطعنات وجراح وبرأوا منها هم اكثر فيما عدا عبد الرحمن بن عوف . فكان من آثار اصـــاباته العشرين فيهــا أن خلفت له عاهة مستديمة ، وبات يعرج ماتبقى من عمره . ولعل هـذا العرج اشتد عليه بعد وفاة النبى عليه السلام ، فهو ان لم تكن قد فاتته غزوات النبى جميعها بعد غزوة احــد وحتى تبوك ، فانه لم يعد يشارك فى بعوث الشـــام والعراق وغيرهما ايام الخلفاء الراشدين ، وقنع بصفة « كبير المستشارين » . وانه « لمنصب » لو تعلمــون عظيم .

وكانما وهو ينهى صلته العملية بالقتال فى تبوك ـ آخر غزوات النبى ـ ابى الا ان يظفر بشهادة نبوية شريفــة

خصته بها السعادة والحظ ! ذلك انه حينما حضرت الصلاة فى غزوة تبوك وافتقد الناس النبى بينهم ساعتئذ قدموا عبد الرحمن بن عوف ليصلي بهم اماما ففعل . غير أن النبى عليه السلام حضر بعد ان صلوا الركعة الاولى فصلى معهم مؤتما بابن عوف وادرك احدى الركعتين . وما أن انتهى المسلمون من صلاتهم حتى أفزعهم هذا الموقف الطارىء عليهم . فلما انتهى عليه السلام من الصلاة قال لهم « ما قبض نبى حتى يصلى خلف رجل صالح من امته ! وقد أصبتم لو احسنتم الصلاة ! .

ولقد استرعى انتباهى خلال قراءاتى عن أبى بكر الصديق خليفة رسول الله وعن امير المؤمنين عمر ابن الخطاب أنه مامن موقف لهما يقتضي الراى والشورى واتخاذ القرار الا وكان عبد الرحمن بن عوف « أول من يستشار » فى الفتح وتيسير الجيوش ، فى توزيع الفيء فى الازمات والملمات . وكان يبدى رايه بشجاعة وافاضة وبلاغة ، ولا يهم بعد ذلك أن تتفق معه أغلبية الآراء فيؤخذ به أو لا تتفق ، انما المهم أن يفصح عن وجهة نظره وبامانة وبالحيثيات ! وكانوا يسألونه فى الفتاوى أو يتطوع بها ، وكيف يتوانى وقد كان من المفتين فى عهد رسول الله بكتاب الله وسنة رسوله . وقد مر بنا فى « تاريخى » لابى عبيدة بن الجراح كيف أفتى بن عوف براى رسول الله فيما يسلكه الناس اذا نزل الطاعون ببلد من البلدان .

وقد تقدم بنا كيف أن عبد الرحمن بن عوف كان احد الستة أهل الشورى اللذين أوصى امير المؤمنين عمر بن الخطاب بأن يتشاوروا فيما بينهم ويختاروا احدهم اميرا

للمؤمنين . والتفاصيل يرويها البخاري وتحس معها أن ابن عوف لفداحة التبعة التي تحملها لم يكن ينام . فلا هو كف عن القلق والهواجس ، ولا انقطع عن المشاورات المكثفة ، ولاكل أو ون في استخارة الله والابتهالات والتضرعات له سبحانه أن يهديه سواء السبيل ، فما كان يريد الا الاصلاح والتوفيق ما استطاع . يقول البخارى عن المسور بن مخرمة « ان الرهط الذين ولاهم عمر رضى الله عنهم اجتمعوا فتشاوروا فقال لهم عبد الرحمن بن عوف : لست بالذى انافسكم على هذا الامر ، ولكنكم ان شئتم اخترت لكم منكم . فجعلوا ذلك الى عبد الرحمن . فمال الناس على عبد الرحمن يشاورونه تلك الليالى ، حتى اذا كانت الليلة التى أصبحنا منها فبايعنا عثمان رضى الله عنه ـ يقول المسور ـ طرقني عبد الرحمن بعد هجع من الليل فضرب الباب حتى استيقظت فقال : اراك نائما ، فوالله ما اكتحلت هذه الليلة بنوم ! انطلق فادع الزبير وسعدا ! فدعوتهما له فشاورهما . ثم دعاني فقال : ادع عليا ! فدعوته . فناجاه حتى ابهار الليل « وكان طلحة غائبا عن المدينة » ثم طلب عثمان بن عفان فناجاه حتى فرق بينهما المؤذن بالصبح . فلما صلى الناس واجتمع اولئك الرهط عند المنبر ارسل عبد الرحمن الى المهاجرين والانصار وامراء الاجناد ، فلما تجمعوا لم أرهم يعدلون بعثمان ، فبايع عبد الرحمن وبايع المهاجرون والانصار عثمان بن عفان وقال : ابايعك على سنة الله وسنة رسوله والخليفتين . ثم نظر الى على بن ابى طالب وقال : أما بعد ياعلى .. اني قد نظرت فى امر الناس بنحو .. اى هكذا ! .

ويروى ان عبد الرحمن بن عوف علم ان امير المؤمنين عثمان بن عفان حين مرض قبل مصرعه بنحو عامين كتب لعبد الرحمن بن عوف بالخلافة ، فشق ذلك على بن عوف فما كان ليرضى بها او يتحملها ابتداء وانتهاء ، ودعــا الله ان يميته قبل عثمان ! ولما كان عبد الرحمن بن عوف « اميرا فى الارض اميرا فى السماء » ـ كما وصفه النبى عليه السلام ـ فقد استجابت السماء لدعائه ومات بعد ستة اشهر من دعوته وفى خلافة عثمان .

وقبل وفاته شاور « كبير المستشارين » ام المؤمنين ام سلمة وقال لها : لقد خفت ان يهلكنى كثرة مالى ! فقالت : يابنى انفق ! فبسط يديه ـ وهمـا اصـــلا مبسوطتان كل البسط ـ واعتق ابن عوف فى يوم واحد ثلاثين عبدا ، واوصى لامهات المؤمنين بحديقة بيعـــت باربعمائة الف ، واوصى للمائة الباقين من البدريين باربعمائة دينار لكل واحد منهم ، واوصى بخمسين الف دينار فى سبيل الله !

وراح وهو من اندى العالمين بطون راح !

سعد بن معاذ

ما اشبه دعوته تلك بدعوتي التي اثخنتني وبرحتني ! حتي ولو لم اعد اهتف بها ، حتي ولو قد ماتت علي شفتي ، فانها مابرحت وجيب القلب ـ علم الله ـ وصريخ الدماء المكتوم المكلوم ! حتي ولو كانت ظلمات اليـــاس تغشاني سنة بعد اخرى ، وهزيمة بعد نكسة ، وضياعا بعد عجز ، وتهـوى بى الى قرار ســـحيق .. تلك الكوارث الماضية الممضة ، والجديدة الممتدة ، فانني أخبيء هذه الدعوة في حنايا الصدر أو أخفيها في فلذات الكبد واوجاعه ، وكأنما اتوقع ان تحين الفرصة والمعجزة بين عشية وضحاها !

نعم ، ما اشبه دعوة سعد بن معاذ المستجابة : اللهم لا تمتنى حتى تشفينى من بنى قريظة ! ما اشـــبهها بدعوتى التى حرت بها وحارت بى : اللهم لا تمتنى حتى تشفي غليلي من اسرائيل وبني اسرائيل ! على العكس ، اسرائيل تقوى وتتوسع وتهيمن ، فى حين أقبع فى دارى كسيف البال مكسور الخاطر والوجدان . فلا أنا شفي غليلي ، ولا أنا مت ولا حييت ! اللهم لا لوم ولا اعتراض! القضية التي كرست لها عمري وأملي شطبت ! عبر دواوين سبعة مضيت أبثها شعرا وهي تلقمني حجراً !

شيء واحد ـ أو نصف شيء ـ مشترك بيننا هو هذا الدعاء ! هو حازه ، وانا كأنما دنياى حرام فـــكيف يستجاب لي !!

ولكن ما أبعد الفرق بينه رضى الله عنه وبينى ...
عفا الله عنى !

هو من قمم النضال ومن أهل الجنة ، وانا لاادرى مكانى فى الدنيا وفى الآخرة !

هو من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن كوكبة صلبة طاهرة شريفة تؤمن وتعمل بما تقــول ، ونحن من أصحاب الهوى والتبرير والتمرير ! نخسر فنعج ونجعجع ، ونهون فنتدرع بالاحباط ، ونستنيم وكأننا فى الاجداث أو خرجنا منها اعجاز نخل خاوية !

هو واترابه يتحركون باندفاع الرواد الابطال وبحلاوة الايمان وحرارته نحو النصر ، ونحن لانكاد نحرك اصبعا من اجل الاحتجاج على مايحاق بنا فكيف برفعه !

هو قريب من « صيحة النبى » تأتى بالخوارق المعنوية والمادية ، ونحن يكاد الشيطان يتخبطنا من المس والعجز ونتسلى بخوارق التلفزيون والفيديو حتى ولو كــانا يعرضان هزيمتنا وخيبتنا !

فمن هو سعد بن معاذ الذى قلبت دعوته « المواجع وحركت الاشجان » ؟!

حياة قصيرة ربما ، ولكن « سيناريو » حقيقى باذخ العطاء والبر ، بالغ الصدق والاثر ، بديع المعــانى والعبر .

سيناريو حقيقى ، فى كل لقطة منه ـ على محدوديتها ـ آفاق مضيئة لا نهائية .

اللقطة الاولى

محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ضاقت عليه مكة بما رحبت من جراء مالقي دعوته من عنت واقفيات

المشركين وعتلات قريش . لكن دعوته ــ رغم ذلك ــ كانت قد شقت الحجب ، وقطعت الفيافي والوديان ، وبلغت المدينة المنورة ، وان لم يؤمن بها الا عدد يجاوز أصـابع اليدين بقليل رحلوا الى مكة يودون أن يقبسوا من نوره عليه الصلاة والسلام شخصيا ، فقرت أعينهم ورسـخ يقينهم وبايعوه عليه السلام بيعة العقبة الاولي . وعادوا الى يثرب وقد انفذ معهم مصعب بن عمير معلما وداعيا وقارئا لكتاب الله .

وهناك فى يثرب كان سعد بن معاذ سيدأ من سادات الاوس ، وقد ضاق ذرعا بعداء تقليدي وبقتال غبى متكرر بين قبيلتي الاوس والخزرج لا يفيد منه الا يهود يثرب وجاليتهم الانتهازية الاستغلالية المتحصنة فيما يشـبه « الجيتو » ، المنتشرة فيما يشبه السرطان ! ولعلهم هم الذين أوقدوا نار الفتنة والعداء بين الاوس والخزرج !

وان هى الا جلسة بين مصعب بن عمير وسعد بن معاذ حتى شرح الله صدر سعد للاسلام باشعاع خالص متوهج عذب غلاب . وبلغ من قوة نفاذ الاشعاع ومن شدة نفوذ سعد بن معاذ بين قومه بني عبد الاشهل أن لم يتخلف منهم أحد .. اسلموا جميعا ! ينادى فيهم : يابنى عبد الاشهل ! كيف تعلمون أمرى فيكم ؟ قالوا : سـيدنا وأوصلنا وافضلنا رأيا وايمننا نقيبة ! قال : فان كلام نسائكم ورجالكم حرام على ، ان لم تؤمنـوا بالله ورسوله !

.. وآمنوا

اللقطة الثانية

سحب غزوة بدر الكبرى تتجمع ، والنبى عليه السلام

وصحابته من المهاجرين والانصار فى المدينة يتأهبون ، وقد أخذت قريش فى زحفها نحو المدينة تستثير المشاعر وتلهب التحديات . وتوالى الاعداد للمعركة بين الحق والباطل . والمشاورات جارية بين النبى وصحابته من المهاجرين . ثم التفت النبى عليه الصلاة والسلام ناحية الانصار وكأنما يختبرهم — وان كان يثق بهم — وقال : أشيروا على أيها الناس !

وتقدم سعد بن معاذ قائلا : لكأنك تريدنا يا رسول الله ؟! قال : أجل ! عندئذ أجاب سعد بن معاذ بعبارات لا أخال أحدا من المسلمين عبر أربعة عشر قرنا الا رقرأها او سمع بها أو حفظ بعض كلماتها التى تهز الوجدان هزا . قال سعد بن معاذ : لقد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ماجئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهدنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض لما أردت فنحن معك . فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك وما تخلف منا رجل واحد . وما نكره أن تلقي بنا عدونا غدا . أنا لصبر فى الحرب صدق فى اللقاء . لعل الله يريك منا ماتقر به عينك ، فسر بنا على بركة الله !

عندئذ تهلل وجه النبى عليه الصلاة والسلام وقال : سيروا وابشروا فان الله قد وعدني احدى الطائفتين . والله لكأنما انظر الى مصارع القوم !

ثم ماذا أيضا لسعد بن معاذ فى بدر من أيمان عملي برسول الله وحرص عليه ؟

اذ يحتل المسلمون مواقعهم للقتال يقول معاذ للنبى عليه السلام .

« يانبى الله ! نبنى لك عريشا تكون فيه ، وتعد عندك ركائبك ثم نلقى عدونا . فان أعزنا الله واظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا ، وان كانت الاخرى جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا من قومنا ، فقد تخلف عنك أقوام يانبى الله مانحن بأشد لك حبا منهم ، ولو ظنوا أنك تلقى حربا ما تخلفوا عنك ، يمنعك الله بهم يناصحونك ويجاهدون معك » .

بارك الله لك ياسعد بن معاذ فى نبالة حسك وسلامة قصدك وعذوبة قولك وتوهج فكرك ، وفزت برضى الله وثناء رسوله .

اللقطة الثالثة

تحالف المشركون من مكة مع يهود بنى قريظة الذى نقضوا العهد فى المدينة فكانت غزوتا الخندق «الاحزاب» وبنى قريظة .

وبينما سعد بن معاذ يقاتل المشركين فى معركة الاحزاب أصاب سهم اكحله . وكانت عينه على الخونة المخربين من اليهود الذين نقضوا العهود وتربصوا بالمسلمين الدوائر ، فهتف وهو يقاوم الجراح ويدافع الالام : اللهم لا تمتنى حتى تشفينى من بنى قريظة !

ويمد الله فى أجل سعد بن معاذ أياما حتى استسلمت قلاع يهود بنى قريظة ، فقال له النبى عليه السلام : أحكم فيهم ! قال سعد : انى لاخشى يارسول الله الا أصيب فيهم حكم الله ! فاكد عليه النبى أن يحكم فيهم . فكان حكمه الذى جاء جزاء وفاقا . فقال عليه الصلاة والسلام : أصبت فيهم حكم الله .

هنا كان قد شفى سعد بن معاذ صدره وادى ماعليه

فخلت به جراحه النجلاء واخذ يلفظ انفاسه الاخـــيرة
هانىء البال مرتاح الضمير وآخر مايسمع هو دعـــاء
رسول الله حوله « اللهم ان سعدا قد جاهد فى سبيلك ،
وصدق رسولك ، وقضى الذى عليه ، فتقبل روحـــه
بخير ماتقبلت به روحا » .

وبعد ان حمل المسلمون جثمان سعد الى مثواه الاخير
عادرا للنبى عليه السلام يقولون : يارسول الله ! ماحملنا
ميتا اخف علينا من سعد ! فقال عليه السلام : مايمنعكم
من أن يخف عليكم وقد هبط من الملائكة عدد لم يهبطوا
قبل يومهم قد حملوه معكم !

وبكته امه واهله والمسلمون فاطنبت الام مديحا ورثاء
وبكاء ، فعقب رسول الله قائلا : « كل البواكى يكذبن
الا أم سعد ! لقد اهتز العرش لموت سعد ! » .

ودهش المسلمون يوما اذ رأوا جبة من ديباج منسوج
بالذهب وجلسوا يتأملونها ويمسحونها فقال النبى عليه
الصلاة والسلام : والله لمناديل سعد بن معاذ فى الجنة
أحسن مما ترون !.

استشهد سعد بن معاذ فى شرخ الرجولة وقد اجاب
الله دعوته ثم تقبله فى عباده الصالحين ، وهانحن هؤلاء
قد بلغنا الكهولة وبيننا وبين اجابة دعوتنا بعد المشرقين
.. أو مسيرة ذراع ، الله أعلم .

ونعيب زماننا والعيب فينا ! اصلح الله بالنا وحالنا ..

معاذ بن جبل

لاول وهلة يبدو كأنني انما تذكرته وتخيرته فى هذا النسق لكونه وصاحبه سعد بن معاذ ـ الذى عرضت لحياته واستشهاده آنفا ـ يشتركان فى الاسم والبلد ، فكلاهما معاذ وكلاهما من أكرم الانصار بالمدينة المنورة .

ولكن ليس الامر كذلك تماما ، فما كان يمكن أن أنسى « معاذ بن جبل » فيما أكتب عن صحابة النبى صلى الله عليه وسلم .

هل أحكى كيف ولماذا هو بالذات فى هذا النطاق كأنما يمثل حبى الاول والذى لم يتحول ؟!

باختصار كان الراوى الاصل لاول حديث نبوى شريف سمعته هو معاذ بن جبل ، وكان الراوى الذى ألقاه على مسمعى هو ذلك الذى شاء الله تبارك وتعالى بفضله العظيم ان التقى به فى مطلع الصبا وأن يتبين لى على يديه صراط الهدى والسنة المحمدية .. المرحوم الشيخ اسماعيل السيد اسماعيل .

عن معاذ بن جبل عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « اتق الله حيثما كنت ، واتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن » .

وشدتنى عبارة « اتق الله حيثما كنت » التى صافحت أذنى ، وهمت بها حبا ومحاولة حرص عليها ، حتى أننى والآن حيثما كنت وكان مكتبى فى أية مؤسسة صحفية

« وقد اختلفت الى معظمها وتعاقبت عليها سنين متعاقبة»
فان « اتق الله حيثما كنت » شعار مكتوب موضوع أمامى يذكرني .. لعل وعسى ان افعل .

ولفتني معاذ بن جبل ، وشعرت كانه يخصني ! وحين عزرت ـ بعد أسابيع ـ مرحلة الانصات الى استاذى بمرحلة الإطلاع والتزود بينابيع المعرفة والسيرة والسنة رحت انقب في بطون الكتب عن تلك الشخصية التى احببتها سماعا فأقرأ عنه واتمثله أمامي بوسامته وشبابه واشراق طلعته ، بتقاه وقنوته ، بعلمه وفقهه ، في أحكام الدين حتى لقد قال عنه النبى عليه السلام « أعلم أمتى بالحلال والحرام معاذ بن جبل » اتمثله بجهاده واجتهاده بعفة نفسه وحسن سريرته وبصيرته .. فيتسع حبى له ويتعمق .

ووجدتنى ـ أو تمنيتنى ـ اشبه بهذا الرجل الذى حكى قصته معه لابعد الزمان بزمان مثلما أحكى ، وانما على الطبيعة وعلى الفور فيقول « دخلت مسجد دمشق ، فاذا فتى براق الثنايا واذا ناس معه اذا اختلفوا في شيء اسندوه اليه وصدروا عن رأيه ، فسألت عنه فقالوا : هذا معاذ بن جبل ! فلما كان من الغد بكرت فالفيته قد سبقني بالتبكير وكان يصلي . فانتظرته حتى قضى صلاته ثم جئته فسلمت عليه وقلت : والله انى لاحبك لله ! فقال : الله ؟ قلت : الله ! فقال : الله ؟ فقلت : الله ! فأخذ معاذ بحبوة ردائى . فجذبني اليه وقال : أبشر ! انى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : قال الله سبحانه وتعالى وجبت رحمتي للمتحابين في والمتباذلين في والمتزاورين في » .

ثم اكتشفت أن رسول الله نفسه قالها له ذات يوم ، فقد أخذ بيده وقال : يامعاذ ! والله اني لاحبك ! وشفع هذا الحب الكريم الذي شرفه به بهدية غالية ونصيحة سامية فأضاف عليه السلام قوله : فلا تنسى أن تقول عقب كل صلاة .. اللهم اعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك .

اذن فقد اضحى حبي « الفطري » لمعاذ بن جبل هو دون أن أدرى « تأسيا » برسول الله ، وسنة نبوية !

ولقد اسلم معاذ بن جبل الخزرجي المدني وهو ابن ثماني عشرة سنة .. ولم يكن بعد قد رأى رسول الله عليه الصلاة والسلام ، واني لاتخيل معاذا في هذه السن الباكرة بحماسه الايماني ، وبقوة حافظته ، وتفتح ذهنه وتوقده ، قد حفظ وتفهم ماحمله مصعب بن عمير من قرآن وسنة الى المدينة ، وقد انبعثت نفسه للعلم والتفقه في الدين ، وقد عصف به الحنين لمشاهدة رسول الله ولقائه . حتى اذا كانت السنة الثالثة عشرة من البعثة والنبي مازال يعاني مايعاني في دعوته بمكة انطلق معاذ من المدينة الى مكة مع نيف وسبعين رجلا وامرأة ليحجوا وليلقوا رسول الله ، وليبايعوه بيعة العقبة الثانية التي كان لها شأنها ومعنوياتها وقراراتها . ففي أعقابها مباشرة عزم رسول الله وتوكل على الله الذي ألهمه أنه قد آن الاوان ليسير الي دار هجرته .. ليهاجر الى يثرب حيث المسلمون فيها من امثال معاذ واقرانه عديدون على أهبة الاستعداد والترحيب ، وحيث قاعدة الانطلاق لبنـاء الدولة الجديدة الابدية قد استقامت وتهيأت .

وقد شهد معاذ غزوة بدر ومابعدها . يقـاتل

فيستبسل ، وينعم بصحبة النبي عليه السلام الذى كان يردفه معه فى الاسفار فيتعلم منه ويجود ويذكى ملكاته وفهمه وتأملاته وقنوته لله عز وجل حتى أن ابن مسعود قال عن معاذ : كنا نشبهه بابراهيم عليه الصلاة والسلام .. كان أمة قانتا لله حنيفا ! ومضى النبى عليه الصلاة والسلام يعلم معاذا ويوصيه ويرعاه ويوفده حيث يتطلب الامر ايفاد أهل الثقة والخبرة وأهل الذكر وأهل التقوى كان يحبه !

بعد فتح مكة ونصر الله العظيم اعتمر رسول الله عليه السلام ، فلما قضى عمرته وقبل عودته للمدينة المنورة استخلف على مكة الصحابي عتاب بن أسيد كما جعل مساعده معاذ بن جبل ليفقه الناس فى الدين ويعلمهم القرآن الكريم .

ومرة أخرى واثر انتشار الاسلام فى ربوع اليمن كان معاذ بن جبل هو الرجل المناسب والمختار من قبل النبي . نهض رسولا لرسول الله عليه السلام الى اهل اليمن يعلمهم ويفقههم ويقضي بينهم بكتاب الله وسنة رسوله . فان لم يجد ؟ هكذا سأله رسول الله عليه السلام ، قال معاذ : اجتهد رأيى ولا آلو ! « فطبطب » النبى على صدر معاذ وحياه ورضي عنه ودعا له ! ثم أوصاه وصيته الأخيرة التى لم يلقه بعدها أبدا ، فقد مات عليه الصلاة والسلام ومعاذ فى اليمن ، وان بقى دائما فى قلبه وفى ضميره . قال له عليه الصلاة والسلام « يسر ولا تعسر ، بشر ولا تنفر . وانك ستقوم على قوم من أهل الكتاب يسالونك : ما مفتاح الجنة ؟ فقل : شهادة الا اله الا الله وحده لا شريك له . »

ونجح معاذ فى مهمته أيما نجاح ، وحسن اسلام أهل اليمن . وتشاء المقادير أن تكون وفود اليمن هى آخر ما استقبل النبى عليه الصلاة والسلام فى المدينة قبل انتقاله الى رحاب الله ، فيسر بهم ويطمأن ويموت عليه السلام وهو راض عن معاذ !

نجابة معاذ بن جبل ، وشبابه المتفتح ، وتعلقه بالنبى ، وقربه منه ، وعشقه للفقه ، وأخرويته .. كل ذلك طوع له أن يسأل النبى كثيراً ليسعد ويستنير ويعمل .

سأله ذات صباح : يارسول الله أخبرنى بعمل يدخلنى الجنة ويباعدنى عن النار . قال عليه السلام : لقد سألت عن عظيم ، وانه ليسير على من يسره الله تعالى عليه . تعبد الله لا تشرك به شيئا ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت ! ثم استطرد عليه السلام قائلا : الا أدلك على أبواب الخير ؟ قال : بلى يارسول الله ! قال عليه السلام : الصوم جنة . والصدقة تطفىء الخطيئة كما تطفىء الماء النار . وصلاة الرجل فى جوف الليل ، ثم تلا قوله تعالى « تتجافى جنوبهم عن المضاجع » حتى بلغ « جزاء بما كانوا يعملون » . ثم التفت النبى الى معاذ وقال : الا اخبرك برأس الامر وعموده وذروة سنامه ؟ قال معاذ : بلى يارسول الله ! قال عليه السلام : راس الامر الاسلام ، وعموده الصلاة ، وذروة سنامه الجهاد ! ومضى النبى عليه السلام فى تعليمه يسأله : الا اخبرك بملاك ذلك كله ؟ قال معاذ : بلى يارسول الله . فأخذ النبى بلسان معاذ وقال : كف عليك هذا ! قال معاذ : يانبى الله ، وانا لمؤاخذون بما نتكلم به ؟ فقال عليه السلام : وهل

يكب الناس في النار على وجوههم الا حصائد السنتهم ؟
أرايت كم ترغيب وترهيب ، كم حكمة وموعظة ساقت لنا بهذا الحوار ؟!

ثم في زهرة العمر ، في نحو الخامسة والثلاثين ، وفي « فلسطين » ايضا .. تأتي النهاية عاجلة الى معاذ ابن جبل « فقيه هذه الامة » بعد أيام من نهاية ابي عبيدة « امين هذه الامة » ! .

فقد كان معاذ اميرا من امراء جيش ابي عبيدة بن الجراح ، وكانا معا في بلدة عمواس التي دهمها الطاعون فلما أصيب أبو عبيدة به كما تقدم في الحديث عنه وقبل مماته سلم معاذ بن جبل القيادة من بعده ، ولكنه هو الآخر مالبث أن شمله وباء الطاعون . فما ذعر وما أشفق على نفسه من الموت ؛ بل استلقى كواحد من صفوة أولياء الله الصالحين يرحب بلقاء ربه .. وقال رضي الله عنه وهو في النزع الاخير : رب اخنق خنقك ، فوعزتك اني لاحبك !

يا الهي ! ما أعظم هذا الشلال الهادر الحاني من الحب الذي كان يبثه معاذ بن جبل ، فيحب النبي ويحبه النبي ، ويحب الناس ويحبه الناس حتى اليوم ، وبالدرجة الاولى يتفانى في حب الله الذي عاش ومات عليه !

وباتت فجيعة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب في رحيل الاثنين ـ أبي عبيدة فمعاذ ـ قاسية ، وامست أحزانه عليهما مروعة . فلكم كانا جديرين بحبه الشديد واعجابه ، ولكم أضمر ان يستخلف من بعده أبا عبيدة او معاذ بن جبل ..

ولم يذهب سدى كل هذا الفقه .. والحب !

سعيد بن زيد

آباء الصحابة هم فى الاغلب وجدوا أهلهم على أمة من الشرك فباتوا على آثارهم مقتفين وبأوثانهم مكتفين ، فنشأ ابناؤهم على نشأتهم ، وحين آمن الابناء «الصحابة» واسلموا استكبر الاحياء من آبائهم وعادوهم بل قاتلوهم واضحى الآباء فريقا من ثلاثة . اما ماتوا على عنادهم فى فراشهم ، أو قتلوا على شركهم فى غزوات النبى صلى الله عليه وسلم ، أو أسلموا قبل أو بعد الفتح لما تبين لهم دين الحق وأدركوا أن ابناءهم سبقوا اليه .

غير أن الصحابى سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل كان من الحالات الاستثنائية . نشأة ووجهة لهما طابع خاص من جراء كون وضع أبيه زيد بن عمرو بن نفيل يختلف اختلافا كبيرا عن سائر المحيطين به . كان للاب تأملاته المتمردة الرافضة لجاهلية الجاهلين .

ومن أشهر عرب الجاهلية فى هذا المجال اثنان ، أحدهما ورقة بن نوفل والثانى زيد بن عمرو بن نفيل .

لم يرض ورقة بن نوفل عن الشرك وعبادة الاوثان فتهود ثم تنصر . وعندما هرعت اليه ابنة عمه خديجة بنت خويلد زوجة محمد بن عبد الله تنبأه بنزول الوحى على زوجها محمد قال ورقة « والذى نفسى بيده لئن كنت قد صدقتنى ياخديجة لقد جاءه الناموس الاكبر الذى كان يأتى موسى . وانه لنبى هذه الامة ، فقولى له فليثبت » ! ولم يلبث ورقة ان التقى بمحمد وعلم منه

المزيد فعاد يؤكد « والذى نفسي بيده انك لنبى هذه الامة فقد جاءك الناموس الاكبر الذى جاء موسى . ولتكذبن ، ولتؤذين ، ولتخرجن ، ولتقاتلن ! ولئن ادركت ذلك اليوم لانصرن الله نصرا يعلمه » ! ولكن ورقة مات قبل ادراك هذا اليوم .. ولم يعقب !

أما زيد بن عمرو بن نفيل رفيق ورقة بن نوفل فى ابائه الشرك ورفضه عبادة الاصنام ، فهو لارضى باليهودية ولا اتبع النصرانية . ثم لقيه رجل من النصارى حاوره وسبر غوره وفهمه فقال له « انت تلتمس دين ابراهيم » فسأله زيد « وما دين ابراهيم ؟ » قال « كان حنيفة لا يعبد الا الله وحده » فقال زيد « وهذا الذى اعرف ! وانا على هذا الدين . ولعلى انتظر نبيا يبعث فاؤمن به واصدقه ، فهل ترانى ادركه ؟! » ولكن هذا الموحد بالله والذى آمن بمحمد من قبل نبوته ورسالته لم يدركه ، ومات قبل البعثة بخمس سنين .

من هنا كان اسلام سعيد بن زيد بن عمرو اقرب الى أن يعتبر ممهدا ميسورا ، وهو باسلامه كأنما لا يسمو بروحه فحسب وانما يبر أباه كذلك !

مع السابقين الاولين أسلم سعيد بن زيد وزوجته فاطمة بنت الخطاب « ابنة عمه وشقيقة عمر بن الخطاب » وأحسسنا نذكر الواقعة الشهيرة التى تقدم ذكرها فى اسلام عمر حين علم بأن أخته فاطمة وزوجها سعيدا قد أسلما فجاءهما غاضبا ، وكاد يبطش بهما . ثم أخذ يقرأ الصحيفة التى كانت فى أيديهما تحمل آيات مباركات من سورة طه ، فلم يلبثا ان رأيا « الجبل » عمر خاشعا متداعيا من خشية الله ! وقصد عمر لتوه رسول الله

صلى الله عليه وسلم لا لينضم الى قافلة المؤمنين فحسب وانما في نهاية المطاف ليعز الله به الاسلام أيما عزة !

وهكذا كان اسلام سعيد بن زيد بن عم عمر بن الخطاب فالا حسنا مباركا - واية بركة - على مسيرة دين الله .

ولقد أسلمت مع سعيد ايضا اخته عاتكة بنت زيد التي جمعت الى دينها براعة الحسن حتى لقد عدت من اجمل جميلات العرب . غير ان هذا الحسن البارع الخارق لم يكن - فيما تعاقب عليها من زيجات وفيما افصحت عنه آخر الامر - فالا حسنا ! فلقد تزوجت عاتكة عبد الله بن ابى بكر ، وكان رهيفا شغف بها حبا وشغلته عن الجهاد مما حدا بابيه الصديق ان يامره بطلاقها فصدع للامر . ولكنه لما طلقها ذبل حبا وحنينا ووجدا ، وذوى حسرة على فراقها ، فاشفق عليه ابوه وخلى بينه وبينها فعاد اليها . ولكنه لم يلبث ان أصيب في معارك الطائف بجراح مافتئت تتحرك وتعاوده فمات عن « حسناء العرب » عاتكة بنت زيد في خلافة أبيه ! ثم بعد عبد الله بن أبي بكر تزوجت عاتكة ابن عمها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ومات عنها حين اغتيل رضي الله عنه . ثم تزوجها الزبير بن العوام - وكان زواج الصحابة بأرامل الصحابة ضربا من ضروب التكريم - فقتل الزبير ، وترملت عاتكة للمرة الثالثة . فلما بعث على بن ابى طالب يطلبها للزواج قالت : انى أضن بابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم عن القتل !

وفيما عدا غزوة بدر فقد شهد الصحابى الاصيل سعيد بن زيد كل الغزوات . اما فى أولاها فكان النبى

عليه الصلاة والسلام قد أوفده هو وطلحة بن عبيد الله في مهمة استطلاعية قبيل أيام من غزوة بدر فلم يشهداها واثبت عليه السلام لهما سهمهما وأجرهما فيها مثلهما مثل من شارك تماما .

وسعيد بن زيد بن عمرو هو أحد العشرة المبشرين بالجنة .

ذات صباح صعد النبى صلى الله عليه وسلم الى غار حراء ومعه أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعلي ابن أبي طالب وعثمان بن عفان وطلحة بن عبيد الله والزبير ابن العوام وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن مالك ابن ابي وقاص وأبو عبيدة بن الجراح وسعيد بن زيد « وهم العشرة المبشرون بالجنة » فتحرك حراء حراكا يشبه مقدمات الزلزلة . فقال النبى عليه السلام : اثبت حراء ! فانه ليس عليك الا نبي أو صديق أو شهيد ..

وعاش سعيد بن زيد زاهدا في كل شيء الا في ذكر الله والجهاد في سبيله .

وناضل في هدوء وتعفف وانكار ذات كأصغر جندى ابتغاء مرضاة الله .

ولكم كان هذا الصحابي الكبير عازفا عن المناصب الكبيرة .

ولعلنا نذكر هذا الجيش المظفر الذى بعث به أبو بكر الصديق فعمر بن الخطاب لفتح الشام بقيادة أمين هذه الامة أبي عبيدة بن الجراح وسيف الله المسلول خالد بن الوليد . لقد كان سعيد بن زيد مع عدد مثالي من الصحابة بين جنوده .

وحين تم لابي عبيدة فتح دمشق ولى عليها سعيد بن

زيد ، ومضى فى زحفه . فما كان من سعيد الا ان كتب اليه : اما بعد ، فاني ماكنت لاوثرك واصحابك بالجهاد على نفسي وعلى مايدنيني من مرضاة ربى . واذا جاءك كتابى فابعث الى عملك من هو أرغب اليه منى ! فانى قادم عليك وشيكا ان شاء الله ..

ولقد عز على سعيد بن زيد أن تفترى عليه امرأة فى اخريات ايامه حين شكته أروى بنت أوس الى مروان ابن الحكم وادعت عليه أنه غصب شيئا من حدود دارها . واستجار سعيد بن زيد بالله عز وجل : اللهم انها قد زعمت انى ظلمتها ، فاللهم اظهر من حقى نورا يبين للمسلمين انى لم اظلمها !

وامطرت السماء سيولا كشفت عن الحد الذى كانا يختلفان عليه ، فاذا سعيد قد كان فى ذلك صادقا ، وكفاه الله شر الكاذبين ، واحسن العزيز الرحيم ختامه كما أحسن بدايته .

وطوبى للابن البار والصحابى المختار سعيد بن زيد أن كان أحد العشرة المبشرين بالجنة .

وطوبى لابيه الصالح زيد بن عمرو بن نفيل دعوة النبى صلى الله عليه وسلم : غفر الله لزيد بن عمرو ورحمه ، فانه مات على دين ابراهيم ..

عثمان بن مظعون

لعل من المفيد أن نعرض لفضائل مختلفة من الصحابة لهم ، انها تتشابه فى الكثير ايمانا واحتسابا ، وعلما وجهادا ، ولكنها آخر الامر تمثل نماذج ونوعيات وأبعادا شتى .. وكل نموذج بمذاق وبصيرة !

والصحابى الذى نصحبه هنا اسمه عثمان بن مظعون .

هذا الصحابى انسان شديد الزهد بطبيعته الى درجة التطرف فوق التطرف .. كما سيجيىء .

وانسان عدو الخمر الى درجة التحريم قبل التحريم ، حتى لقد روى عنه أنه قال فى جاهليته : انى لا أشرب شيئا يذهب عقلى ، ويضحك بى من هو أدنى منى ، ويحملنى على أن أنكح كريمتى من لا أريد !! فلما أسلم ، ولما نزلت آية سورة المائدة فى الخمر قيل له : حرمت الخمر ! وتليت عليه الآية ! فقال : تبا للخمر ، قد كان بصرى فيها ثابتا !

وانسان جم الحياء الى درجة المبالغة . حتى لقد قال للنبى صلى الله عليه وسلم : يارسول الله ! انى لا أحب أن ترى امرأتى عريتى ! فسأله عليه السلام : ولم ؟ قال : أستحى من ذلك وأكرهه ! فقال الذى بعثه الله بشرا رسولا : ان الله جعلها لك لباسا وجعلك لها لباسا . وأهلى يرون عريتى ، وأنا أرى ذلك منهم ! قال : أنت

تفعل ذلك يارسول الله ؟ قال نعم !! قال : فمن بعدك ؟!
فلما انصرف عنه عثمان بن مظعون قال عليه السلام : ان ابن مظعون لحيي ستير !

وعثمان بن مظعون من اوائل من اسلموا . هو من « دفعة » عبد الرحمن بن عوف وابى عبيدة بن الجراح. وامسى - لسبقه وصلاحه وانطوائيته - محترما من الجميع . ومما يستلفت النظر أن الذين دخلوا مبكرين فى دين الله من آل مظعون كثار ، حتى لتذكر كتب السيرة أن من هاجر منهم باسلامه الى أرض الحبشة عثمان بن مظعون وابنه السائب بن عثمان ، ثم شقيقا عثمان .. عبد الله بن مظعون وقدامة بن مظعون . الاربعة من الصحابة ، والاربعة هاجروا الى الحبشة ثم هاجروا الى المدينة ولم يبق فى مكة من اهلهم احد رجال ونساء الا ديار مغلقة ! والاربعة شهدوا غزوة بدر ، فما أوعاها اسرة وما أزكاها صحبة ! قاتلوا فى بدر فما وهنوا فى ابتغاء القوم . وتعرضوا للموت فى ساحة الوغى فما ماتوا . غير أنه لم يمض الا قليل على شهود عثمان بن مظعون غزوة بدر مع صحابة النبي ومع آل مظعون حتى كان اول الراحلين ، فمات فى الشهر الثلاثين للهجرة - قبل غزوة أحد - وكان أول من دفن فى أرض المقابر « البقيع » التي اختارها رسول الله عليه السلام لهذا الغرض ، فى ضواحى المدينة المنورة .

وبكاه النبى عليه الصلاة والسلام ، وراح يقبل وجهه وهو مسجى أمامه حتى سالت دمعه على خد عثمان ابن مظعون . ولما شيعت جنازته اطرق النبى عليه السلام ثم قال : ذهبت ياعثمان ولم تلبس منها « من الدنيا » بشيء !

حتى هنا تنتهي حياة قصيرة أمضاها عثمان بن مظعون في عالم الصحبة وفي صفحات التاريخ . الا أن ثمة دروسا هامة واعظة في حياته الخاطفة المخطوفة تستاهل التامل .

أولا : لا رهبانية في الاسلام

ذلك أن عثمان بن مظعون اتخذ بيتا فقعد يتعبد فيه . فلما علم النبي بذلك قطع عليه عبادته تلك وقال له : يا عثمان ! ان الله لم يبعثني بالرهبانية ! « كررها عليه السلام ثلاث مرات » وان خير الدين عند الله الحنيفية السمحاء .

ثم ان زوجة عثمان بن مظعون دخلت على نساء النبي عليه السلام ذات يوم فرأينها سيئة الهيئة . فقلن لها : مالك ؟ وان زوجك لمن أغنياء قريش ؟ قالت : مالنا منه شيء ! اما ليله فقائم ، واما نهاره فصائم ! وحين أقبل النبي على ازواجه ذكرن له ذلك ! فلقيه عليه السلام فقال : يا عثمان بن مظعون ! أمالك بي أسوة ؟ فقال : بأبي وأمي ، وما ذاك ؟ قال : اأنت تصوم النهار وتقوم الليل ؟ قال : اني لأفعل ! قال عليه السلام : لا تفعل ! واني لآتي النساء ، وآكل اللحم ، واصوم وافطر ، واقوم وانام !

وأصاخ عثمان بن مظعون لتوجيهات نبي الله عليه الصلاة والسلام . وظهر رد الفعل ! الزوجة نفسها — زوجة بن مظعون — التي زارت ازواج النبي على هيئتها السيئة تلك ، عادت أليهن بعدها كأنها عروس ! فقلن لها : مه ؟ « اي ايه الحكاية » ؟ ! قالت : اصابنا ما أصاب الناس !

وقريب من هذا ماروى من ان الصحابى بن حنظلة بن الربيع رآه ابو بكر باكيا فساله الصديق : مابك ياحنظلة ؟ فقال : نافق حنظلة يا أبا بكر ! نكون عند رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكرنا بالنار والجنة فكأننا نراهما راى العين ، فاذا رجعنا عافسنا الازواج والضيعة ، ونسينا كثيرا ! فلما بلغ رسول الله ماكان من امر حنظلة قال عليه السلام : لو تدومون على الحال التى تقومون بها من عندى لصافحتكم الملائكة فى مجالسكم وفى طرقكم ! ولكن ياحنظلة .. ساعة فساعة !

ثانيا : القطع بدخول الجنة ؟!

حتى العشرة الذين بشرهم النبى عليه السلام بالجنة لم يستنيموا الى هذه البشرى ! بل عملوا لها وجدوا حتى آخر لحظة ، وكانوا يخشون عذاب الله أشد خشية . امير المؤمنين عمر بن الخطاب وهو المبشر المظفر ، الحاكم العادل ، العابد الزاهد روى عنه قوله : ولو قيل أن الناس جميعا دخلوا الجنة سوى واحد لخشيت أن أكون انا هذا الواحد !

ومع حزن النبى على موت عثمان بن مظعون وبكائه عليه فقد سمع امراته تتصايح امام جثمانه : هنيئا لك الجنة ياعثمان بن مظعون ! فنظر اليها رسول الله عليه السلام نظرة عتاب وقال لها : وما يدريك ؟ ! قالت : يارسول الله فارسك وصاحبك ! قال : والله أنى لرسول الله ، فما ادرى مايفعل بى ولا به ! ولقد جزع بعض الذين حضروا هذا الموقف وهالهم « اعتراض » رسول الله صلى الله عليه وسلم على « القطع بالجنة » لعثمان ابن مظعون الذى هو من افضلهم ، وكانما يخافون على

أنفسهم ضمنا . ولكن النبي عليه الصلاة والسلام كان يعلمهم الا يتصور احد أن اللوح المحفوظ ملك يمينه يقرأ فيه مايشاء ! وقال عليه السلام : بحسبكم أن تقولوا انه رحمه الله كان يحب الله ورسوله . ثم حين مات « الطفل » ابراهيم ابن النبى قال عليه السلام : ادفنوه الى جنب فرطنا وسلفنا الخير عثمان بن مظعون .

الدعاء للنفس أو للغير بدخول الجنة مشروع ومطلوب بالتأكيد ، أما القطع بأن فلانا من أهل الجنة ، فمسألة فيها نظر وعليها تحفظات !

أذكر أننى كنت بين جموع ركاب الباخرة « قندالا » المبحرة الى الحج سنة ١٩٤٥ م ، وكان يخطب فينا فوق متنها المرحوم الشيخ حسن البنا خطابا رصينا عظيما . ولم انخرط فى عضوية الاخوان المسلمين ، ولكننى كنت معجبا ببراعة الشيخ حسن البنا . وحين انتهى من خطابه سمعت جارى يصيح : الله يامولانا ! والله لا يوجد لك مثيل ولا فى الجنة ! وفى هدوء قلت له : يا أخى أن حبى للشيخ حسن البنا قد لايقل عن حبك له ، ولكن فلنترك أهل الجنة فى خالهم ولندع الله أن يحسن ختامنا ويكتب لنا الجنة . فأشاح صاحبنا وجهه عني مغضبا وهو يقول : ناس لا عندها نظر ولا سمع سامحه الله وسامحنا .

ثالثا : البكاء على الميت

فى مسألة كون الميت يعذب ببكاء الحى عليه ، لعل كانت لي اجتهادات حولها ترجح أن المقصود هو اشفاق الميت على الحى وليس العذاب بالمعنى المتعارف عليه . وهذه المسألة تتجدد هنا ، بل اكتشف أنها تكاد تحسم !

ذلك ان النساء حين بكين عثمان بن مظعون عنفهن عمر بن الخطاب . ويقول ابن عباس أن النبى عليه الصلاة والسلام اخذ بيد عمر وقال : مهلا ياعمر ! ثم التفت اليهن وقال : ابكين ، واياكن ونعيق الشيطان ! وأضاف قوله عليه السلام : انه ماكان من العين والقلب فمن الله ومن الرحمة ، وما كان من اليد واللسان فمن الشيطان !

رابعا : الموت والاستشهاد

تعالوا نقرأ هذا « النقد الذاتى » الذى يروى عن امير المؤمنين عمر بن الخطاب .. وما اثرى الذى يزودنا به عمر دائما من دروس وعبر . قال « انه لما مات عثمان ابن مظعون وفاة ولم يقتل هبط من نفسي هبطة ضخمة ؛ فقلت انظروا الى هذا الذى كان أشدنا تخليا عن الدنيا ثم مات ولم يقتل ! فلم يزل عثمان بتلك المنزلة من نفسي حتى توفى رسول الله عليه الصلاة والسلام فقلت ويك ! ان خيارنا يموتون ! ثم توفى أبو بكر فقلت ويك ! ان خيارنا يموتون ! فرجع عثمان بن مظعون الى المنزلة التى كان بها قبل ذلك !

هكذا ، فلنفوض الامر لله يقضى مايشاء .

ولله الامر من قبل ومن بعد « وما كان لنفس أن تموت الا باذن الله كتابا مؤجلا » ١٤٥ آل عمران . «من المؤمنين رجال صدقوا ماعاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر ومابدلوا تبديلا » ٢٣ الاحزاب .

القضية فى هذا الشأن هى كيف يكون المنتهى ، رزقنا الله واياكم حسن الختام ..

ابو ذر الغفارى

ملايين الملايين من الدنانير ! الذهب بالأطنان مشغولا وغير مشغول ! سبائك الفضة ومصنوعات الفضة تسد عين الشمس ! تيجان مرصعة بالدر والطنافس ! لآلىء وياقوت وزمرد وزبرجد وجواهر شتى وتترى !

نفائس وتحف وديباج وترف امبراطورية فارسية تداعت واستسلمت !

ذلكم بعض فيء وغنائم معركة المدائن التى تخر فيها ايوان كسرى ساجدا لقبضة ودعوة المسلمين العرب ! ذلكم مابعث به القائد المنتصر سعد بن ابى وقاص الى امير المؤمنين عمر بن الخطاب !

وعمر ينظر الى هذا الفىء الكثير النفيس المترف المطرح امامه ويبكى ، وينشج بالبكاء !

ويدهش « كبير المستشارين » عبد الرحمن بن عوف لبكاء عمر . ما يبكيك يا أمير المؤمنين ؟ فوالله ان هذا لموطن شكر !

بيد أن عمر غلبته فراسته ، وحاسته السادسة ، وتخوفاته من قابل الايام ، فما استطاع أن يغالب دموعه ! رمق عبد الرحمن بن عوف بنظرة ود واشفاق ، واجابه على سؤاله :

« والله ماهذا يبكينى ! وتالله ما اعطى الله قوما هذا الا تحاسدوا وتباغضوا ! وما تحاسد قوم الا القى باسهم بينهم » !

عبارة مؤثرة ، نافذة الذكاء والحكمة كأنها تستشف المستقبل ، وهى غنية عن اى تعليق !

وانما استعرت هذا المشهد التاريخى الاريب مدخلا للحديث عن صحابى اشتهر بالمواقف الحادة . بالتمرد والمعارضة والمقاومة .. وبالذات فى مجال تكديس الاموال وكنز الذهب والفضة دون انفاق بالعدل ، لاقدم للصحابى جندب ابن جنادة ابن كعيب الذى عرف بكنيته وثورته .. اعنى ابا ذر الغفارى !

ولقد كان الصدام الظاهر الحاد الذى سلكه ابو ذر هو صدامه الشهير مع معاوية بن ابى سفيان حـــاكم الشام فى خلافة امير المؤمنين عثمان بن عفان . والخـلاف قام حول تفسير وتطبيق آية من كتاب الله . اى فى المجالين الحيويين من اهتماماته ، واولهما التمســـك بكتاب الله وسنة رسوله حتى لا يعبأ بسواهما ، والثانى حب المساكين حتى يمكن « للتقريب » أن يقال ان نوازعه « اشتراكية » !

اختلف مع معاوية فى هذه الآية « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشـــرهم بعذاب اليم » ٣٤ التوبة .

قال معاوية : نزلت الآية فى أهل الكتاب .

وقال ابو ذر : نزلت فينا وفيهم ! ومافتىء ابو ذر يردد : ان خليلى « رسول الله عليه الصلاة والسلام » عهد الى أن اى مال ذهب او فضة هو جمر على صاحبه حتى يفرغه فى سبيل الله !

وشكا معاوية ابا ذر الى عثمان . وقال أن ابا ذر قد افسد الناس فى الشام ! ودرءاً للنزاع ، وبالحســنى

والتفاهم ، حدد عثمان اقامة ابى ذر ، فأصاخ له حتى حين !

على ان أبا ذر ظل مقيما ابدا على مبادئه فى التعاطف مع الفقراء والايمان بالعدالة الاجتماعية .

وفى الحق أن تاريخ أبي ذر من بدايته لنهايته كـان عجيبا عنيدا « مشاغبا » !

حتى قصية اسلامه .. لا تخلو من « شغب » !

كان قومه « غفار » يقطعون الطريق ويحلون الشـهر الحرام ، ولكنه هو على وجه الخصوص كان يمقـت الاصنام ويشهد الا اله الا الله .

وبعد فترة وجيزة جدا من بعث النبى صلى الله عليه وسلم ، ولم يكن قد أسلم الا عدد لا يجاوز أصابع اليد الواحدة ، بلغت الانباء أبا ذر ، وقيل له ان رجلا بمكة يقول مثلما تقول لا اله الا الله ويزعم انه نبى ! فسأل : من هو ؟ قيل : من قريش واسمه محمد ! فقدم مـكة ليستقصى حتى دله على النبى رجل من بنى هاشم فتوجه اليه عليه السلام وحياه وقال : انعم صباحا ! فقـال : وعليك السلام ! قال له أبو ذر : انشدنى ما تقول ! قال : ما أقول الشعر ، ولكنه القرآن . وما أنا قلته ولكن الله قاله : قال اقرأ على ! فقرأ عليه سورة من القرآن الكريم . فقال ابو ذر : اشهد الا اله الا الله وأشهد أن محمـدا رسوله . ولما علم النبى أن أبا ذر من غفار التى اشتهرت بقطع الطريق تفرس فى وجهه متعجبا ثم قال عليـه السلام : ان الله يهدى من يشاء !!

وبدأ ابو ذر « الشغب » !

خرج الى البيت الحرام ، فرأى امرأة تطوف بالبيت

وتدعو وتلظ في الدعاء : اعطني كذا ، وافعل بي كذا !
ثم بدلا من أن تتمتم بدعواتها بأن تقول يارب ، قالت
يا أساف ويانائلة « أرباب وثنية من دون الله » ! فلم
يستطع ابو ذر كتمان تعليقه « وكأن القافية تعذر ! »
فقال : انكحي أحدهما صاحبه !

وفي حنق مستفز أمسكت به وصرخت : هذا صابيء !
وتجمع علي صراخها فتية من قريش فأوسعوه ضربا !
وعاد أبو ذر للنبي عليه السلام يقول : يارسول الله ،
أما قريش فلا أدعهم حتى أثأر منهم .. ضربوني ! واخذ
يمارس هوايته « الغفارية » ! ممسكا بيده « قرن غزال »
راح يهاجم عير قريش فتنفر وتلقى بأحمالها من
الحنطة . واذ يبدأ أصحاب العير في جمع الحنطة
يتهددهم ابو ذر : لا يمس احد حبة حتى تقولوا لا اله
الا الله .. فيرضخون !

وبعد أن « ثأر » عاد الي رسول الله وسأله : يانبي
الله بماذا تأمرني ؟ قال عليه السلام : ترجع الي قومك
حتى يبلغك أمري ! قال أبو ذر : والله لا ارجع حتى أصرخ
بالاسلام في الكعبة ! فدخل اليها ونادى بأعلي صوته :
اشهد الا اله الا الله وأن محمداً عبده ورسوله ! فقام
اليه المشركون فضربوه حتى أغمي عليه . ومارجعوا عنه
الا بعد أن حذرهم العباس من أن أبا ذر من غفار
قاطعة الطريق ، وهم تجار ! والعجيب ان الشيء نفسه
« وبالضبط » عاد اليه وفعله أبو ذر في اليوم التالي
مباشرة بعناده وشغبه . هتف فضرب فأغمي عليه
فأنقذه العباس من مشركين تجار آخرين !

بعد هذه « المشاغبات » الطريفة التي احدثها أبو ذر

فى مكة رجع الى بلاده فاقام بها . ما سمع بغزوة بدر او احد او الخندق . ثم اخيرا رحل الى المدينة ، وشارك في سائر الغزوات ، ولزم صحبة رسول الله عليه الصلاة والسلام فلا يكاد يفارقه ، وكأنما أحس بندم شديد على ماضاع من أيامه بعيدا عن النبى فتفانى فى « تعويض » تلك الايام . يسمع عن النبى ويحفظ . ولمس عليه السلام صدق هذا الرجل مع نفسه ومع الناس ورغبته فى أن تشيع العدالة والمساواة بين عباد الله ، مع زهد فطرى فى دنيا الناس ، ومع سريرة نقية غير قابلة للفساد أو التغيير ، فقال عليه الصلاة والسلام : « ما اظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء من رجل أصدق من ابى ذر ! ومن سره أن ينظر الى زهد عيسى بن مريم فلينظر الى ابى ذر » !

كانت تلك اجمل واخصب واهدأ سنى حياة ابى ذر ، وابعدها أعتراضا وعجبا وشغبا .

كرس حياته لرسول الله عليه الصلاة والسلام ، فكما تروى أسماء بنت ابي بكر « ان ابا ذر كان يخدم رسول الله ، فاذا فرغ من خدمته آوى الى المسجد .. وكان هو بيته » !

صحابى « متفرغ » لصحبة رسول الله وخدمته والانصات اليه . فبم أوصاه عليه الصلاة والسلام ؟

يقول ابو ذر « أوصانى خليلى بسبع . امرنى بحب المساكين والدنو منهم . وأن أنظر الى من هو دونى ولا انظر الى من هو فوقى ، والا اسأل احدا شيئا ، وان أصل الرحم وان ادبرت ، وأن اقول الحق ولو كان مرا ، والا اخاف فى الله لومة لائم ، وأن اكثر من لا حول ولا

قوة الا بالله فانهن من كنز تحت العرش » .

على ان « المحنة » النفسية التى اعترت ابا ذر واعترضت طبيعته نستشفها في هذا الحوار الذي جرى بين رسول الله وبينه . سألنى النبى : كيف انت يا اباذر اذا كانت عليك امراء يستأثرون بالفيىء ؟ قال : اذن والذي بعثك بالحق اضرب بسيفي حتى الحق به ! فقال عليه السلام : افلا ادلك على ماهو خير من ذلك اصبر حتى تلقاني ! وواضح انه حوار يتعلق بالمستقبل بعد رحيل النبي عنهم . كما ان الصبر في هـذه الامور قد لا يتفق مع طبيعة ابى ذر التصادمية والمشاغبة . ومن هنا فان « ضبط النفس » المؤقت قد يكون مالوفا من الناس ، اما من ابى ذر فيلوح عجيبة من عجائبه ! ولكن ابا ذر على اى حال نسيج وحده غير الناس . الم يقل عنه نبى الله عليه الصلاة والسلام « رحم الله ابا ذر . يمشي وحده ! يموت وحده ! ويبعث وحده ! »

وبعد هذه السنوات « الهادئة » مع رسول الله ، تتحرك « المشاغبة الذرية » في خلافة عثمان رضى الله عنه . وابو ذر مشغول بهموم الفقراء وبملاحظـــة « المتغيرات » . لقى الصحابى أبو موسى الاشعرى ابا ذر فحياه مرحبا : يا اخى ! ورد ابو ذر في حدة واعتراض : لست باخيك ! انما كنت اخاك قبل أن تستعمل « أى تعمل للحكام » ! في حين انه لما لقى ابو ذر ابا هـريرة واطمأن الى انه لم يتطاول في البناء او يقتني الضياع رحب به وقال : انت اخى !

وكان حتما أن يموت ابو ذر كما تنبأ له النبى عليه السلام .. وحده ، وما ترك شيئا مذكورا ، ولكنه خلف

ثروة من الاحاديث الشريفة والقدسية التي رواها ، كما خلفت حياته العنيدة المشاغبة بذور ثورة اجتماعيـــة اقتصادية تتنازع عليها حتى الآن . فمن قائل انه داعية الاشتراكية بل « الشيوعية » !! ومن قائل انه داعيـــة الزهد والسمع والطاعة ولو لامير عبد حبشي ! وواقع الحال أن أبا ذر الغفاري حمل من غفار الحدة والتحدي ، واكتسب من الاسلام التعاطف مع الفقراء ، وتعلم من صحبة النبي الزهد والورع . وكان صادقا في كل ذلك كما وصفه النبي عليه السلام .

فلينم ابو ذر الغفاري ملء جفونه عن شوارده ـ أسوة ببيت شاعرنا ابي الطيب ـ وليســهر الخلق جراها ويختصم !

زيد واسامة

نقول الصدر والقلب ، ونعنى الراس والعقل « المخ » .. سيان ! نحن لا نبحث في علم وظائف الاعضاء ، وانما ننوه ـ على المشهور ـ بمشاعر الاحباء ! نحن لا نناقش قضية طبية ، بل نتفيىء احاسيس وجدانية عاطفية دينية ، سواء صدرت عن نبضات القلب أم ومضات اللب !

واشهد انني أسبح فى لجج من المحبة لا تبارى . وانما تشخص امامي وتتماوج وتغمرنى اذ أنتقل بين عشرات بل مئات الصحابة . واذا كان حبهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم قد قام على اساس عقائدي وشخصي ـ تعرفه الاديان والانسانية ـ حبا يصدر عن ايمان واعجاب ، واحترام وتقدير ، وامتثال لاوامره واجتناب لنواهيه ، واعتزازا بالصحبة ، فذلك كله مفهوم . أما الحب المعجزة حقا فذلك الذى كان يكنه ويعبر عنه ويفيض به رسول الله على مئات المئات من أصحابه بل نحو الانسانية جمعاء .

فبما رحمة من الله جعل سبحانه هذا القلب النبوى الكبير أوسع القلوب طرا . يسع حبه صحابته جميعا وكأن كل واحد منهم الاحب اليه ! يغدق عليهم كلهم من خلجاته الحميمة وكلماته الكريمة . بل يسع امته الانسانية بحبه الي مدى الدهر . ويمتد هذا الحب الى

الآخرة فهو الشافع المشفع فيها يوم يبعثه الله عز وجل المقام المحمود الذي وعده .

فاذا كان الصحابيان اللذان اتحدث عنهما هنا قد اشتهر كل واحد منهما ــ الاب والابن ــ بانه حنب « حبيب » رسول الله وكأنه « حب بالوراثة » ، فان هذا الحب ــ فيما قرات وفيما اثر ــ قد شمل جميع الصحابة .. وهو مهما تفاوت فقد بلغ الذروة أو تعداها !

أما الاول « الاب » فما كان يمكن أن تخلو منه هذه اللمحات عن الصحابة ــ سلام عليهم ورضوان الله عنهم ــ رغم أنها بالضرورة عاجزة عن أن تحيط بالصحابة الاجلاء جميعا ، وذلك من غير انتقاص « لقدر أى » من المتروكين . فانهم على العين والراس ، وان لهم اعتذارى واكبارى !

نعم ، ما أحسبني اتخطى زيد بن حارثة وهو « أول » من أسلم ، وهو الصحابى الوحيد المذكور بالاسم فى القرآن الكريم « فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها » ٣٧ الاحزاب ، ثم هو من هو فى قلب رسول الله عليه الصلاة والسلام .

البداية أن زيد بن حارثة ضل عن ركب أبيه واسر ، فكان هذا الضلال أو الاسر طريقه الى الهدى .. الى بيت خديجة بنت خويلد حيث وهبه لها ابن اخيها . وفرحت بزيد خديجة وزوجها محمد بن عبد الله واعتقاه . بل نسبه محمد الى نفسه ــ وكان عليه السلام يكبره بعشر سنين ــ واعلن أنه يورثه ، فبات يدعى زيد ابن محمد حتى نزل قوله تعالى « ادعوهم لآبائهم »

و « ماكان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين » فعاد له اسمه زيد بن حارثة . ولـكنه أبدا لم يعد لابيه حارثة حتى بعد أن وجده وطلبه ، اذ أبى زيد ، وآثر بيت محمد على بيت أبيه ، فرضي الاب واطمأن الى قول ابنه :

فانى بحمد الله فى خير اسـرة
كرام معد كابرا بعد كابر !

وكان لزيد سنوات وهو مقيم فى البيت الشريف حينما عاد محمد من غار حراء ينادى زوجه خديجة « زملونى » ويقص عليها قصة الوحي ، فتؤمن بنبوته وتسلم . ويعقبها زيد فيغدو هو الآخر أول من اسلم من الموالى ، ثم على ابن أبى طالب فيصبح أول صبى اسلم ، ثم أبو بكر أول من أسلم من الرجال .

وبقدر حب زيد للنبى عليه السلام وتفانيه فى خدمته، كان حب رسول الله لزيد واهتمامه بشئونه وبتزويجه وبتاميره فى سرايا القتال . ان اصالة الاخـلاص لله ورسوله ، وشهامة البسالة ، وبراعة الرماية .. صنعت من زيد مقاتلا جسورا وقائدا يعتد به ويعتمد عليه . حتى أن عائشة رضى الله عنها كانت تقول : مابعث رسول الله عليه السلام زيد بن حارثة فى جيش قط الا أمره عليهم !

حتى اذا كانت « مؤتة » فى السنة الثامنة للهجرة عقد النبى أمارتها لزيد بن حارثة ، فاذا أصيب فجعفـر ابن أبى طالب من بعده ، فاذا أصيب فعبد الله بن رواحة وكانت معركة ثقيلة حامية الوطيس . والقـادة فى المقدمة يحملون اللواء ، وهم على أرجلهم ولا يألون قتالا ،

وكأنما ينشدون الاستشهاد في سبيل الله . وبالفعل قتل الابطال الثلاثة تباعا « ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله امواتا ، بل أحياء عند ربهم يرزقون . فرحين بما آتاهم الله من فضله ، ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ، الا خوف عليهم ولا هم يحسرنون . يستبشرون بنعمة من الله وفضل ، وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين » ١٦٩-١٧١ آل عمران .

ويتهل رسول الله الى المولى عز وجل ، ويدعو للشهداء الثلاثة العظام . ثم يتناهى الى سمع النبى بكاء أجهشت به بنت زيد بن حارثة اسفا على أبيها ، فيبكى عليه السلام بل ينتحب ، فيسأله سعد بن عبادة : يارسول الله ما هذا ؟ فيجيبه : هذا شوق الحبيب الى حبيبه !

وهذا الشبل من ذاك الاسد !

ومن شابه أباه فى منزلة الحب فما ظلم !

كذلك كان موقع أسامة بن زيد بن حارثة من حب رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل أبيه زيد ..

كان عليه السلام يضع حفيده الحسن بن على بن أبى طالب على فخذه ، وأسامة بن زيد على فخذه الاخرى ، ويقول : اللهم انى أحبهما .. فأحبهما !

ونشأ أسامة فتى موهوبا مقداما يسبق عمره فراسة وفروسية ، ورجاحة عقل وشجاعة قلب .

واخذ يتدرب على القتال ويتفوق فيه .

فلما استشهد أبوه زيد ، وتوسم النبى فى أسامة ماتوسم ، أرسل النبى احدى السرايا المقاتلة وجعل أسامة أميرا عليها . وبلغ النبى أن اناسا يطعنون فى امارة أسامة ، فقال لهم عليه السلام : الا انكم تعيبون

أسامة وتطعنون فى أمارته . وقد فعلتم ذلك بأبيه من قبل . وان كان لخليقا للامارة ، وان كان من أحب الناس الى ، وان ابنه هذا من بعده لمن أحب الناس الى ، وانى لارجو أن يكون من صالحيكم فاستوصوا به خيرا !

وثمة ثلاثة مواقف هامة فى حياة أسامة ، ومن المفيد أن تروى لما فيها من دروس وعبر .

أما الاول ، ففى بدايات تجربة المقاتل أسامة بعثه النبى على جيش ، وعاد منتصرا الى رسول الله الذى استقبله متهلل الوجه وادناه منه ثم قال له : حدثنى ويقول اسامة : « واخذت احدث رسول الله عليه‌السلام، ثم قلت له فلما انهزم القوم ادركت رجلا واهويت « أشهرت » عليه بالرمح ، فقال الرجل لا أله الا الله .. فطعنته فقتلته ! فتغير وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : ويحك يا أسامة ، فكيف لك بلا اله الا الله ؟ فلم يزل يرددها حتى وددت أنى لو انسلخت من كل عمل عملته واستقبلت الاسلام يومئذ من جديد ! فلا والله لا أقاتل أحدا قال لا اله الا الله بعد ماسمعت رسول الله » .

فلا ينبغى ابدا أن نجترأ ونتعدى فنحكم ــ مهما كان ــ بكفر احد شهد الا اله الا الله ، فضلا أننا أصلا لا نملك صكوك غفران او حرمان !

أما الموقف الثانى فقد « تسبب » فى اهدائنا حديثا نبويا مبينا شهيرا زاد من وضع النقط فوق الحروف ، ومن تأكيد معنى المساواة التامة أمام القانون أو بالاحرى أمام شريعة الله .

وربما لهذا الموقع اللصيق الوثيق برسول الله ومن

« العشم » كان أسامة يأتي النبي في الشيء « اليسير الجائز » لعله يشفع فيه . وذات مرة سرقت امرأة من قريش فقالوا : ومن يجترىء فيكلم رسول الله فيها الا أسامة بن يزيد حبيب النبي . واستجاب لهم اسامة وكلم النبي بشأنها فعنفه : كيف تشفع في حدود الله ؟ ثم قام عليه السلام فخطب في الناس : انما هلك الذين من قبلكم أنهم اذا سرق فيهم الشريف تركوه ، واذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ! وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها !

ومن « التجربة والخطأ » نضج اسامة كأكمل مايكون النضج في جامعة رسول الله فهما لدين الله وذودا عن حياته .

وتأتي الى ثالث وآخر المواقف ..

عزم نبي الله على تسيير جيش لجب أعده من خيرة المسلمين المقاتلين لتامين تخوم شبه الجزيرة العربية من بلاد الروم المجاورة ، في اتجاه « مؤتة » و « تبوك » . وعهد عليه السلام الى أسامة بن زيد بقيادة هذا الجيش ليكمل مهمة ابيه الذي استشهد مع العديد من الصحابة في حدود الروم .

غير أن أجل رسول الله كان قد أقترب ومرض مرضه الاخير . فكان كلما افاق من الحمى نادى في أصحابه انفذوا جيش اسامة ! انفذوا جيش اسامة ! لكن اسامة كان قد علم بثقل المرض على رسول الله فتريث . فلما مات النبي عليه السلام عاد أسامة الى خليفة رسول الله أبي بكر الصديق يراجعه ربما عدل عن انفاذه .. وخاصة أن بعض الناس كانوا يستصغرون سنه ويتذمرون من

امارته للجيش . بيد أن ابا بكر صمم بغير تردد : ليتم بعث أسامة ! والله لو ظننت أن الطير تتخطفني لانفذت بعث اسامة كما امر به رسول الله ! ولو لم يبق في القرى غيري لانفذته !

وادى أسامة وجيشه المهمة على الوجه الامثل الذي اراده رسول الله ومن بعده خليفته الذى لا يعصى له امرا . عاد اسامة بعد قرابة شهرين ظافرا شاكرا ، سالما غانما من بعثته التي اختلجت بنصرها قلوب أهل المدينة المنورة فرحا واعتزازا واستبشارا .

ثم انضم أسامة بجيشه الي كتائب المسلمين في قتال مانعي الزكاة وفي حروب الردة فيحق الله الحق بكلماته وبجنوده .

ولم يكن « الصحابي الصغير » أسامة بعد ذلك كله قد اتم اثنتين وعشرين سنة من عمره .

سال عبد الله بن عمر بن الخطاب اباه أمير المؤمنين لماذا فضل عليه في العطاء أسامة بن زيد ؟ فأجابه عمر بصراحته ورضاء نفسه : فعلت ذلك لان زيد بن حارثة كان أحب الي رسول الله من عمر ، وأسامة بن زيد كان احب الي رسول الله من عبد الله بن عمر !

وكانما لا نكاد نتحدث عن صحابي حتى نجد أنفسنا نقف مشدوهين امام تلك « المؤسسة الاسلامية الكبرى » .. امام عظمة وجلال وتواضع عمر بن الخطاب !

عمار بن ياسر

الصحابة المكرمون هم جميعا في غنى عن كلماتي وكلمات غيري . نحن الذين نتشرف بالحديث عنهم . ولكن حتى متى اتخلى عن هذا الصحابي او اؤخره ؟

بعد ان كتبت عن الامام علي بن ابي طالب امير المؤمنين ما كتبته هنا ، لم تبرح « صورة » عمار بن ياسر تعاودني مرات ومرات وقد قاسمتها في خاطري الهموم والاحزان فأدعو لصاحبها بالرحمة والرضوان ، وامسك عن سائر الكلام ! ثم انتهيت الى انه لا يستقيم لي ولا يليق التخلي عن عمار بن ياسر بدعوى الاشفاق على نفسي ، فلكم اشفقت فكتبت ! انني ــ بالقطع ــ قديم الصلة بعمار ابن ياسر عظيم اللهفة عليه ، منذ ان طالعت السيرة النبوية ، و « شاهدت » مرور النبي على تلك الاسرة المعذبة ، و « سمعت » قوله عليه السلام « صبرا آل ياسر ، فان موعدكم الجنة » ، وبكيت لاستشهاد سمية أم عمار ــ من شدة التعذيب ــ وهي مكتوفة ترزح تحت براثن وطعنات ابي جهل ، وتفيض روحها لتمسى اول شهيدة في الاسلام .

انها تلك الشهور والسنوات الاولى عندما جهر رسول الله عليه الصلاة والسلام بالدعوة لدين الله في مكة فأسلم بضعة نفر ، ولاقى هؤلاء ــ وخاصة المستضعفين بينهم ــ من جبروت واضطهاد وتنكيل قريش بهم ماهو فوق التصور وفوق الاحتمال .

فاما اسرة ياسر التي بدت « عاثرة الحظ » فقدواجهت بالجملة انكالا وجحيما وعذابا مقيما ، ووحشية ضارية رهيبة . الاب ياسر مضطهد معذب فيريحه الله من وجوه المشركين ويختاره الى جواره ، والام سمية تعذب حتى الموت أمام أعين ابنها عمار . وهاهو ذا عمار يعانى عذابا نفسيا فوق العذاب البدني . يحرقه عتاة قريش بالنار كيما يقدح فى رسول الله ويذكر آلهتهم بخير ، فيضطر الى أن يفعل ذلك والدنيا تميد به ! عندئذ فقط يسمح له المشركون الجبابرة بفسحة من الوقت دون عنت ، ويفرجون عنه مؤقتا ، فيلقى رسول الله عليه السلام فيسأله : ماوراءك ياعمار ! فيقول : شر يارسول الله ! والله ماتركت حتى نلت منك ، وذكرت آلهتهم بخير ! فيقول له عليه السلام : فكيف تجد قلبك ؟ فيقـــول عمار : مؤمنا ! فتطيب نفس الرسول ويعزيه فيقول : فان عادوا فعد ! وتتنزل فى عمار بن ياسر « آية استثناء» فى قوله تعالى : « الا من اكره وقلبه مطمئن بالايمان » ١٠٦ النحل . فسبحان عالم الاسرار والسرائر ، الا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ؟ وهكذا فحينما قيل للنبي ان عمارا أكره على الكفر فكفر ، قال عليه السلام : كلا والله ان عمارا ملىء ايمانا من قرنه الى مشاشه ! هكذا تعاطف معه النبى بل أحبه كأنه بعض منه وقال عليه السلام : عمار جلدة مابين عينى وانفى !

ولله در عمار ! جسمه مثخن بالخروق وآثار الجراح ، وأذنه مقطوعة من التعذيب ، فى حين أن قلبـــه معلق بالمساجد ! كان أول من اتخذ في بيته مسجدا يصـــلى فيه المسلمون ! ثم فى المدينة المنورة يروى أبو ســـعيد

الخدرى أنه « لما أخذ النبى عليه السلام فى بناء المسجد جعلنا نحمل لبنة لبنة ، وجعل عمار يحمل لبنتين لبنتين ! فجئت فحدثنى أصحابى أن النبى صلى الله عليه وسلم راح ينفض التراب عن رأس عمار ويقول : « ويح ابن سمية .. تقتلك الفئة الباغية » !

هذه « النبوءة » التى هى أشهر ما فى تاريخ عمار ابن ياسر وأكثرها بعثا للشجن ظلت نبوءة معلقة لا يعرف أحد متى وكيف تجيىء !

يقاتل عمار المشركين البغاة فى بدر فلا تقتله الفئة الباغية !

يقاتل الكفار فى « أحد » وفى الخندق وفى كل غزوات النبى فلا تحل نهايته !

ويخوض الحرب الضروس ضد المرتدين فى اليمامة خلال خلافة أبى بكر الصديق ، ويقاتلهم أشد قتال ، ويتعرض للموت اياما وأسابيع ، فيظفر بهم ولا يظفرون ، ويحيا ويموتون !

ويشارك عمار فى طول المعارك الاسلامية وعرضها ، ويبلغ مع من بلغ الكوفة فلا يصرع هناك ، وانما يعينه امير المؤمنين عمر بن الخطاب واليا عليها !

وعمار العابد الزاهد البسيط بين المستضعفين فى مكة أول الاسلام هو نفسه عمار العابد الزاهد البسيط وهو امير الكوفة !

اذن متى وأين وكيف تجيء النهاية المأساوية ؟ متى تتحقق النبوءة ، فتقتل عمار « الفئة الباغية » ؟!

يحدث هذا حين يضرب المسلمون بعضهم رقاب بعض ، رغم التحذير الذى وجهه النبى لهم واشهد الله عليهم فى هذا .. اللهم فاشهد !

يجرى هذا الهول مع انطلاق الفتنة من عقالها بعد مقتل عثمان وخلافة على بن أبى طالب ، وبعد بث المفرضين الفرقة والاضطراب وقعقعة الاسلحة متاجرين بقميص عثمان والثأر لعثمان . وينساق الى الثأر ابرياء ، وينتظر الغنيمة من فى قلوبهم مرض من الخبثاء !

وها انا ذا أعود بقدمى وبقلمى الى مسرح الاحداث مرة أخرى ، الى واحدة من أشق المراحل الاسلامية وأوجعها، وكأننى اكرهت الى فتح صفحات الفتنة التعسة النكراء وقلبى مطمئن الى استنكارها !

ولم يكن على بن أبى طالب بقبوله المواجهة راغبا فى ان يدافع عن كرامة الخلافة الاسلامية التى تولاها بقدر ما كان يود أن يدفع الفتنة عن الامة الاسلامية .

ولكن الظاهر والقدر أنه كان لابد مما ليس منه بد !

ويعث على بن أبى طالب بابنه الحسن الى المدينة المنورة يستنفر الناس — ومن بينهم عمار بن ياسر — ضد الفتنة القائمة القاتمة ، ويستنهضهم لمناهضتها .

وكانت أم المؤمنين عائشة قد رحلت من المدينة الى العراق مع طلحة والزبير متأثرين بمقتل عثمان . . وقد شهرت الرماح والاسنة .

وقبل أن يتوجه ليلحق بعلى فى صفين خطب عمار بن ياسر فى الناس فى المدينة المنورة قائلا : « والله انى لاعلم أنها « اى السيدة عائشة » زوجة نبيكم فى الدنيا والآخرة ، ولكن الله ابتلاكم بهـــا ليعلم أتطيعونه أم تطيعونها » !

وليس بكاف أن يصف عمارا من وصفه من معاصريه بأنه كان رجلا طويلا بعيد ما بين المنكبين . لابد أن عمارا

كان صاحب بنية قوية ، وعافية ماضية غير عادية تتحدى الزمن والشيخوخة . ذلك وحده يفسر لنا كيف أنه وهو قد تعدى الثمانين من عمره لم يهجع الى داره حيث منتجع المسنين بل مضى يقاتل وكأنما يحتفظ بعنفوان الشباب ! فنحن نعلم بالتجربة ماذا تكون عليه — عادة — الطاقة والخلايا الحيوية لابناء مافوق الستين والسبعين في زماننا وربما في زمانهم . يلوح أن « النبوءة » أمدت عمار بن ياسر بحوافز معنوية وبدنية في ارتقاب تحقيقها .

وقد رأوا عمارا يوم صفين شيخا وفي احدى يديه حربة ترعد ، وفي الاخرى راية ، وهو يصيح « ان هذه الراية قد قاتلت بها بين يدي رسول الله عليه السلام ثلاث مرات ، وهذه هي الرابعة .. وان لم تكن أبرهن ولا انقاهن ! والله لو ضربونا وهزمونا حتى يبلغوا لعرفت أننا على الحق وانهم على ضلال ! الجنة تحت البارقة ! اليوم ألقى الاحبة .. محمدا وحزبه ! اللهم انى لا أقاتل الا أريد وجهك ، وأنا أرجو ألا تخيبنى وأنا أريد وجهك ! ائتونى بشربة لبن فان رسول الله عليه الصلاة والسلام قال لى ان آخر شربة تشربها من الدنيا شربة لبن » !

وتناول عمار اللبن — أو الكفن — وتقدم فى مواجهة جنود معاوية تأصابوه برمح قاتل كان هو فصل الخطاب !

أما على بن ابى طالب الذى كان عمار يقاتل فى صفه حين صرع ، فما التبس عليه الامر وما تأول ، وانما قال كرم الله وجهه : ان امرأ من المسلمين لم يعظم عليه قتل ابن ياسر لغير رشيد ، وان عمارا ليدور مع الحق أينما دار .

أما المعسكر الآخر فقد ارتعد وارتجف خوفا من النبوءة الشهيرة التي وقعت عليهم وغشيتهم ودمغتهم بالبغي ؛ فاخذوا يتأولون فيها .

أما عمرو بن العاص فقد تمنى فى قرارة نفسه أمنيــة لم يكتمها : والله لوددت انى مت قبل هــــذه بعشرين سنة !

أما الداهية معاوية بن ابى سفيان فقد سمع عبد الله ابن عمرو بن العاص يخاطب أباه : يا ابتى ! الم تســمع رسول الله عليه السلام يقول لعمار ويحك يابن ســمية تقتلك الفئة الباغية ؟ فأحال عمرو ابنه الى معاوية يرد عليه فقال معاوية : أنحن قتلناه ؟ انما قتله الذين جاءوا به ! !

وفى مجلس آخر بين ثلاثتهم جاءهم رجلان من جنود معاوية يتباهى كل منهما بانه قتل عمارا . فقــال عبد الله ابن عمرو بن العاص : ليطيب أحدكما نفسا لصاحبه فانى لاعلم أن النبى قال له تقتلك الفئة الباغية ! فاغتــاظ معاوية وقال لعمرو بن العاص : الا تغنى عنا مجنــونك هذا ياعمرو ؟ ! ثم التفت الى عبد الله بن عمرو وسأله : فما شأنك معنا ؟ قال عبد الله : ان ابى شكانى الى رسول الله ، فقال عليه السلام : أطع اباك حيا ولا تعصه ، فانا معكم ولست اقاتل !

وهكذا يدور الحوار بين التأول والتنصل ، وبين الاحكام والافحام !

وويح ابن سمية .. وويحنا !

صهيب الرومي

فارق كبير بين أن يسخر قوم من قوم ، وبين أن يداعب الناس بعضهم بعضا ويتلطفوا . السخرية من السير استعلاء مكروه منكور ، والدعابة ترويح حميد مشكور . الاولى تنوشها سحابات سوداء ، والثانية تشيع بأجواء وردية صحية مرحة ، بواحدة قد تخسر الصداقات قواعدها ، وبأخرى تطيب وتحلو المجالس .

ثم ان طبيعة التجهم والتوتر والصرامة تضيق بهـا الحياة ولا تتحملها ، واذا كان النبي صلى الله عليه وسلم قد قال لحنظلة ـ كما تقدم ـ ساعة فساعة ، فان التجهم غير مطلوب له ساعة ولا نصف ساعة ، وانما المقصود ساعة في ذكر الله والعلم والتعبد ـ وذلك كله له قداسته وبشاشته ـ وساعة في شئون الاسرة !

وقد كان عليه الصلاة والسلام يداعب أصحابه ويسعد بالمداعبة . ربما لم يؤثر عنه الكثير في ذلك ، لان الاهتمامات الكبرى هي بالضرورة مركزة في الرسالة والدعوة ، ولكن القليل الذي يروى يكشف عن هذا الجانب المتكامل في شخصية البشر الرسول عليه السلام .

يروى ربيعة بن عثمان أن اعرابيا أتى رسول الله عليه السلام فدخل المسجد وأناخ بناقته في فنائه . وبدأ الصحابة يدبرون مايمكن أن يعد واحدا من « المقالب الطريفة » ! قالوا لزميلهم نعيمان بن عمرو : لو نحرت الناقة فأكلناها ، فانا قد اشتهينا اللحم ، ثم نغرم رسول الله ثمنها !!

ونحر نعيمان الناقة ! ولما انتهى الاعرابى من لقـــاء النبى عاد الى ناقته فوجدها قد نحرت ، فأخذ يتصايح: واعقراه يامحمد ! فخرج النبى على صياحه ، وسأل : من فعل هذا ؟ قالوا : نعيمان ! وكان نعيمان قد استخفى فعثر عليه النبى وسأله ماحملك على هذا ؟ قال : الذين ذكروا اسمى، أمامك يارسول الله هم الذين أمـــرونى ! وببساطة ، وباستملاح للمفارقة ، جعل النبى يمسح وجه نعيمان ويضحك ! ثم غرم النبى بالفعل ثمن هذه المأدبة الشهية !

بل ان النبى عليه الصلاة والسلام فعل مانفعله نحـن احيانا على سبيل المزاح ، وهو أن نحتضن احد الناس من خلفه ونعصب عينيه بأيدينا « ليحزر » من الذى امسك به ! فعل النبى ذلك مع رجل من اهل البادية كان عليه السلام يحبه . فقال الرجل : من هذا ؟ دعنى ياهذا .. من انت ؟! ! فلما التفت الرجل وعرف النبى عليـه السلام أخذ « يتمسح » فى النبى ويتبرك به ! واسترسل عليه السلام فى المزاح قائلا وهو ممسك بالرجل : من يشترى العبد ؟!! فقال الرجل : يارسول الله .. اذن والله تجدنى كاسدا ! فطيب النبى خاطره وقال له : بل انت عبد الله غال .

ثم ذلك الحوار الطريف المعروف بين عجوز أتت النبى تقول : يارسول الله : ادع الله أن يدخلنى الجنة قال : يا أمى .. ان الجنة لا تدخلها عجوز ! فـولت المــرأة تبكى : وابتسم عليه السلام وقال : لا تدخلين الجنة وانت عجوز . الم تر أن الله يقول « انا انشأناهن انشـــاء ، فجعلناهن أبكارا ، عربا اترابا » ؟!

كان ـ عليه السلام ـ يمزح ولا يقول الا حقا ..
وانما تطرقت الى هذه الزاوية ـ زاوية المزاح والدعابة ـ لان الصحابى صهيب بن سنان « الرومى » قد عرف بالدعابة والمزاح وخفة الظل . وقبل أن أستطرد فينبغى القول أن بديهته الحاضرة والفكهة لم تكن لتصرفه عن جديته ، أو تقلل من تعبده وجهاده . انما أمثال هؤلاء فضلا عن موهبتهم فى ارتجال « النكتة » ـ كارتجال الشعر على السليقة ـ فانهم عادة يتخذون من الدعابات سبيلا للترويح عن النفس ولتحمل أعباء الحياة .

ولنتمثل بموقفين او ثلاثة كان يبعث فيها صهيب هذه الروح المرحة ، ثم نمضى الى مواقفه الجادة .

أصيب صهيب ذات مرة برمد فى عينيه ، وبينما هو فى طريقه مر بالنبى عليه السلام وكان نازلا القباء ومعه بعض الصحابة وفى أيديهم رطب وتمر يأكلونه ، فجلس صهيب وأخذ يأكل . فقال له النبى عليه السلام : أتأكل التمر وانت ارمد ياصهيب ؟ فقال صهيب : انا آكل بشق عينى الصحيحة ! فضحك النبى حتى بدت نواجذه ... اعجبته النكتة !

وكان عمر بن الخطاب من أقرب الناس الى صهيب ، يحب مجالسته .. ومشاكسته ! قال له عمر يوما : اى رجل انت ياصهيب لولا خصال ثلاث فيك ! قال : وما هى ؟ « وكأنما يعنى أن يقول لعمر يافتاح ياعليم ... ابتدبنا ! » قال عمر : أنت اكتنيت ابا يحيى وليس لك ولد ! وانتميت الى العرب وانت من الروم ، تتكلم بلسانهم « كان فيه لكنة » . والثالثة أن فيك سرفا فى الطعام . فقال صهيب : أما الكنية فان رسول الله عليه السلام

هو الذى كنانى أبا يحيى ! وأما النسب فانى من النمر ابن قاسط سبتنى الروم من الموصل وانا غلام ، وقد عرفت نسبى ! وأما سرف الطعام فانى قد سمعت رسول الله يقول : خياركم من اطعم الطعام !

ويبدو أنه كان أخصائيا فى الطعام ..

روى انه صنع طعاما لرسول الله وأتى له به وهو جالس بين نفر من الناس ، فأومأ صهيب اليه « أى أن طعامك جاهز يارسول الله » فأشار اليه النبى وكأنما يسأل عن نصيب هؤلاء من الطعام ! ويقول صهيب « فهممت اليه ان هؤلاء ليسوا فى حسابى » فسكت رسول الله ولم يسأل عنى ! وتكرر هذا مرتين أو ثلاثا واخيرا استسلم صهيب وجازف ، وتقدم بالطعام اليسير الذى صنعه لرسول الله فوضعه أمامه وأمام النفر الجالسين . ومن العجب ــ والبركة ــ أنهم اكلوا جميعا .. الطعام كفى وفاض !

فى سن البلوغ فر صهيب بن سنان من الروم الذين اسروه . وساقته مقاديره الى مكة حيث حالف عبد الله ابن جدعان ، وأقام معه حتى مات ابن جدعان .

وعاش صهيب من بعده بين المستضعفين فى مكة . والطيور على أشكالها تقع أو بالاحرى تحلق ! فلقد التقى صهيب بمستضعف آخر هو عمار بن ياسر على باب دار الارقم ورسول الله فيها ، فسأله عمار : ماتريد ؟ فأجابه صهيب بطريقته : اذا قلت لى ماذا تريد أنت ، قلت لك ماذا أريد انا ! قال عمار : اردت أن أدخل على محمد فأسمع كلامه . قال صهيب : كأنك تقرأ مافى نفسى ! ودخلا معا فأسلما معا .. والمسلمون آنذاك لا يتجاوزون نيفا وثلاثين رجلا .

ولانهما من المستضعفين ، ولانهما أسلما ، فقد تفننت قريش فى تعذيبهما .. وان جاء عذاب عمار اشد .

ولما اراد صهيب الهجرة الى المدينة قال له اهل مكة : أتيتنا هاهنا صعلوكا حقيرا ، فكثر مالك عندنا ، وبلغت مابلغت ، ثم تنطلق بنفسك ومالك ؟! قال : أرأيتم ان تركت مالى تخلون سبيلى ؟ قالوا : نعم ! فخلع عليهم ماله كله وخرج مهاجرا . وفى المدينة ومع وصول صهيب علم رسول الله بما جرى بينه وبين قريش فحياه قائلا : ربح البيع ياصهيب ! ربح البيع يا أبا يحيى ! ونزلت فى صهيب الآية الكريمة « ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله ، والله رءوف بالعباد » ٢٠٧ البقرة .

ولم تكن هذه الاية وحدها ماتنزل حول صهيب من قرآن كريم . بل ثمة موقف آخر عاتب الله نبيه فيه ، وكان صهيب مع عمار وبلال وخباب بن الارت ــ وهم من ضعفاء المسلمين ــ سبب هذا العتاب . ذلك أن هؤلاء كانوا يجلسون فى حضرة وحمى وصحبة النبى عليه السلام حين مر بالنبى ملأ من قريش قالوا له : يامحمد .. أرضيت بهؤلاء من قومك ؟ أفنحن نكون تبعا لهؤلاء ؟ اطردهم عنك ، فلعلك ان طردتهم اتبعناك ! فوقع فى نفس النبى من ذلك شيء حدث به نفسه فأنزل عز وجل قوله « ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ، ماعليك من حسابهم من شيء ، ومامن حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين . وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا ، أليس الله بأعلم بالشاكرين » ٥٢ــ٥٣ الانعام .

ولقد شهد صهيب بن سنان الرومى بدرا واحـــد والخندق والمشاهد كلها مع النبى ، وكان عليه السلام يقول عنه : صهيب سابق الروم .

وما كانت « لكنة » صهيب فى العربية معيبـــة بل محببة ، خفيفة .. فيها من خفة روحه وظرفه . ولكم صلى صهيب بالناس اماما يتلو آيات الله « بلسان عربى مبين » . ثم أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب لمن طعـن امر ان يؤم صهيب الناس فى صلاتهم ثلاثة ايام ، راوصى ان يصلى صهيب عليه يوم تفيض روحه .

وصلى صهيب يومها صلاة الجنازة على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، وظل صهيب ما بقى من أيام عمـره وهو يتحدث ويروى عن صاحبه وحبيبه عمر ، ويثرى كتب التراث بالحكايات واللقطات .

سلمان الفارسى

« وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السماوات والارض ، وليكون من الموقنين . فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربى ، فلما أفل قال لا احب الافلين . فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى ، فلما أفل قال لئن لم يهدني ربى لأكونن من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر ، فلما أفلت قال ياقوم انى برىء مما تشركون . انى وجهت وجهى للذى فطر السماوات والارض حنيفا وما انا من المشركين » . ٧٥\٧٩ الانعام .

« ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا ان الله يفصـــل بينهم يوم القيامة ، ان الله على كل شيء شهيد » ١٧ الحج .

صدق الله العظيم .

حكاية المجوسى النصرانى المسلم الصحابى الذى نعرض له هنا واحدة من عجائب الحكايات فى البحث عن الذات التى فى أعماق صاحبها ، بل فى البحث عن الذات العلية الالهية .. تباركت وتعالت .

اسم صاحب الحكاية وراويها « سلمان » . والمولد والنشأة بلاد فارس ، فغلبت فى لقبه نسبته الى موطنه الاصلى لانسبته الى أبيه الذى كان سيد قرية من قرى أصبهان ، ومن هنا بات اسم الفتى سلمان الفارسى . والسنوات التى عمرها « هذا الفتى » فى الدنيا كانت طويلة .. وطويلة جدا جاوزت المائة بكثير !

وكان الاب مفتونا بابنه سلمان ومشغولا به ، حتى لقد حبسه فى البيت خادما للمجوسية ، مجتهدا فيها ، يلزم النار الموقدة . يغذيها فلا تخبو ألسنتها ، وتغذيه طقوسها فلا يألو فى عبادتها ! ثم طرأ ما حدا بأبيه أن يبعث به الى ضيعة له حتى حين . وبينما سلمان فى طريقه للضيعة صادفته كنيسة نصارى سمع صلاتهم فيها فراقت له وأعجبته فأنسته البيت والضيعة واحتجزته ليلة أو اثنتين . ثم سأل رهبانها عن السبيل للوصول الى هذا الدين المسيحى من منابعه ، فقيل له بالشام . والتحق فى الشام بأسقف كنيسة يصلى معه ويخدمه ويتعلم منه المسيحية التى رغب فيها . غير أن الاسقف كان سيئا فى طويته يسرق أموال الصدقات ويكنزها لنفسها حتى مات عليها فكشف سلمان سره . ولم تكن فجيعة الناس فيه أقل من فجيعة سلمان ، بل استشاطوا غضبا حتى أنهم صلبوا جثمان الاسقف اللص ورجموه بالحجارة . وجاءوا بخلف صالح بالفعل زاهد راغب فى الاخرة أحبه سلمان وأنزله منزلة الوالد . فلما حضرته الوفاة دل سلمان على راهب صالح مثله فى الموصل . وهكذا سنوات متصلة وسلمان ينتقل من كنيسة بلد الى كنيسة بلد اخر ، حتى انتهى به المطاف عند رجل شديد الصلاح فى عموريه من أرض الروم أقام معه يفلح الارض ويقتنى الدواب . وحين احتضر الراعى الصالح سأله سلمان كعادته الى أين يتجه ؟ فقال له : والله ياسلمان ما أعلم انه أصبح فى الارض أحد على ماكنا عليه آمرك أن تأتيه . ولكنه قد أظلك زمان نبى يبعث بدين ابراهيم الحنيفية . يخرج من أرض مهاجرة

ذات نخلٍ . فان استطعت أن تخلص اليه فاخلص ! وان به آيات لاتخفى . انه لايأكل الصدقة وهو يأكل الهدية. وان بين كتفيه خاتم النبوة ، فاذا رأيته عرفته . وسافر سلمان مع ركب مقابل ماكان يملك من الدواب . وساروا به الى وادى القرى فظلموه وباعوه لرجل يهودى اشتراه منه يهودى آخر من بنى قريظة خرج بسلمان حتى بلغ يثرب . فأحس سلمان بل أيقن أنها البلدة التى أشار اليها صالح عموريه والتى تشهد أنوار النبوة والحنيفية. لكن « العبد » سلمان غرق فى « أشغاله الشاقة » لدى يهودى بنى قريظة فلم تترام الى سمعه البعثة المحمدية حتى كان ذات يوم واذ به يسمع حوارا صاخبا بين اليهودى الذى اقتناه وجار له حول هذا الذى « يزعم » أنه نبى وقد جاء الى قباء بالمدينة . ولما اراد سلمان استقصاء الخبر عاجله سيده بلكمة طرحته أرضا . وحذره من السؤال وأمره أن يهتم بما هو مسخر له من عمل فحسب ! بيد أن سلمان غافل اليهودى وانفلت حتى بلغ رسول الله عليه السلام ليتحقق من الدلالات الثلاث على نبوءته والتى أخبره بها صالح عموريه ، فلما تبين له بكى سلمان . واعتنق الاسلام بعد النصرانية والمجوسية من قبل . غير أن الرق ظل يقيد عنقه ويقيد حركته ففاتته بدر واحد . ثم ذهب الى رسول الله يشكو حاله . فمازال به عليه السلام يوجهه حتى تجمع لسلمان من بركات النبى واعانات الصحابة ما وفى قيمته مقابل العتق ، فاعتق اليهودى به سلمان . وعاد الذى كان سيدا فى قومه سيدا فى الاسلام . بل ان المهاجرين والانصار عندما تنازعوا على سلمان ، هؤلاء يقولون سلمان منا ، وهؤلاء كذلك ،

حسم النبي عليه السلام الامر فقال : سلمان منا أهل البيت ! وأخذ نجم سلمان يعلو في الاسلام والصحبة حتى قال فيه على بن ابى طالب : سلمان علم الاول والاخر ، وهو بحر لاينضب !

فاتت سلمان – كما تقدم – غزوة بدر وأحد . ولكنه ابتداء من الغزوة التالية حتى آخر الغزوات شارك وعوض مافاته . بحسبه أنه « مهندس » غزوة الخندق في السنة الخامسة للهجرة . وهو الذى أشار بحفر الخندق من حصيلة تجاربه الفارسية الماضية . وكما قال عليه السلام ان « صهيب سابق الروم » قال « سلمان سابق الفرس » .

وكان « خندق سلمان » الذى حفره المسلمون في ستة أيام حول المدينة المنورة لغزوة الخندق (الاحزاب) وشارك النبى في حفره وفى تحصين المدينة ، كان هذا الخندق مفاجأة غير متوقعة أربكت قريشا رغم جيوشها الجرارة ، وغيرت مصير المعركة « ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا ، وكفى الله المؤمنين القتال ، وكان الله قويا عزيزا . وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم ، وقذف فى قلوبهم الرعب ، فريقا تقتلون وتأسرون فريقا . وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطأوها ، وكان الله على كل شيء قديرا » ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ الاحزاب .

ولان النبى عليه السلام آخى بين سلمان الفارسى وأبى الدرداء ، فقد اتصل الحوار بينهما ، شاهد سلمان أبا الدرداء ، وقد قام ليلة الجمعة وصام يوم الجمعة ، فقال له : كل ! فقال : انى صائم ! فلم يزل يدفعه للافطار حتى أفطر ، ولم يكمل صيامه . واحتكما الى

النبى فقال عليه السلام لابى الدرداء : عويمر سلمان أعلم منك ! لاتخص ليلة الجمعة بقيام بين الليالى ولا تخص يوم الجمعة بصيام بين الايام !

وبعد سنوات طويلة اقام سلمان فى العراق كما أقام أبو الدرداء فى الشام فكتب الثانى الى الاول يقول : ان الله رزقني بعدك مالا وولدا ، ونزلت الأرض المقدسة! فرد عليه سلمان : أعلم أن الخير ليس بكثرة المال والولد، ولكن الخير أن يكثر حلمك وأن ينفعك الله بعلمك . ثم أن الارض المقدسة لا تقدس أحدا ! فاعمل كانك ترى ، واعدد نفسك فى الموتى !

وكان سلمان الفارسي من أزهد الناس طرا ، وكان لسان هذا المعمر هو مانظمه أمير الشعراء أحمد شوقي:

فمن يغتـــر بالدنيـــا فانـى
لبست بهـــا فابليت الثيـــابا !
فلم أر غـير حكم الله حـــكما
ولم أر دون باب اللـــه بـــابا
وان البر خـير فى حيـــاة
وأبقى بعـــد صاحبـــه ثوابا

كان الخلفاء الراشدون يجلونه ويبجلونه . وكان عطاؤه خمسة آلاف درهم . الا ان سلمان كان يتصدق بها ويفرقها كلها ، ويأكل من عمل يديه فى صنع الخوص .

عاد الى المدائن ــ فى فارس (العراق) ــ بعد الفتح الاسلامي لها وولى أميرا عليها ، فما أحس الناس أنه أمير المدائن من شدة تواضعه ومن بساطة مسكنه وردائه وطعامه .

وعندما نزل الموت بهذا الصحابى « الاسطورة » قيل له : مايبكيك ، وان رسول الله عليه السلام توفى وهو

عنك راض ، ولسوف تلاقى أصحابك ، وترد عليـــه الحوض باذن الله ؟ قال سلمان : أما والله ما أبكى جزعا من الموت ولا حرصا على الدنيا . ولكن أبكى لامر عهده الينا رسول الله فأخشى الا نكون حفظنا وصيته بيننا اذ قال عليه السلام ليكن بلاغ احدكم من الدنيــا كزاد الراكب !

رحلة طويلة عجيبة قطعها ســـلمان من فارس الى المدينة ثم الى فارس فى خاتمة المطـــاف حيث مات فى المدائن . كان سلمان يبحث عن ذاته وعن الذات الالهية ، خلال تلك الرحلة المعمرة . تخلى عن المجوســــية والنصرانية ، واعتنق الاسلام والحنيفية ، وصحب نبى الله ، فهدات ذاته وذابت فى الذات الالهية .

بعد أن مات سلمان الفارسى يقول عبد الله بن سلام انه رآه فى المنام فسأله : كيف أنت ياسلمان ؟ قال : بخير حال ! فسأله أى الاعمال وجدتها أفضل ؟ قال سلمان العجيب : وجدت التوكل شيئا عجيبا !

وحسبنا الله ونعم الوكيل ، عليه توكلنا واليه ننيب.

جعفر بن ابى طالب

الثلاثة من احب الخلق الى سيد الخلق صلى الله عليه وسلم .

والثلاثة ماتوا شهداء ، بل ان اثنين منهم استشهدوا على التعاقب فى معركة واحدة .

والثلاثة « الشهداء » تنازعوا على ابنة شهيد .. ايهم يكفلها ، وعلا صوتهم حتى أن النبى عليه السلام كان نائما على مقربة منهم فاستيقظ ، وخرج اليهم ليقضى بينهم .

أما الثلاثة فهم : على بن ابى طالب وزيد بن حارثة وجعفر بن أبى طالب .

كان على قد عثر فجأة على ابنة سيد الشهداء حمزة ابن عبد المطلب هائمة فى الطريق تبدو وقد ضاقت بنمط واسلوب معيشتها حيث كانت ، فحملها على الفور الى بيته حيث زوجته فاطمة ابنة النبى . وعلم زيد بن حارثة بذلك فابى الا أن يضمها اليه . كما عز على جعفر بن أبى طالب الا يكون هو الفائز بها الكافل لها . فاختلف الثلاثة حولها وتحاوروا وتشاحنوا وتمسك كل بأحقيته حتى طلع عليهم الذى حكم بينهم بالعدل عليه السلام .

قال على بن أبى طالب : انني من وجدها ، وهى ابنة عمى .. وانا أولى برعايتها .

وقال زيد بن حارثة : هى ابنة « أخى » ، وهى فى منزلة ابنتى بين أبنائى .

وقال جعفر بن أبى طالب : ان ابنة حمزة هى ابنة عمى ، ثم ان زوجتى خالتها ، فبيتى بيتها .

ورنا النبى الى الثلاثة وطيب خاطرهم بكلماته الودودة الرشيدة ، وحيا مروءتهم ، وأثنى عليهم بما هم أهل له وبما هو ماثور عنه نحوهم ، وأكد ماليس خافيا من اعزازه الكبير للثلاثة . ثم رأى بعد أن سمع حججهم فى الفوز بابنة حمزة أن يقضى بها لجعفر بن أبى طالب بحيثية انسانية محكمة (بضم الميم) من كلمتين : الخالة والدة !

وما أن سمع جعفر بحكم رسـول الله حتى ازدهاه الفرح والطرب ، وأخذ يدور حول النبى فيما يشـبه « الرقص » فتعجب عليه السلام وسأله ماهذا ياجعفر ؟ فتوقف جعفر وخشع وقال فى استحياء : شىء رأيت أهل الحبشة يحيون به ملوكهم !

ولقد أسلفنا الحديث عن على بن أبى طالب وزيد بن حارثة ، ويبقى جعفر بن أبى طالب .

وكان جعفر قد عاد الى المدينة قبيل تلك الحكاية . من هجرته الطويلة بالحبشة ، وصادف يوم عودته يوم فتح خيبر . فلما رآه النبى أمامه بعد طول غياب ، وكأنما طويت المسافات او انشقت الارض عنه فجـأة هرول اليه وعانقه وأخذ يقبل مابين عينيه ويقول : ماأدرى بأيهما أفرح .. بقدوم جعفر أو بفتح خيبر ؟

ولقد تقول الامثال «البعيد عن العين بعيد عن القلب» غير أن هذا ليس صحيحا على اطلاقه وخاصة مع خير الانام الذى هو صاحب انبل قلب . ان السيدة خديجة ظلت بعد احتجابها بالموت لسنوات امتدت حتى لحق بها زوجها عليه السلام حاضرة فى وجدانه انسا وحنينا

وتقدما فى الحب على سائر الزوجات الاحياء .. وأن جعفر بن ابى طالب هو الاخر ظل ماثلا فى قلب النبى لم يتحول عنه مع تحوله بهجرته الى الحبشة الى أن عاد بعد قرابة خمس عشرة سنة فى العـام الهجـرى السابع .

اسلم جعفر بن ابى طالب ـ ابن عم النبى ـ فى مرحلة جد مبكرة قبل دخول النبى دار الارقم بمكـة ودعوته فيها . ومع الفيض الايمانى التوحيدى الاسلامي الذى تشربه جعفر ومع نصـيحة النبى له بأن يتفادى أذى المشركين المتصاعد وأن « يجرب حظه » فى ارض الله الواسعة هاجر جعفر مع من هاجر الي الحبشة فيالهجرة الثانية اليها . وقد اطمأن النبى واطمأنوا الى سـماحة نجاشي الحبشة وحسن سـمعته وضيافته وكونه بنصرانيته الصافية أقرب مودة بالفعـل الى الذين آمنوا .

ولم يترك المشركون المسلمين فى الحبشة على حالهم ، بل تعقبوهم يبغون الوقيعة بينهم وبين النجاشي . ودار حوار بين الجانبين أمام النجاشي حول الاسـلام والمسيحية ومحمد وعيسى . وكان قطب المشركين آنذاك عمرو بن العاص ، وتصدى له من جانب المسلمين جعفر ابن أبى طالب فأفحمه .. وبهر النجاشى !

انني أجتزيء من الحوار بهذه الكلمات الرصينة التي القاها جعفر بين يدى النجاشي .

« أيها الملك ! كنا قوما أهل جاهلية نعبد الاصنام وناكل الميتة ونأتى الفواحش ونقطـع الارحام ونسيء الجوار ويأكل القوى منا الضعيف . فكنا على ذلك حتى بعث الله الينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته

وعفافه . فدعانا الى الله لنوحده ونعبده ونخلع ماكنا نعبد نحن وأباؤنا من دونه من الحجارة والاوثان . وأمرنا بصدق الحديث واداء الامانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحرم والدماء . ونهانا عن الفواحش وقول الزور واكل مال اليتيم وقذف المحصنات . وأمرنا أن نعبد الله ولا نشرك به شيئا . وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام . فصدقناه واتبعناه على ماجاء به من الله . فعدا علينا قومنا فعذبونا . فتنونا عن ديننا ليردونا الى عبادة الاوثان من عبادة الله ، وأن نستحل ماكنا نستحل من الخبائث . فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا الى بلادك واخترناك على من سواك . ورغبنا فى جوارك ، ورجونا الا نظلم عندك » !

ورجع عمرو بن العاص ومن معه خائبين بخفى حنين ..

وبقى جعفر ومن معه فى كنف النجاشى وبلاده .

ولقد اجتهد فافسر سر مقام جعفر بن ابى طالب اقامة رحبة فى الحبشة سنين وسنين حتى لكانه استوطنها ، بأنه ربما تطلع الى أن تنتشر دعوة الاسلام فيها بسلوكه وسلوك المسلمين وقدوتهم الحسنة فيكسب لهذا الدين الجديد رافدا فى قلب القارة الافريقية . وقد كان جعفر داعية جذابا بطبيعته وخلقه. فلعله كان يدعو هناك بحساب ، واضعا فى اعتباره الا يخدش مشاعر النجاشى الذى اكرم وفادتهم وآمنهم على انفسهم ودينهم . فلما بعدت الشقة والسنوات وتجمدت الامنيات لم يجد جعفر مفرا من السفر الى المدينة المنورة خاصة وقد شده الحنين الى رسول الله وقومه .

ولنعد الى بداية الحكاية ..

لم تكن ابنة حمزة هى « الجائزة » الوحيدة التى حصل ليها جعفر من رسول الله عند الاحتكام اليه ، بل انه لى بجائزة أخرى ما منحها النبى - على وفرة منحه الكريمة - لأحد سواه . نظر عليه السلام الى وجه جعفر ابن أبى طالب وتأمل طبعه وأخلاقه ثم قال له : أشبهت خلقى (بفتح الخاء) وخلقى (بضم الخاء) فانت منى من شجرتى !

وبقدر ماكان مقام جعفر طويلا فى الحبشة بقدر مابات قصيرا فى المدينة وفى الدنيا كلها ، وكأنما عاد طلبـــــا للشهادة !

قبل أن ينصرم العام على جعفر فى المدينة وفى السنة الثامنة للهجرة كانت غزوة مؤتة فى طريق الشام ردا على « تحرشات » هرقل واعتداءاته على حـــدود الجزيرة العربية .

كانت مؤتة غزوة شجاعة بالدرجة الاولى ، فشتان بين عدد الجيشـــين . الكثرة الكاثرة لجيش هرقل ، والبسالة الكاسرة لجيش محمد عليه السلام .

بحسبنا أن ندلل على تلك البســالة الخارقة بالمشهد الختامى فى حياة جعفر .. فى استشهاده ..

حمل جعفر اللواء بعد استشهاد زيد بن حارثة ، فجعفر القائد بعده كما أمر النبى عليه السلام . واندفع جعفر كالسـيل العرم بين صفوف العدو يحصدها بسيفه حصدا ، فى حرص بالغ على أن يظل اللواء مرفوعا وقد حمله بيمينه . فلما أصيبت يمينه وقطعتها ســيوف الأعداء حمل اللواء بشماله ورفعهـــا حرصا على رفع معنويات جنوده . فلما أصيبت شماله احتضن اللواء

بعضديه غير عابىء بما قطع من اعضائه وما نزف من دمائه حتى مات شهيدا ، وحمل اللواء من بعده القائد الثالث عبد الله بن رواحه .

ذلكم هو جعفر بن ابى طالب الذى كان الصحابى الراوية الاشهر ابو هريرة يقول عنه : كان جعفر أبر الناس بالمساكين ، وما احتذى النعال ولا ركب المطايا ولا لبس الكور (العمامة) بعد رسول الله افضل من جعفر .

اولم يشبه خلقه .. وخلقه !!

بلال وابن ام مكتوم

« الصوت » لا ينفك يميز بلال بن رباح ويلازمه ، ويترجم عما في فؤاده ، يبثه بثا ، ويثيبه ثوابا !

هكذا يتميز صوته عندما كانوا يطرحونه ارضا ويضعون حجارة الرمضاء حول صدره . كان التعذيب — أهول التعذيب — يلهمه بكلمة التوحيد ، لا يحول عنها ولا يحيد .

وهكذا يتميز صوته عندما كان يقف وكأن فى حنجرته مزامير داود وقناطير عذوبة يرفع آذان التوحيد ، دعوة صلاة للحميد المجيد .

وهكذا يتميز صوت مشيته ونعليه فلا يخطاه سمع رسول الله اذ يتبين — مقدما — صوت خطاه فى دار النعيم التى أعدت للمؤمنين الموحدين الصابرين المجاهدين .

كان بلال « سابق الحبشة » مثل صهيب « سابق الروم » من السابقين بالاسلام ومن المستضعفين فى الارض الذين عذبوا استخفافا بقدرهم ، وان كان قدرهم عند الله عظيما . غير أن بين مجموعة المستضعفين المعذبين كان تعذيب قريش — وخاصة أمية بن خلف — لبلال بن رباح هو الاشد اجحافا واسرافا ولكن بلا نتيجة أو جدوى . فكان بلال كلما تصايحوا فيه : ربك اللات والعزى ! جلجل بكلمة واحدة لايفتأ يتمسك بها : احد ! احد ! فاذا استشاطوا غضبا وامعنوا فى تعذيبه كانت

أنفاسه الخافتة تزفر : أحد ! أحد !

هذا « العبد » الحبشي يساوى مائة ألف « حر » من كفار قريش . وهو يغيظهم بصلابته . فلا تمكنوا من ان يخلصوا منه بالفعل ، ولا استطاعوا أن يردوه عن دينه ولو ظاهريا أو مسايرة أو توقيا للعذاب . شيء ازخر بأعاجيب الايمان وقدراته التي تفوق الحسبان. ثم يأتي أبو بكر الصديق فينقذه من قريش وينقذ قريشا منه اذ يشتريه بسبع أواق ويعتقه . ويتأذن الله لهذا الصوت الذى هتف باسمه أحدا لا شريك له بين يدى المشركين ، أن يقوم بين يدى رسول الله والمسلمين ويغدو أعظم المؤذنين وأعذبهم صوتا واشهرهم طرا .

ولان الاسلام هو دين الحق والعدالة والمساواة ونصرة الضعفاء ، والا فرق بين عربى وعجمى وحبشى الا بالتقوى ، والا عبودية لغير الله ، وان أكرمكم عند الله أتقاكم ، فلا يلبث بلال بن رباح أن تتبلور منزلته بعد أن اختبرتها المحن فرفعتها ، حتى أن عمر بن الخطاب من عمق وصدق اعجابه به يقول « أبو بكر سيدنا ، وأعتق سيدنا » .. يعنى بلالا .

ويلزم بلال صحبة رسول الله مؤذنا فى الحضر والسفر و « ياورا » فى الحل والترحال ، ومقاتلا فى كل الغزوات.

ومن شدة تعلقه برسول الله شخصا ورسالة فانه لما توفى عليه السلام ولم يكن قد دفن بعد وأخذ بلال يؤذن للصلاة ، فعندما بلغ قوله اشهد أن محمدا رسول الله.. اعتصرته احزان الناعى فبكى بلال وانتحب الناس فى المسجد . فى تلك الساعة اتخذ بلال قرارين . أولهما : الا يؤذن لاحد بعد النبى عليه السلام .. وقد احترم قراره ابو بكر ثم عمر . والقرار الثانى : أن يقضى مابقى

له من حياة غازيا فى سبيل‌الله . وقد لبى الخليفتـان رغبته فى ذلك ايضا ، فخرج بين بعوث الشام حتى مات فى دمشق سنة عشرين هجرية فى خلافة عمر .

عاش بلال ماعاش لا بطرته النعمة ، ولا نسى أو تعالى على أصله . كان اذا جاءه قوم يذكرون فضله وما قسم الله له من الخير يقاطعهم بقوله : انما انا حبشى كنت بالامس عبدا ..

وما كان بلال عبدا لاحد ، انما ظل عبد الاحد .. الاحد الذى لاشريك له .. الاحد الذى كلنا عبيده على حد سواء .

ولكم دلف بلال الى معاركه في سبيل اللهوصوت‌خطاه المميز يصحبه . انه علامة مميزة حتى أن النبى عليـه السلام قال : دخلت الجنة فسمعت حشف نعليك بين يدى يابلال !

ترى هل كان بلال هو المؤذن الاوحد لرسول الله ؟

الواقع انه كان المؤذن الاول والاشهر والارخم صوتا ، ولكن كان ثمة اثنان آخران هما عمرو بن أم مكتوم وابو محذوره .

لم يكن لعمرو بن أم مكتوم ما لبلال من صيت وصوت فى الاذان ، الا ان بلالا كان كثيرا ما يؤذن ثم يقيم الصلاة ابن أم مكتوم ، أو يؤذن ابن أم مكتوم ويقيم الصلاةبلال .

وكان عمرو بن أم مكتوم مكفوف البصر ورغم ذلك فقدرته فائقة فى توخى الفجر . كان لا يخطأه قط فيؤذن للفجر . وروى عن النبى أنه كان يقول فى شهر رمضان : ان بلالا يؤذن بليل وكلوا واشربوا حتى يؤذن ابن‌أم‌مكتوم!

اسلم عمرو بن أم مكتوم فى السنوات الاولى للبعثـة المحمدية . وتختلف الروايات فيم اذا كان قد هاجر

الى المدينة بعد بدر أم انه سبق بالهجرة اليها مع مصعب ابن عمير يقرئان الناس القرآن الكريم قبل الهجرة النبوية الشريفة .

على أن الصحابى ابن ام مكتوم اشتهر بشىء غير رفع الآذان . شىء آخر مسجل له .. واين ؟ فى كتاب الله العزيز .

كان بعض وجهاء قريش وعظمائها ــ ومنهم عتبة بن أبى ربيعة ــ يجلسون الى النبى ، وهو عليه السلام يدعوهم ويحاول أن يكسبهم ويطمع فى اسلامهم . وأثناء تلك اللحظات والنبى جالس مع هؤلاء اقبل ابن ام مكتوم الاعمى يسأل النبى عن بعض أشياء، فأعرض عنه النبى. لم يلتفت اليه ومضى يخاطب وجهاء قريش .

وتنزلت فى ذلك آيات من العتاب الالهى لنبيه . نزلت سورة عبس .

« عبس وتولى . أن جاءه الاعمى . وما يدريك لعله يزكى . أو يذكر فتنفعه الذكرى . أما من استغنى . فأنت له تصدى . وما عليك الا يزكى . وأما من جاءك يسعى . وهو يخشى . فأنت عنه تلهى . كلا انها تذكرة » .

الدعوة كما أرادها الله هى للناس كافة ، للغنى والفقير ، للاعمى والبصير ، للشريف والضعيف ، لكل زمان ومكان .

وبعد نزول هذه السورة دعا النبى أبن أم مكتوم فأكرمه . وكان اذ يراه يبسط له رداءه ويحييه قائلا : اهلا بمن عاتبنى فيه ربى ! واستخلفه النبى على المدينة المنورة فى عدد من المرات التى كان عليه السلام يخرج فيها من المدينة غازيا .

ذلك الاعمى .. ابن أم مكتوم عوضته بصيرته عن بصره .

بل كم ألحت عليه « حاسته السادسة » أن تقوم مقام النظر فيشارك المبصرين مايظنونه وقفا عليهم .. شاركهم حتى الغزو فى سبيل الله الذى هو معفى منه لكونه من أولى الضرر وذوى العاهات .

وبالفعل راح يغزو مع الغزاة ! وكان يقول : ادفعوا الى باللواء وأقيمونى بين الصفين ، وانى أعمى لاأستطيع ان افر !!

ورحل ابن ام مكتوم حتى القادسية ، فيروى انس ابن مالك ان ابن أم مكتوم كانت معه راية سوداء يوم القادسية وعليه درع سابغة !

اى صحابة كان هؤلاء جميعا ؟ اسبغ الله عليهم رحمته .

سعد بن الربيع
واوس بن الصامت

اريحية حتى الشمالة .. حتى النفس الاخير ! وايمان يجرى فى الدم ، فى خلايا المخ وشعيراته ، فى شغاف القلب ونبضاته ، وفى خفقات الروح ومسراها داخل كيانه . حتى اذا بلغ « السر الالهى » الحلقوم ، وتهيأت الروح لنظرة وداع تلقيها على دنيا البشر فاضت تلك النظرة ايمانا واسلاما وحبا لله ورسوله !

ذلكم هو الصحابى الانصارى الجليل سعد بن الربيع ، وتلكم كانت خاتمة مشاهده قبيل اسدال الستار على دنياه !

اذ ران الصمت فلا صليل سيوف ولا قراع اسنة ورماح ، واذ انقشع نقع المعركة ولم يعد فى ساحتها الا القتلى والجرحى ، كان صاحبنا ـ سعد بن الربيع ـ مطرحا مع سكرات الموت . ومن عجب انه لا السكرات توجعه ، ولا الجراحات تؤلمه ، ولا الحرص على الدنيا يشغله . انما همه كله فى الحرص على دين الله ورسول الله . ثم ان رسول الله عليه افضل الصلاة والسلام كان جد مهموم بقتلى وجرحى غزوة أحد . انه عليه السلام يعلم أن الله تبارك وتعالى لن يتخلى عنه ، وأن هزيمة لحقت بالمسلمين فى تلك الساعة بين جبل أحد هى مجرد محنة عارضة واعظة . كان النبى اذن فور انتهاء المعركة مشغولا فى المقام الاول بالجرحى والقتلى من المسلمين . وبعث عليه السلام ـ بين مابعث ـ رجلا يفتش عن سعد بن الربيع ويستقصى عنه ويطمان عليه . ولقيه

الرجل على حالته تلك فى الساحة فأنبأه أن رسول الله يسأل عنه . فقال سعد : اذهب اليه فأقرئه مني السلام واخبره أني قد طعنت اثنتى عشرة طعنة ، وأن قد انفذت مقاتلي ، وأخبر قومك أنه لا عذر لهم عند الله أن قتل رسول الله واحد منهم حى !! ثم لم يلبث هذا الصحابى المبرور أن أسلم الروح .

انظر فيم كان يفكر ، وعلى أى كلمات مات !

حقيقة أريحية حتى الثمالة .. حتى النفس الاخير !

ولعلنا نتذكر كيف التقينا بأريحية له من قبل وبدت بعيدة عن التصديق ـ وان كانت حقا وصدقا ـ وأنها طالعتنا وأدهشتنا فى سطور سابقة اذ آخى النبى بين المهاجر عبد الرحمن بن عوف وبين الانصارى سعد بن الربيع . فقال هذا الاريحى السخى لابن عوف : اى أخى! أنا أكثر أهل المدينة مالا ، فاليك نصف مالى فخذه ! ولكن ابن عوف تعفف وشكر واعتذر وآثر أن يعرق فى السوق ليخلف الله عليه برزقه .

وقبل أن يغمض سعد بن الربيع عينيه للمرة الاخيرة اخذ يستعيد فى مخيلته ذكرى أول لقاء له بالنبى عليه السلام عندما رحل سعد بن الربيع معنيف وسبعين نفرا من أهل المدينة الذين أسلموا قاصدين الحج ، والتقوا بالنبى فى منى وبايعوه بيعة العقبة فقال لهم عليه السلام : أخرجوا لى اثنى عشر نقيبا عنكم يكونوا كفلاء على قومهم كما كفلت الحواريون لعيسى بن مريم . فاختاروا اثنى عشر رجلا كان سعد بن الربيع أحدهم . وبارك عليه السلام هذا الاختيار وقال لوفد الانصار : تبايعونى على أن تشهدوا ألا اله الا الله وأنى رسول الله وتقيموا الصلاة وتؤتوا الزكاة . تبايعونى على السمع والطاعة ولا تنازعوا

الامر أهله ، وتمنعوني مما تمنعون منه انفسكم واهليكم .
قالوا نعم . قال : فلكم الجنة والنصر .
ولقد صدقوا ماعاهدوا الله عليه وما بايعوا عليــــه رسوله . وها هوذا نقيب منهم منع رسول الله مايمنع منه نفسه واهله فى بدر فكان له النصر ، ثم فعل الشيء نفسه فى احد فكانت له الشهادة والجنة !

ولقد قسم الله وقضى أن يمسى استشهاد سعد بن الربيع وما ترك من ذرية سببا من اسباب نزول القرآن باحكام الميراث .

ذلك أن سعد بن الربيع عندما استشهد ترك زوجة وابنتين لم ينجب غيرهما ، وكان أهل الجاهلية يجعلون جميع الميراث للذكر دون الاناث . فجاءت زوجة سعد الى رسول الله وقالت : « يارسول الله ! هاتان ابنتا سعد قتل أبوهما يوم أحد شهيدا . وان عمهما أخذ مالهما فلم يدع لهما مالا . والله لاتنكحان الا ولهما مال » ! فقال عليه السلام : « يقضى الله فى ذلك » . فأنزل الله عليه آية الميراث « يوصيكم الله فى اولادكم للذكر مثل حــظ الانثيين » الى آخر الاية « ١١ النساء » . ودعاعليه‌السلام عمهما وقال : اعط ابنتى سعد « الثلثين » و « اعط امهما الثمن والك مابقى » .

زوجة صحابى انصارى آخر قضى الله أن تكون سببا من أسباب نزول القرآن بحكم آخر فى مسألة « المظاهرة »

الصحابى الانصارى هو أوس بن الصــامت وهو من « البدريين » وممن شهدوا وشاركوا فى كل غزوات النبى.

تلاحي وتنازع أوس مع زوجته خوله بنت ثعلبة فى شأن من الشئون فقال : انت على كظهر امى ! ثم ندم على ملاحاته وغضبته واوجس مما بادرها به وقال : ما اراك

الا قد حرمت على ! قالت : ولكنك ماذكرت طلاقا ! فلم يعرف ماذا يفعل . غير أن خوله بنت ثعلبة أتت النبى فأخبرته بما كان بينها وبين زوجها أوس وأخذت تجادل رسول الله فى هذا الامر . ثم نزل الوحى على النبى الكريم بالحكم . واستدعى النبى خوله بنت ثعلبة وقال لها قد أنزل الله فيك وفيه قرآنا .

« قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى الى الله ، والله يسمع تحاوركما ، ان الله سميع بصير . الذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هن امهاتهم ، ان أمهاتهم الا اللائى ولدنهم ، وانهم ليقولون منكرا من القول وزورا ، وان الله لعفو غفور . والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا ، ذلكم توعظون به ، والله بما تعملون خبير . فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا فمن لم يستطع فاطعام ستين مسكينا ، ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله ، وتلك حدود الله ، وللكافرين عذاب أليم » . (١ ، ٤ المجادلة) .

وقال النبى لخوله زوجة أوس : مريه أن يعتق رقبة . قالت : وأنى له ؟ قال : فمريه أن يصوم شهرين متتابعين . قالت : لا يطيق ذلك . قال : فمريه فليطعم ستين مسكينا . قالت : وأنى له ؟ قال : فمريه فليأت أم المنذر بنت قويس فليأخذ منها شطر وسق تمر فليتصدق به على ستين مسكينا . فرجعت الى أوس فسألها : ماوراءك؟ قالت : خير .. وانت ذميم !! ثم اخبرته فذهب الى أم المنذر وفعل ما أمر به الرسول عليه السلام . وتاب أوس وضاعف من عباداته ، والله يحب التوابين ويحب المتطهرين .

ان الاحكام مقدرة فى علم الله ومفروضة من قبل أن يبرأ سبحانه الارض وما عليها ، غير أنه عز وجل قضى أن يجعل لكل شيء سببا . والرسول المبلغ الامين قد بعثه الله فى مجتمع البشر الذى له قضاياه ومشكلاته المتصارعة صغرت أم كبرت ليأمر النـــاس بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهـــم الخبائث . ويضع عنهم اصرهم والاغـــلال التى كانت عليهم . «فان تنازعتم فى شيء فردوه الى الله والرسول» (٥٩ النساء) .

ثم ان الله جلت حكمته قضى أن يجعل بين أســباب نزول القرآن هذه المعايشة اليومية بين النبى وصحابته وجمهور المسلمين وتلك الاسئلة التى يوجهونها . فهم يسألونه عن الاهلة ، ويسألونه عن الخمــر والميسر ، ويسألونه عن الانفال ، ويسألونه ماذا ينفقون ، ويسألونه عن الروح الخ الخ ..

عبر ثلاث وعشرين سنة من البعثة المحمــدية تنزل القرآن الحكيم على الرسول الكريم هدى للناس وتشريعاً وشفاء ونورا ورحمة وتبيانا لكل شيء « وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا » حتى تأذن الله بتمام رسالة النبى محمد المبعوث للناس كافة « اليوم أكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتى ورضيت لكـم الاسلام دينا » .

وصدق الله جل وعلا وتباركت آياته « وما فرطنا فى الكتاب من شيء » ٣٨ الانعام .

ابو دجانة

غالبا ما التقط واقعة واقترب منها سواء تخففت أو توسطت أو توغلت فى الرؤية والحوار ، ثم اخال أن الواقعة التى التقطتها قد استوفت حقهـــا فى التقديم الشخصية محل التصوير ، فانتقل بالفكر والقـــلم و « العدسات والسماعات » الى مشاهد أخرى سابقة عليها أو لاحقة فى حياة هذا الصحابى أو ذاك وبزوايا مختلفة لعلها تقترب وتتوجه الى « بانوراما » ورحاب السيرة النبوية الشريفة . نعم ، فلعلى أشعر انه على تشابه الزمان والمكان فى كثير مما تقدم من تقديم لبعض الصحابة ، فان تكرار واختلاف زوايا الاقتراب ، وتنوع اللقطات متجاورة أو غير متجاورة انما هى محـــاولة « تعايش » مع تلك المرحلة الطاهرة الناضرة الباهرة فى صدر الاسلام والبعثة المحمدية . ثم ان هذه المحاولة لاتعنى أبدا أنها لاتكترث بحاضرنا ، بل ان اكتراثهـــا بالحاضر هو فى الظاهر والباطن قوى وبديهى ، حتى ولو ببضعة سطور قليلة ، أو بايماءة أو علامة اســـتفهام وتعجب ! بل ان مجرد تكثيف الدروس والعبر والعظات بينها — فيما أرجو — ليدلل بذاته و « بمفهوم المخالفة » أيضا أن الحاضر هو فى بؤرة الاهتمام ، فنحن لانستطيع أن ننسلخ لا من جلودنا ولا من عصرنا !

وكثيرة هى المرات التى اقتربت فيها بين صفحات هذا الكتاب من غزوة أحد والتقطت منها ما التقطته .

ولكونها مؤثرة وحافلة فلا زال ثمة مزيد وجديد .

ولقد يكون ذلك الصحابى الانصارى الخزرجى المدنى الذى اسمه سماك بن خرشة والذى شـــهرته « أبو دجانة » .. قد يكون عرف أول ماعرف بعصابته الحمراء التى كان يلف بها رأسه حين يقاتل أعداء الله فى غزوة بدر وينتصر مع المنتصرين . غير أن أعظم ماحببني فيه موقفه الصامد الفدائى بعد أن مال ميزان غزوة أحـد من نصرة للمسلمين الى ارتباك بينهم وتفرق صـفوف وتمزق وهلع مما أغرى قريشا بتشديد هجومها المضاد الكاسح الذى يستهدف رسول الله بالدرجة الاولى بغية قتله . هنالك امتحن المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا . هنالك يثبت الرجال ولا هم لهم الا أن ينافحوا عن حياة رسول الله ، وذلك هو عين الذود عن دين الله . وكان أبو دجانة أحد أقرب الصحابة الذين استماتوا فى الدفاع وفى حماية النبى الذى يحميه الله من قبل ومن بعد . جعل أبو دجانة من جسمه متراسا حول رسول الله . أحنى ظهره ومده كأنه الدرع تستقبل النبال دون رسول الله . وكل دقيقة تمر يحمى القتال أكثر ويزداد شراسة ولكن أبا دجانة وأصحابه من حول النبى يزدادون ثباتا واستبسالا . فلما ظن المشركون أن النبى قد قتل فرحوا واقفلوا راجعين من حيث أتوا . ونجا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وانما الفضل لله الذى يعصمه .. ثم للجنود المجهولين والصـــحابة المؤمنين من أمثال أبى دجانة .

هكذا انتقل ابو دجانة فى غزوة احد من الهجوم الى الدفاع ، فرجحت كفة دفاعه المجيد كفة هجومه الذى صال وجال وشن ورن ! ذلك ان ابا دجانة كان قـد

تعصب كعادته بالعصابة الحمراء واتجه مع المسلمين صوب رسول الله لدى التجمع التمهيدى واحتشاد المقاتلين قبيل ساعات من غزوة أحد . وكان النبى عليه السلام يمسك بيده سيفا وينادى على المسلمين : من يأخذ هذا السيف ؟ فتدافع الجميع يود كل واحد منهم أن يظفر بهذا السيف . الا أن النبى وضع شرطا ضمنيا ومنطقيا للحصول عليه فقال : من يأخذه بحقه ؟ هنا أحجم من أحجم الا أبو دجانة قال : انا آخذه بحقه ، فأفلق به هام المشركين ، وحصل أبو دجانة بالفعل على السيف فاستخفه الطرب والجزل يرتجل الرجز

أنا الذى عاهدنى خليلى
بالشعب ذى السفح لدى النخيل
الا اكون آخر الافول
أضرب بسيف الله والرسول

ومشى أبو دجانة يتبختر ويختال بسيفه بين الصفوف فقال عليه السلام : انها مشية يبغضها الله الا فى هذا الموطن .

والذى فعله أبو دجانة مهاجما بهذا السيف فى غزوة أحد هو منتهى البسالة ، فكان يشق صفوف المشركين شقا ، ويفلق بسيفه — كما تعهد — العشرات من هامات المشركين . أخذ كلما حمل بسيفه على أحد قتله الا عندما سمع ولوله تبين له أن صاحبتها هند بنت عتبة (آكلة الاكباد) ، فتعفف أبو دجانة ولم يمسها بسوء .. فليس من تكريم سيف رسول الله أن ينال من امرأة !

ظل أبو دجانة بعصابة الموت الحمراء فوق رأسه ينشر الموت بين الأعداء حتى وقع المحظور وترك بعض المسلمين مواقعهم التى أمرهم النبى أن يلزموها ،

واندفعوا الى الغنائم ، وشغلوا « بالنهب » عن الحرب فانكشفت خطوطهم ووقعت بينهم الفوضى التى استغلتها قريش وقلبت الموازين وأدارت الدوائر على المسلمين لحكمة أراد بها الله أن يتلقوا بها درسا بليغا ، وأن يعلم الصابرين .

ومن هنا فان الاعجاب والتقدير والامتنان لابى دجانة فى شجاعته الدفاعية التى أوضحتها يتفوق على شجاعته الهجومية .

كان أبو دجانة صحابيا بسيطا عفويا سخى النفس بقدر ماهو مقاتل شجاع القلب .

مرض أبو دجانة ذات مرة فاقبل عليه عواده وقد وجدوا وجهه مشرقا كان ليس يشكو من اية علة . فسألوه : ما لوجهك يتهلل ؟! فقال : مامن عملى شىء اوثق عندى من اثنتين : اما احداهما فكنت لا اتكلم فيما لا يعنينى (الحديث : من حسن اسلام المرء تركه ما لايعنيه) ، واما الأخرى فكان قلبى للمسلمين سليما !

الله .. ! ما اجمل وما اجل ! ما أصفى وما اشفى !

ولست أدرى ما اذا كان هو ذاته سيف رسول الله الذى قاتل به أبو دجانة فى غزوة أحد أم هو سيف آخر ذلك الذى قاتل به أبو دجانة وشفى صدور قوم مؤمنين ابان خلافة أبى بكر الصديق ؟!

فلقد عاد أبو دجانة ليطل بوجهه فى صفحات التاريخ هناك فى اليمامة حيث جرت معركة من اخطر واحسم المعارك فى تاريخ ديننا الحنيف بين جيوش المسلمين بقيادة سيف الله المسلول خالد بن الوليد وبين مسيلمة الكذاب مدعى النبوة واتباعه المضللين الذين تكاثروا . غير أن الايمان الصادق كان الاغلب والاشجع ، فاكتسح

مسيلمة فيمن فروا ، لكن سيف ابي دجانة كان وراءه بالمرصاد . اسرع ابو دجانة الى مسيلمة الكذاب فضربه بسيفه وقتله .

ومن « سخرية القدر » او من المفارقات حقا أن غزوة احد كان يقاتل فيها حمزة بن عبد المطلب وأبو دجانة جنبا الى جنب قتال الاسود حتى اســتطاع تابع من المشركين اسمه « وحشى » أن « يغتال » ـ بتحريض من هند امرأة ابى سفيان ـ أسد الله حمزة فى غزوة احد . ثم ان هذا الوحشى الحبشي اسلم بعد فتح مكة ـ والاسلام يجب ويغفر ماقبله ـ وامسى فى عداد المسلمين ، وتدور الايام فاذا بوحشى المسلم يقاتل جنبا الى جنب مع ابى دجانة فى اليمامة ضد المرتدين عن الاسلام .. وليس هذا فحسب ، بل ان « وحشى » كان هــــو من رمى مسيلمة الكذاب برمحه فاصابه ثم اتبعه ابو دجانة فعاجل مسيلمة بضربة سيفه وقضى على الكذاب مدعى النبوة .

عاش ابو دجانة عمره بقلب كان للمسلمين سليما ، ثم اتى الله مستشهدا بقلب سليم .

عبدالله بن مسعود
وأبـى بن كعـب

« شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان » ١٨٥ البقرة .

فى تلك الليلة المباركة من هذا الشــهر المبارك كانت البداية اذ تنزل فى ليلة القدر التى هى خير من ألف شهر . بالحق أنزله الله على محمد ، وبالحق نزل . فتبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا .

ان شهر رمضان هو شهر القرآن نزولا وتلاوة .

فحرى بنا فى شهر القرآن أن نعكف على قراءته وتلاوته وتدبر آياته أكثر مما كنا نعكف فى أيام أخر .

وحرى بى أيضا ــ وقد تعددت النماذج من الصحابة وما ترمز اليه ــ أن اطل على اثنين من الصحابة الاجلاء بينهما وبين الايات القرآنية الكريمة صلة حميمة ، فكانا من اشهر قارئيها ولمن ؟ لمن نزلت عليه .. لرسول الله صلى الله عليه وسلم . هما اذن فى طليعة حملة القرآن او كتبته . والقسـمة عادلة بينهما ، فأحدهما من المهاجرين والاخر من الانصار ، ويبدو أن تشـابههما فى هذا القرب من كتاب الله حدا بالنبى أن يؤاخى بينهما .

من السـابقين ، بل من بين العشرة الاوائل الذين أسلموا ، كان الصحابى عبد الله بن مسعود . وهو لم يصــاحب النبى فحسـب ، بل لازمه ملازمة خدمة وجهاد . ان من بعض الصحابة من تصور أن ابن مسعود وأمه « امابن عبد وبنت ود) هما من إهل بيت النبى عليه السلام لما يرون

من كثرة دخولهما على الرسول ولزومهما له . أما الجهاد فلا مشهد أو غزوة من غزوات النبى فاتت ابن مسعود على الاطلاق . ومن الواضح أن المشاهد والغزوات كانت مسألة بالغة الاهمية فى تقييم الرجال والحكم عليهم ، وكأنما الجهاد هو فى مقدمة المعايير التى تفرق بين الصالح والطالح .

على أن ماجعل عبد الله بن مسعود واحدا من أكرم النجباء بين أصحاب النبى جملة أشياء أخرى ، منها صوته الرخيم وهو يتلو القرآن الكريم ، واهتماماته العلمية بكتاب الله سورة سورة حيث نزلت وآية آية وفيما أنزلت ، وروايات لاحاديث شتى عن النبى عليه السلام (فى الصحيحين وحدهما روى مائة وعشرين حديثا) . ولطالما تذاكر التابعون والمؤرخون عبد الله ابن مسعود ، بل بلغ من الصدارة أنهم اذا قالوا «عبدالله» مجردا من أية افاضة ودون أن ينسبوه الى أبيه فانما يعنون عبد الله بن مسعود لا سواه !

كان النبى عليه السلام قد عهد الى ابن مسعود أن يأخذ ويحفظ القرآن عنه ، وهى منزلة ثقة وتكريم .

وذات يوم طلب النبى من عبد الله بن مسعود ان يقرأ عليه ماتيسر من القرآن فقال ابن مسعود :

يارسول الله ! اقرأ عليك ، وعليك انزل ؟! فقال عليه السلام : انى أحب أن أسمعه من غيرى . فقرأ ابن مسعود على النبى سورة النساء حتى انتهى الى هذه « الاية » « فكيف اذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا » ٤١ النساء قال عليه السلام : حسبك الان ! فالتفت ابن مسعود الى النبى ، فاذا عيناه تذرفان ..

ونتيجة لهذه الصحبة الخاصة التى يغبط عليها عبد الله بن مسعود ، كان من أعلم الناس بمعانى القرآن .

وأمير المؤمنين عمر بن الخطاب يمر بقوم من المسلمين فيهم عبد الله بن مسعود . فأخذ عمر يسأل القوم : اى القرآن أعظم ؟ قال ابن مسعود : « الله لا اله الا هو الحى القيوم » ٢٥٥ البقرة قال عمر : فأى القرآن احكم ؟ قال عبد الله : « ان الله يأمر بالعدل والاحسان » ٩٠ النحل . قال : فأي القرآن أجمع ؟ قال : « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » . ٧ ، ٨ الزلزلة . قال : فأى القرآن أخوف ؟ قال : « ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب من يعمل سوءا يجز به » ١٢٣ النساء . قال : فأى القرآن ارجى ؟ قال : « ياعبادى الذين أسرفوا على انفسهم لا تقنطوا من رحمة الله » ٥٣ الزمر . قال عمر : حقا ان فيكم ابن مسعود !

ومن هنا فقد كتب عمر الى اهل الكوفة انه يبعث اليهم عمار بن ياسر أميرا، وعبد الله بن مسعود معلما ووزيرا ، وطلب أن يقتدى أهل الكوفة بهما . واضاف فى كتابه قوله : وقد آثرتكم بعبد الله على نفسى !

واننا لنقف احيانا حيارى أمام مانطالعه ويطالعنا من انباء هؤلاء الاولين وما يروى عنهم وما سجله بلسانهم المؤرخون وأشباههم ونتساءل : أكانوا حقا على هذا القدر من الحكمة والبراعة والبلاغة والرصانة ؟ أو لم يكن لهم من هم الا ان يحسنوا الالفاظ والمعانى فى حياتهم اليومية ؟ والرد على ذلك انهم بالتأكيد لا هم تكلفوا او تقعروا او اوعوا ، فتلك هى بيئتهم وموهبتهم ولغتهم وقد صقلتها التربية الاسلامية . ثم أن هذه ليست محض حياتهم

اليومية ، بل هي أضواء على مواقف منها جديرة بالرواية والعناية !

مثلا .. راقب موسيقى الالفاظ وطلاوة المعانى وخرير الحكمة فى هذا المشهد الذى يروى عن ابن مسعود . مرض عبد الله بن مسعود فعاده عثمان بن عفان فسأله : ماتشتكى ؟ قال : ذنوبى ! قال : ماتشتهى ؟ قال : رحمة الله ! قال : أو آمر لك بطبيب ؟ قال : الطبيب أمرضنى ! قال : الا آمر لك بعطاء ؟ قال : لا حاجة لى فيه ! قال : يكون لبناتك .. قال : أتخشى على بناتى الفقر ؟ انى أمرتهن أن يقرأن كل ليلة سورة الواقعة . وانى سمعت رسول الله عليه السلام يقول من قرأ الواقعة كل ليلة لم تصبه فاقة أبدا !

لله دره من قارىء يوصى بالقراءة !

فاما الصحابى الاخر الانصارى الكاتب القارىء فهو ابى بن كعب . مقاتل مع المقاتلين فى جميع غزوات النبى ، غير أنه ينفرد مع قليلين بأنه كان ممن يكتبون فى الجاهلية قبل الاسلام ، ثم مع اسلامه واطمئنان النبى اليه كان يكتب للنبى مايوحى اليه من قرآن . ورفعه النبى مكانا عليا اذ قال عنه : أقرأ أمتى ابى بن كعب ..

ذات مساء دعا النبى عليه السلام ابى بن كعب فقال له: ان الله تبارك وتعالى امرنى أن اقرأ عليك ! قال ابن كعب: الله سمانى لك يارسول الله ؟ قال : الله سماك لى ! فأخذت الرجفة أبى بن كعب وكاد أن يشرق بدموعه وتخنقه العبرات رهبا واهتزازا وخشوعا . وقرأ النبى عليه سورة البينة « لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة » .

من هذا المنطلق ومن تلك الحافظة الواعية المدربة كان لزاما أن يغدو أبى بن كعب احد الاثنى عشر رجــلا من المهاجرين والانصار الذين عهد اليهم أمير المؤمنين عثمان ابن عفان أن يجمعوا القرآن لكتابته وتدوينه فى المصحف .

كان أبى بن كعب شيخا مهيبا ، ابيض شعر الرأس واللحية ، كثير العبادة قليل الكلام . احب كتاب الله وعكف عليه !

وصدق الله سبحانه وتعالى « الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى ، تقشعر منه جلود الذين يخشــون ربهم ، ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله » ٢٣ الزمر. وقد كان أبى بن كعب فىطليعة هذا الرعيل من الذاكرين ، فضلا عن كونه يشعر بتبعة الحفاظ على كتــاب الله . فأخذ كلما ختم القرآن تلاوة فى ثمــانى ليالى عاد يتلوه ويختمه وهكذا . أولم يصفه النبى عليه السلام بأنه اقرأ أمة محمد .

وذات مرة كان ابن كعب يجلس فى منتدى أمير المؤمنين عمر وجاء رجل اسمه جوبير يطلب حاجة من أمير المؤمنين. وقبل أن يجيب عمر الرجل الى حاجته تحدث أبى بن كعب فقال : ان الدنيا فيها بلاغنا وزادنا الى الاخرة ، وفيهــا أعمالنا ألتى نجازى بها فى الاخرة . فدهش جوبير وقال: من هذا ياأمير المؤمنين ؟ فقال عمر : هذا سيد المسلمين أبى بن كعب !

على انه رغم عزوف أبى بن كعب عن « السلطة » وربما عن الدنيا كلها ، الا انه أراد أن يستوضح أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وقد رآه يؤمر هذا ويوفد ذلك من كبار الصحابة فسأل ابن كعب عمرا : مالك لاتستعملنى ؟! فقال

الخليفة الخبير الحصيف : أكره أن يدنس دينك !

وفى يوم عاصف شديد الريح والغبرة كان الناس يموج بعضهم فى بعض بالمدينة ، واقبل رجل يتساءل عن الخبر .. ماذا جرى حتى يتزاحم أهل المدينة ويخرجوا فى هـــذا الجو الكفير ، فقيل له : اما انت من أهل هذا البلد ؟ قال : لا ! قالوا له : مات اليوم سيد المسلمين أبى بن كعب !

كعب بن مالك

الثلاثة الذين وصفوا بأنهم شعراء النبى صلى الله عليه وسلم هم حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة . كانوا ينشدون القصائد بين يديه عليه السلام ، فيمدحونه ويسهبون فى ذكر المشاهد والغزوات ، أو يهجون قريشا ويندون بأعداء الله ، او يبكون فى مراثيهم الشهداء الغوالى من المسلمين . كأنما لاتمر مناسبة من المناسبات دون أن تستجيب لها شهيتهم الشعرية الفصيحة المفتوحة ! حسان بن ثابت بين الثلاثة اغزرهم وأشهرهم ، وكعب بن مالك أفطنهم وأوزنهم ، وعبد الله ابن رواحة أرجزهم وأوجزهم ! وكان الشعراء حول النبى عليه السلام كثيرين ، بل أحسب أن معظم العرب فى تلك الحقبة من الزمن فطروا على قرض الشعر وارتجاله . ومن هنا فان ثمة آخرين شاركوا الشعراء الثلاثة وانشدوا فى تلك الاغراض ولكن لماما وعرضا ، اما لانهم مقلون بطبيعهم ، وأما لأن ! « قضية الشعر » كانت قلقة وغائمة قد يرى البعض فيه كراهة . نظرا لما جاء فى سورة الشعراء من أنهم يتبعهم الغاوون ، وانهم فى كل واد يهيمون ، وانهم يقولون ما لايفعلون ، مع أن الاستثناء الذى انتهت اليه الايات بعد ذلك وخصت به الذين آمنوا (من الشعراء) وعملوا الصالحات يرفع الشبهات والحرج ، ويبرأ ساحة الشعر الطيب ، تماما كما جاء فى سورة العصر من ان الانسان (على اطلاقه) لفى خسر الا الذين آمنوا وعملوا

الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر .. فأمر الجزء (الشعراء) كأمر الكل (بني الانسان) !

وكما اختلف قدر الثلاثة ـ حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة ـ فى الشعر اختلف فى الشجاعة . كان عبد الله بن رواحة أشجعهم واقدوهم على القتال والقيادة ، وهو الذى عينه النبى عليه السلام قائدا بعد زيد بن حارثة وجعفر بن أبى طالب فى غزوة مؤتة فلقى وجه ربه شهيدا بعد صاحبيه زيد فجعفر . وشاعرنا الثانى كعب بن مالك مقاتل جيد ، ولقد ثبت فى غزوة أحد وجرح أحد عشر جرحا . أما حسان بن ثابت فكان يخشى القتال ويتجنبه حتى تفكهوا « بجبنه » وتقبلوه كأمر واقع لاسبيل الى تغييره وزرع قلب أسد مكانه !

والذى أفردته ونوهت به كتب السيرة النبوية من شعر هؤلاء الشعراء الثلاثة قصائد عديدة . وأبيات فياضة ، ومع ذلك فربما كانت أشهر القصائد التى ألقيت فى حضرة النبى عليه الصلاة والسلام هى لواحد آخر تأخر اسلامه الى مابعد فتح مكة ، وهو كعب بن زهير ابن أبى سلمى فى قصيدته الشهيرة فى مدح النبى والتى استهلها بقوله :

بانت سعاد فقلبى اليوم متبول

متيم اثرها لم يفد مكهول

وفيها قوله :

ان الرسول لنور يستضاء به

مهند من سيوف الله مسلول

ولقد خلع النبى بردته على كعب بن زهير بعد أن القى قصيدته تلك ، ومن هنا جاءت بردة البوصيرى ونهج البردة لشوقى .

انني قدمت بحديث الشعر واستطردت فيه اذ أوحى به الصحابى الشاعر كعب بن مالك .

قدمت بكليمات عن الشــعر لأعرب ــ ولو فى لحن القول ــ عن بعض الوفاء لهذا الفن الجميل المنغم المعبر .

على أننى ماعمدت الى الحديث عن الصحابى كعب ابن مالك لكونه واحدا من هؤلاء الشعراء الثلاثة بل بوصفه واحدا من ثلاثة آخرين اعتبر حكايتهم ــ وحكايته هــو بينهم على وجه الخصوص ــ واحدة من أعذب وأوعظ الحكايات التى ذهبت مثلا على حسن عاقبة الصــدق فى القول وفى الحياة ، وعلى كمال وجلال التوبة ، حتى أن الله عز وجل انزل توبة هؤلاء الثلاثة فى سورة التوبة ، وباتت قرآنا يتلى وذكرى تنفع المؤمنين .

واعترف أننى وقعت فى غرام هذه الحكاية الى الدرجة التى جعلتنى تناولتها كثيرا فى محاضرات ومقالات من زوايا مختلفة . وأحببت هنا والحديث موصول عن صــحابة النبى الذين تعددت نوازعهم وفضائلهم الا تخلو هــذه المجموعة من ذكر كعب بن مالك ، وذلك بأن أعود الى تأمل وعرض حكايته مع الصدق والتوبة . وفى رايى ان ماروأه كعب بن مالك فى تلك الحكاية هو احلى قصائده .. وان جاءت نثرا لا شعرا .

والصحابى كعب بن مالك هو من الانصار الذين قطعوا المسافات للقاء النبى عليه الصلاة والسلام ومبايعته فى العقبة قبل هجرته عليه السلام الى المدينة . وكعب يعتز أيما أعتزاز بهذه البيعة التى لاتعدلها عنده ــ وبأسلوب الشعر ــ غزوة بدر التى فاتته . ان كعب بن مالك لم يتخلف عن بدر بالمعنى الصحيح للتخلف ، وانمــا بدر نشأت ــ كما يفسر هو بمنطقه ــ « بأن رسول الله انما

خرج يريد عير قريش حتى جمع الله بينه وبين عدوه على غير ميعاد » . وباستثناء بدر فقد شهد كعب كل غزوات النبى وشارك فيها ، وقد تقدم بنا انه جرح فى غزوة أحد جراحا نجلاء متناثرة . إما الغزوة التى تخلف عنها كعب بالفعل والتى هى أصل ولب الحكاية فهى غزوة تبوك .

وباختصار وبشيء من التنسيق فى العرض والطول نمضى مع كلمات كعب بن مالك :

« تجهز رسول الله وتجهز معه المسلمون لتبوك ، وجعلت اغدو لاتجهز معهم فارجع ولم أقض حاجة ، فأقول فى نفسي : أنا قادر على ذلك اذا أردت ! فلم يزل ذلك يتمادي بى حتى شمر الناس الجد ، فأصبح النبى غاديا والمسلمون معه ولم أقض من جهازى شيئا ! فقلت أتجهز بعده بيوم أو يومين ثم الحق بهم . وهكذا حتى اسرعوا وسبقنى الغزو ، فهممت أن ارتحل فادركهم فلم أفعل .. وياليتنى فعلت ! ولم يذكرنى رسول الله حتى بلغ تبوك فسأل : مافعل كعب بن مالك ؟ فقال رجل من بنى سلمة : يارسول الله حبسه براده والنظر فى عطفيه ! فقال معاذ بن جبل : بئس ماقلت ، والله يارسول الله ماعلمنا منه الا خيرا . فلما بلغنى أن النبى عليه السلام قد توجه قافلا من تبوك حضرنى بثى وحزنى ! فجعلت أتذكر الكذب ، واقول بماذا أخرج من سخط رسول الله غدا ؟ فلما قيل ان رسول الله قد اظل قادما زاح عنى الباطل وعرفت انى لا أنجو منه الا بالصدق ، فأجمعت أن أصدقه . وجلس عليه السلام فى المسجد ، فجاءه المخلفون ، فجعلوا يحلفون له ويعتذرون فيقبل علانيتهم وايمانهم ويستغفر لهم ويكل سرائرهم الى الله تعالى . حتى جئت فسلمت عليه فقال

لى : ماخلفك ؟ قلت : لئن حدثتك اليوم حديثا كذبا لترضين عنى فيوشكن الله أن يسخطك على ، ولئن حدثتك حديثا صدقا تجد (تغضب) على فيه انى لارجو عقباى فيه من الله ! ولا والله ماكان لى عذر ! والله ماكنت أفرغ ولا أيسر منى حين تخلفت عنك ! فقال رسول الله عليه السلام : أما هذا فقد صدقت فيه ، فقم حتى يقضى الله فيك ! وعلمت أن رجلين صالحين هما مرارة بن الربيع وهلال بن امية قد تخلفا وقالا للنبى مثل مقالتى . ونهى النبى عن كلامنا نحن الثلاثة من بين من تخلف عنه . فاجتنبنا الناس وتغيروا لنا ، حتى تنكرت لى نفسى . فلبثت على ذلك خمسين ليلة . وخلالها اعتكف صاحباى فى بيتهما ، وكنت أشب منهما وأجلد فطفقت أخرج وأشهد الصلوات مع المسلمين واطوف بالاسواق .. ولا يكلمنى أحد ! وفى صبح اليوم الخمسين كنت أصلى اذ سمعت صوت صارخ يقول : ياكعب بن مالك .. أبشر ! فخررت ساجدا وعرفت ان قد جاء الفرج ! ثم انطلقت أتيمم رسول الله . وتلقانى الناس يبشروننى بالتوبة ، حتى دخلت المسجد ، فلما سلمت على رسول الله عليه السلام قال لى ووجهه يبرق من السرور : أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك ! قلت : أمن عندك يارسول الله ؟ قال : بل من عند الله ! فلما جلست بين يديه قلت يارسول الله ان من توبتى الى الله عز وجل ان انخلع من مالى صدقة الى الله والى رسوله . فقال عليه السلام : امسك عليك بعض مالك فهو خير لك . قلت : يارسول الله ! ان الله قد نجانى بالصدق ، وان من توبتى الى الله الا احدث الا صدقا ماحييت !

أنزل الله آياته

« لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والانصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعد ماكاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم ، انه بهم رءوف رحيم . وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى اذا ضاقت عليهم الارض بما رحبت ، وضاقت عليهم أنفسهم ، وظنوا أن لا ملجأ من الله الااليه، ثم تاب عليهم ليتوبوا ، أن الله هو التواب الرحيم . ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا من الصادقين » ١١٧ / ١١٩ التوبة .

حقيقة ان الصدق منجى ، وان الجزاء عليه أوفى . ويتوب الله على التائبين الصادقين ..

العبادلـــة

الحديث ـ فى خاتمة المطاف ـ يتم بأربعة دفعة واحدة من شباب الصحابة . لعله يوجز عن ثلاثة منهم ويتعدى الايجاز قليلا فيما يخص أحدهم . الحديث هو عـن الاربعة « العبادلة » وهم صحابة فتيان أو صبيان ، أبناء صحابة من عمد الصحابة ومن « المعهم » وأعظمهم قدرا وأثرا .

« العبادلة » يحمل كل منهم اسم عبد الله ، ولهذا يشار اليهم فى التاريخ الاسلامى بالجمع « عبادلة » وكأنما اجتمعوا فى طاقة أو صحبة زهور وورود واحدة .

انهم عبد الله بن عمر بن الخطاب ، وعبد الله بن عمرو ابن العاص ، وعبد الله بن العباس بن عبد المطلب ، وعبد الله بن الزبير بن العوام . منهم من اسلم مع أبيه كابن عمر ، ومنهم من أسلم قبل أبيه كابن عمرو ، ومنهم من ولد قبل الهجرة بثلاث سنين فقط مثل ابن العباس ، ومنهم من كان أول المواليد بعد الهجرة مثل ابن الزبير . وكانت لولادته رنة أفراح غامرة حيث كان قد اشـيع أن اليهود فى المدينة قد استخدموا السحر ليحولوا بين المسلمين والانجاب !

عبد الله بن الزبير بن العوام هو هذا « الصحابى » الصغير الذى لم يعاصر النبى عليه الصلاة والسلام الا أقل من عشر سنين ، ومع هذا فقد كان منذ أن تنفس الحياة جد قريب من رســول الله بحكم مكانة ابيـه

الزبير ، وبحكم القرابة الوثيقة والجدود المشتركة بينه وبين النبى عليه السلام ، وبحكم أن خالته السيدة عائشة هي شقيقة أسماء أم عبد الله بن الزبير . ويروى البخارى أن عبد الله بن الزبير - بتوجيه من أبيه - جاء وهو ابن ثمان سنين الى النبى يبايعه فابتسم له عليه السلام ثم بايعه ! ومن هذه النشأة وتلك المبايعة ومن مواهبه المتدفقة اكتسب عبد الله بن الزبير ما اكتسب فى عبادته التى لا تلوى على شيء الا مخافة الله ، وفى شجاعته التى لا تبالى حين يقتل وهو مؤمن على اى جنب كان فى الله مصرعه ، وفى فطنته المبكرة وسعة احاطته بما يدور حوله حتى انه حفظ عن النبى وروى عنه فى الصحيحين . وقد اشترك عبد الله بن الزبير مع أبيه فى واقعة الجمل ، ولما استشهد أبوه فيها لم يعتزل عبد الله « السياسة » ولم يسع للانتقام . بل شارك فى الغزوات الاسلامية وكان له نصيب ملحوظ فى فتح شمال افريقيا مع القائد عبد الله بن أبى السرح . وربما يخفى على كثيرين ممن لم يقرءوا تاريخ تلك الرحلة ان هذا المولود الاول فى الهجرة قدر له أن يغدو اميرا للمؤمنين! فبعد موت معاوية بن أبى سفيان سنة أربع وستين هجرية طفق عبد الله بن الزبير ينظر فى الامر ويشاور من حوله ، فاجتمع رايه مع رأيهم على كونه أجدر بالخلافة من يزيد بن معاوية . وعملها ابن الزبير بالفعل ! بقى يزيد على ملكه فى الشام فى حين بايع الناس عبد الله ابن الزبير أميرا للمؤمنين واجتمع على طاعته أهل الحجاز واليمن والعراق وخراسان ، وحج بالمسلمين ثمانى حجج . فلما جاءت السنة الثامنة من خلافته أى فى سنة اثنتين وسبعين هجرية ، لم تتحمل الدولة

الاموية مزيدا من السكوت ، فسيرت اليه جيشا هائلا بقيادة الحجاج بن يوسف الثقفي فحاصره في مكة وشدد عليه النكير ستة أشهر . ولما رأى عبد الله بن الزبير أن يستسلم قالت له امه كلمتها البليغة الشهيرة : لأن تموت كلما (أي بالجـــراح) أحب الى من أن تموت سلما ! فقال : أخشى أن يمثلوا بي وبجثماني قالت : ان الشاة لا تألم بالسلخ ! فقاتل حتى اســـتشهد ، وانتهت الخلافة « المجزوءة » لامير المؤمنين عبد الله ابن الزبير بن العوام .

أما عبد الله بن عباس فهو أحد « ملوك » الفقه والافتاء ورواية الاحاديث عن النبي عليه الصلاة والسلام . حتى أن له في الصحيحين (البخاري ومسلم) مائتين واربعة وثلاثين حديثا . ولان العرب مولعون بالتشبيه فقـــد كانوا يشبهونه بالبحر لسعة علمه ، كما شبهوه بالقمـر لوسامته وجماله ، فكانوا يقولون مارأينا القمر ليلة أربع عشر الا وذكرنا وجه عبد الله بن العباس !

وقد استجيبت فيه دعوة النبي عليه السلام ، فعندما توسم في عبد الله بن عباس نجابة وقوة حافظة وهو بعد صبي صغير .. دعا له : اللهم بارك فيه ، وفقهه في الدين ، وعلمه الحكمة والتأويل ! فلا غرابة ــ على صغر سنه ــ أن يرجع اليه أمير المؤمنين عمر في بعض الفتاوى بين الحين والحين .

واذا كان عبد الله بن الزبير قد رشح نفسه للخلافة وحازها من حيث اعرض عنها عبد الله بن عباس ، فان من نسل ابن عباس من اقاموا وتولوا اطول خلافة في تاريخ الامة الاسلامية .. خلافة وحكم العباســـيين الذين اعقبوا الدولة الاموية !

فأما عبد الله بن عمرو بن العاص الذى أسلم قبل أبيه ، فقد كان على حداثة سنه من فضلاء الصحابة ومن الزهاد المتعبدين المجتهدين . قال له النبى عليه السلام حين لقيه ذات يوم : بلغنى أنك تقول لأقومن الليل وأصومن النهار ماعشت ! فقال ابن عمرو : قد قلت ذلك يارسول الله ! فقال عليه السلام : لاتفعل ! وصم وافطر وقم ونم ! ولكم تكرر نصح النبى عليه السلام فى هذا الشأن ، مرة مع عثمان بن مظعون كما تقدم بنا ، ومرة مع عبد الله بن عمرو ، ومع غيرهما . ذلك أنه بقدر ماكان يدعو النبى الى عبادة الله مافتىء يحذر من المغالاة ويؤكد أن الدين يسر لا عسر والا رهبانية فى الاسلام . ومن الطريف أن هذا الشاب المتحمس (عبد الله بن عمرو) عندما راح النبى يحاوره فى شأن صيامه وقيامه وانتهى الى تقويمه على حد يطيق الدوام عليه ، كان عبد الله يود لو تركه يزيد على ذلك . غير أن هذا الشاب عندما كبر وضعف تمنى لو كان تقبل رخصة التخفف من الصيام والقيام ، ولكنه كره أن يترك فى شيخوخته شيئا فارقه عليه النبى صلى الله عليه وسلم .

ويروى أن أبا هريرة قال : ماكان احد اكثر حديثا عن رسول الله منى الا عبد الله بن عمرو ، فقد كان يكتب وكنت لا أكتب .

وقد كانت المحنة الحقيقية لعبد الله بن عمرو بن العاص انه ابن عمرو بن العاص الذى ناصر معاوية ضد الامام على بن ابى طالب ! وقد مر بنا ماكان يدور بينه وبين أبيه من حوار ومن عتاب على خذلان على بن ابى طالب ، وكيف أن معاوية ضاق به ذرعا ، وسأله ما الذى يبقيه

معهم فقال : لقد شكاني أبي الى رسول الله فقال لي عليه السلام اطع أباك حيا ولا تعصه ! لذلك أنا معكم ; ولست اقاتل ! أما في الفتوحات فلقد قاتل عبد الله بن عمرو كانت معه الراية في فتح اليرموك .

وعندي أنه من أحكم مأثوراته قوله « ان خيرا أعمله اليوم أحب الي من مثيله مع رسول الله عليه الصلاة والسلام . وذلك اننا كنا في زمن الرسول يهمنا الاخرة ولا تهمنا الدنيا ، ونحن اليوم مالت بنا الدنيا » !

اما عبد الله بن عمر بن الخطاب فذلكم — على فتوته في زمن النبي عليه السلام — صحابي جليل بمعنى الكلمة ابن صحابي جليل بمعنى الكلمة !

أسلم عبد الله وهو صبي مع أبيه . وهاجـــر الى المدينة . وعندما شرع النبي يتجهز لغزوة بدر كانت سن عبد الله بن عمـــر ثلاث عشرة ســـنة ، وعـــرض أن يشارك ولكن النبي رده لصغره ، ثم رده مرة أخرى في غزوة احد ، ثم قبله في غزوة الخندق حيث كان قد بلغ ست عشرة سنة ، ومن ثم لم تفته كل الغزوات التالية. على أن عبد الله بن عمر ورث عن أبيه ابن الخطاب الكثير من صفاته ، وعرف أكثر ماعرف بالصلاح ، وشهد له النبي بذلك فقال « ان عبد الله بن عمر رجل صالح » .

وروى عبد الله بن عمر عن النبي في الصحيحين مائتين وثمانين حديثا ، وكان كلما ذكر النبي عليه الســـــلام دمعت عيناه حبا واتباعا وشوقا ! ورغم أن الدنيا كانت تسعى اليه فانه كان يعرض عنها . رشح للخلافة يوم التحكيم فازور عنها ونأى بجانبه . وسمعوه يلهج في سجود له بالكعبة بتسبيح لله ويتمتم : يارب انك لتعلم أنه مايمنعني من مزاحمة قريش على هـــذه الدنيا الا

خوفك ! وكان عدد من الصحابة والتابعين يجمعون على قولهم : ما منا أحد الا مالت به الدنيا ومال بها الا عبد الله بن عمر ، لم يفتن ولم يتغير !

والذى يروى عن عبد الله بن عمر فى كتب السيرة والتاريخ الاسلامى كثير كثير ، حتى لكانه يرث أيضا عن أبيه عمر بن الخطاب بعض ذلك « الحضور التاريخى » !

اراد أمير المؤمنين عثمان بن عفان أن يستعمل عبد الله ابن عمر وأن يوليه سلطة فقال له ابن عمر : أما سمعت النبى يقول من عاذ بالله فقد عاذ بمعاذ ؟ فقال عثمان : بلي ! قال ابن عمر : فانى أعوذ بالله أن تستعملنى ! ومثلما أعرض ابن عمر عن السلطة فقد اعرض عن الفتن واعتزلها عندما تضاربت وادلهمت الاهواء ودبت الخلافات ، فلم يناصر أحدا على أحد ، وفرغ لعلمه وفقهه وعبادته . وقال لمن ساله فى ذلك : أنا قاتلت حتى كان الدين لله ولم تكن فتنة ، وانكم قاتلتم حتى كان الدين لغير الله وحتى كانت فتنة ! وبعد مقتل عثمان ابن عفان قيل لعبد الله بن عمر : انك سيد الناس وابن سيد الناس ، فأخرج نبايع لك الناس ! فقال : والله انى آبى أن يراق من أجلى محجمة دماء ! وخوفوه وطمعوه فما تزحزح حتى آخر عمره .

وكانت له فلسفته ووجهة نظره . وهذه هى أمثلة من فلسفته الخاصة وسلوكه .

قيل لابن عمر فى زمن الفتن والخوارج والظلمات التى بعضها فوق بعض : اتصلى مع هؤلاء ومع هؤلاء .. وبعضهم يقتل بعضا ؟! فقال : من قال حى على الصلاة اجبته ، ومن قال حى على الفلاح اجبته ، ومن قال حى

على قتل اخيك المسلم وأخذ ماله قلت لا !

وكان يقبل عطاء الخلفاء ، ويقول لا أسأل أحـــدا شيئا ، ولا أرد مارزقني الله به !

وكان يحب الطعام ولكنه يصبر في غيابه ، فلربما مر عليه شهر وهو يبيت طاويا راضيا ! بل انه كثيرا ما كان يشتهي الطعام الجيد ومع ذلك يجود به . طلب من أهله أن يشتروا له عنبا ، فجاءوا له بعنقود من عنب طيب ، ولما هم أن يفطر عليه مر سائل بالباب فقال لأهله ناولوا هذا العنقود لهذا السائل ! فقيل له ســبحان الله ! شيئا اشتهيته ، فهل لنا أن نعطي السائل غيره ؟! فقال اعطوه العنقود ، لن تنالوا البر حتى تنفقوا ممــا تحبون !

ودخل الحجاج بن يوسف الثقفي المسجد يخطب الناس ، وكان عبد الله بن عمر جالسا بالمسجد فأطال الحجاج في خطبته ، فناداه ابن عمر : أيها الرجل حانت الصلاة فاقعد ! ولم يزل الحجاج يخطب وابن عمر يأمره بأن يكف ثلاث مرات . فلما لم يستجب قال ابن عمر للناس : « أرأيتم ان نهضت للصلاة أتنهضون ؟ قالوا : نعم ! فنهض ونزل الحجاج وصلى الناس ! فلما انتهوا من الصلاة سأل الحجاج ابن عمر عما حمله على ذلك . قال : انما نجيىء للصلاة ، فاذا حضرت الصلاة فليصل الناس ، ثم بقبق بعد ذلك بما شئت من بقبقة !

وعلى اختلاف في التفاصيل فان خاتمة عبد الله بن عمر كادت تتشابه وخاتمة أبيه عمر بن الخطاب الذى طعنه المجوسى بخنجره وهو في المسجد . فقد كان عبد الله ابن عمر يصلى بالحرم الشريف فأصابه رمح رجل من أصحاب الحجاج فجرحه . واعتل ورقد في بيته ، فجاء

الحجاج يعوده فسأله : من الذى أصابك ؟ قال ابن عمر : أنت قتلتني ، حملت السلاح فى حرم الله فأصابنى بعض أصحابك !

وأوصى ابن عمر ان يدفن ليلا حتى لايعلم الحجاج فيصلى عليه !

وطويت صفحة واحد من أكرم شباب الصحابة وشيوخها . ولكن هل طويت صفحته حقا ؟ أبدا انها لمنشورة مأجورة .. وفى عليين !

ان هؤلاء الصحابة ممن ذكرت وممن لم أذكر خالدة صفحاتهم مطيبة مطهرة .

ان كلا منهم قيثارة تعزف بين « سمفونية » لا ضريب لها فى سمع الدهر ولا أقوى ولا أعذب !

فمتى يارب نسمع ؟ ومتى يارب نفيق ؟ متى نهب من مرقدنا ومن كوابيسنا ؟ متى نجاهد حقا فى سبيل الله ومن أجل عروبتنا وحريتنا وركائننا وعزتنا ! متى نسير على درب محمد رسول الله والذين معه ؟

لعلنا نفعل ذلك بنقاء وذكاء الوعى ، وباستجابة وصلابة الارادة ، وبأن نعلم أن الله لايغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ..

وسلام على النبى وصحابته .

فهـــرس

صفحـة

رقم الايداع ٣٤٠٩ ـ ٨٦

الترقيم الدولى ٦ ـ ٢٣٦ ـ ١١٨ ـ ٩٧٧ ISBN

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

الكويت : السيد / عبد العال بسيوني زغلول - الصفاة - ص. ب رقم ٢١٨٣٣ تليفون ٧٤١١٦٤

هـذا الكتاب

بسياق القصة التاريخية فى طلاوتها وتشويقها ، وبأسلوب الشعر فى حرارته وصدقه .. صنف الكاتب الشاعر مصطفى بهجت بدوى هذا الكتاب الذى يعتز " كتاب الهلال " بموضوعه مع مطلع شهر رمضان المبارك فهو المناسب له ولكل الشهور !

واذا كان للمحبة منحى خاص فى التعبير فيمكن القول انها هى التى خطت سطور " سلام على النبى وصحابته " محبة متاصلة لنبى الله ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، وايمان عاطفى وعقلانى برسالته ، واعجاب بشخصه متدفق لاينفد ، ومحاولة للتواصل بين الماضى والحاضر .

وفى الكتاب فصول عن النبى . عن خلقه العظيم ، وعن ارهاصات الرسالة المحمدية وتدرجها .. وقطوف من السيرة النبوية ، وأخرى فى وصفه ، وفى خدمته وفى ازواجه امهات المؤمنين .

حتى القسم الثانى من الكتاب والذى تناول فيه حياة الصحابة لم يخرج عن كونه حديثا متصلا عن محمد رسول الله .. فالذين معه ذابوا فيه جزءا لايتجزأ منه ، وآزروه فنصروا دين الله وهكذا توطدت بالنبى وصحابته دعائم الاسلام وارتفعت راياته فى مشارق الارض ومغاربها كأسمى واكمل شريعة لخير الانسانية فى الدنيا والآخرة ..

ومتعة تتجدد ولاتنضب ابدا ان نكتب او نتأمل او نقرأ ـ بطرائق شتى ـ حياة الخلفاء الراشدين الاربعة ابى بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلى .. ومعهم نماذج من نضال عدد من الصحابة الكرام الكبار بين مهاجرين وانصار ، وهم هنا نحو نيف وثلاثين صحابيا رضوان الله عليهم جميعا .

عدد خاص ١٠٠ قرش

